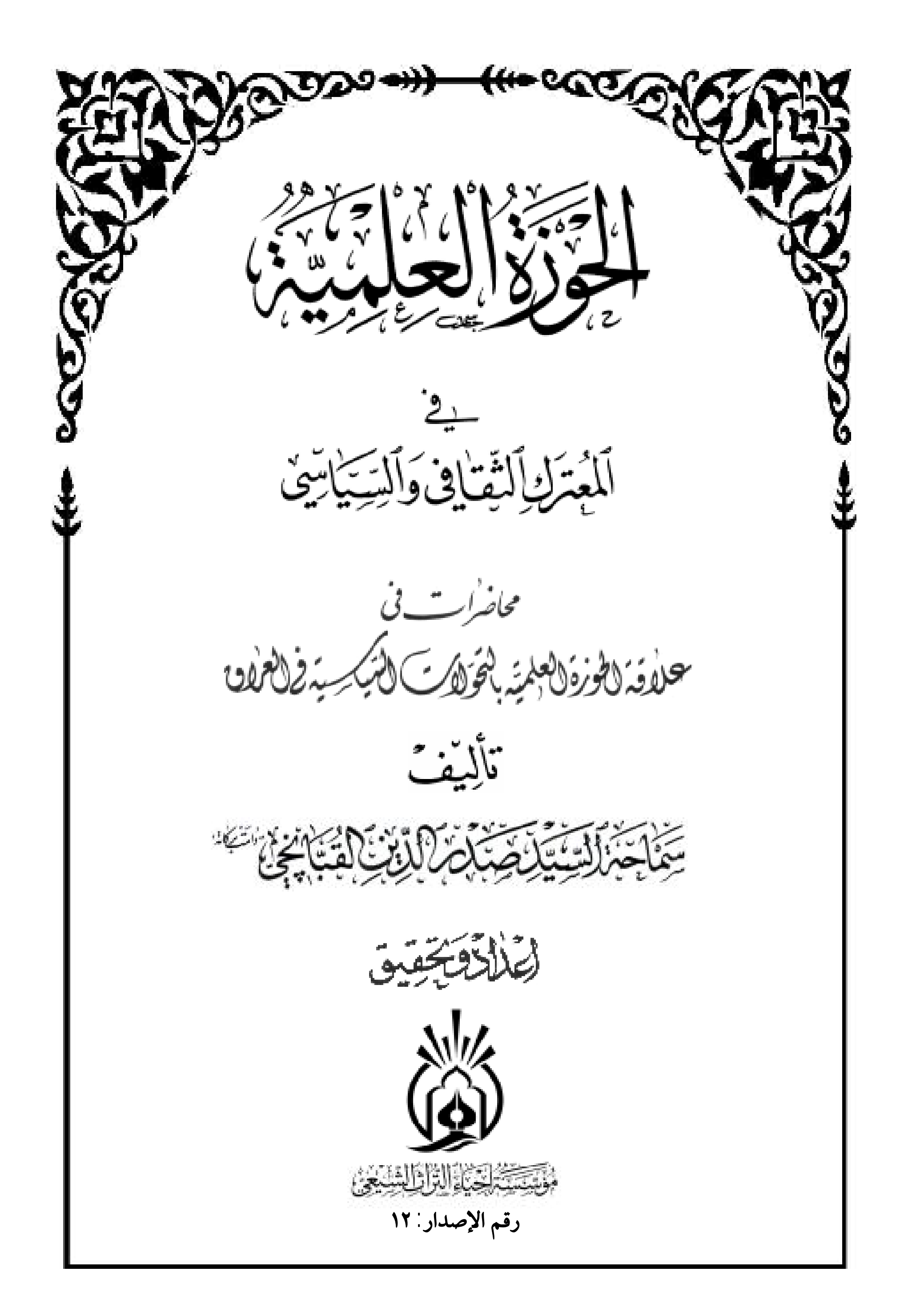

الحوزة العلمية
في
المعترك الثقافي والسياسي
محاضرات في
علاقة الحوزة العلمية بالتحولات السياسية في العراق
تأليف
سماحة السيد صدر الدين القبانجي
إعداد وتحقيق
مؤسسة إحياء التراث الشيعي
رقم الإصدار: ١٢



www.turathshiai.com
E-mail:info@turathshiai.com
النجف الأشرف

شارع الرسول ﷺ، محلة الحويش، الزقاق: ٥٤، الدار: ٢
هاتف: ٣٣٢٨١١ و٣٣٢٨١٣
ص.ب ٥٨٨

الحوزة العلمية في المعترك الثقافي والسياسي

السيد صدر الدين القبانچي

اعداد وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

رقم الإصدار: ١٢

الطبعة الأولى: جمادى الأولى ١٤٢٨هـ

النجف الأشرف

عدد النسخ: ٣٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤسسة:

الحوزة العلمية قائدة التحولات السياسية والاجتماعية.. عنوان لا يختلف عليه اثنان في خضم مسيرة شهدها العراق بل المنطقة كذلك، فكانت الحوزة العلمية سباقةً لتشخيص الحالة واتخاذ المناسب من القرارات، والمتعين من المواقف.. الحوزة ما لها وما عليها؟ ربما سؤال بات تقليدياً عن مؤسسة عمرها أكثر من ألف عام، ومثل هذا السؤال ينبثق ضمن حركة دقيقة من الأحداث التي تحيطُ بحياة المسلمين، وما لتاريخها من أثر في توجيه الأحداث بما ينسجم وتطلعات الأمّة جمعاء.

والحوزة العلمية بمواقفها المشهودة لا تمثل حركة معينة باتجاه معين بقدر ما هي مجموعة مواقف، وجملة قرارات، وطبيعة مُثل لرجالات انتسبت إليهم الحوزة، وانتسبوا إليها كذلك.

لم تنزو الحوزة العلمية في يوم ما عن مجتمعها، ولم تتخل عن مواقفها، فهي بطبيعتها معطاء بالرغم من محاولات التهميش التي عانته منذ عصور، إلاّ أنها وارثةُ أهلها في العطاء وفي قيادة الأمّة، كان أهلها _ وهم أهل البيت عليهم السلام _ قد وضعوا مصلحة الأمّة ضمن أولويات مهماتهم فهم رعاتها والقيمون على مصالحها. وقد أعطوا هذه الخاصية لحوزاتهم العلمية كي تنعم الأمّة بتوجيهاتها الصائبة ورعايتها الرشيدة.

والكتاب الذي بين أيدينا يوقفنا على بعض هذه المعالم وتلك

النقاط المضيئة في تاريخ الحوزة المشرق والإشارة إلى مقطع مهم من فعالياتها في قيادة الأحداث لعراقنا الجديد بعد حقبة من التنكيل ومحاولات التهميش، وبما ينسجم والواقع المعاش.

ومؤسسة إحياء التراث الشيعي تنطلق من حرصها على بيان أهمية هذه الرؤية وتنظيرها ضمن ما ورد في محاضرات العلامة السيد صدر الدين القبانچي ساعيةً من وراء ذلك بيان الحقائق وإثبات الحق لأهل البصائر، وليسفر الصبح لذي عينين.

مدير المؤسسة

السيد محمّد القبانچي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف:

بعد حمد الله تعالى والثناء عليه والصلاة على نبيه وآله الأطهار عليهم السلام.

فهذه مجموعة محاضرات كنا ألقيناها على السادة الفضلاء في الحوزة العلمية في النجف الأشرف في لقاءاتنا الشهرية معهم، بهدف النهوض بواقع الحوزة العلمية بعد السنوات العجاف التي شهدتها خلال فترة نظام البعث الأسود، وملاحقته ومطاردته لسُبُل النهوض الثقافي والسياسي في العراق. وكان نصيب الحوزة العلمية في النجف الأشرف من تلك الملاحقة والمطاردة والقتل والتشريد النصيب الأوفر.

* * *

وقد شاءت العناية الإلهية وبركات باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام ودعوات مولانا صاحب العصر والزمان عليه السلام أن تبقى هذه الحوزة أصيلة متجذرة رغم ما نالها من الاضطهاد. فكانت كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.[1]

* * *

واليوم وبعد التحول السياسي العظيم الذي شهده العراق بسقوط

---

(1) الصف: ٨.

نظام البعث ودخول العراق مرحلة سياسية جديدة فتحت للإسلام وللتشيع أبواباً عريضة لدخول الساحة العالمية والتعريف بالإسلام الأصيل الذي تمثله مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومذهبهم، ومن هنا يقع على عاتق الحوزة العلمية في النجف الأشرف أن تنهض بأعباء هذه المسؤولية الكبيرة، وتجدد العزم على اعادة بنائها وأدوات حركتها وتنظيم مؤسساتها بما ينسجم مع استحقاقات هذه المرحلة.

وفي هذا السياق وبهذا الهدف جاءت هذه المحاضرات المتواضعة والبسيطة والتي لم تكن أكثر من مستوى التذاكر وتداول الحديث في حجم المسؤولية، وتقييم الواقع، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

سائلين الله تعالى أن يقبلنا في خدّام دينه وأنصار شريعته وأتباع نبيه وآله الأطهار عليهم السلام.

صدر الدين القبانچي

٣/ جمادي الأولى/ ١٤٢٧هـ

(١٧/ شوال المعظم/ ١٤٢٥هـ)

المحاضرة الأولى:

الطريق لتحصيل العلوم الإلهية

موضوعات المحاضرة:

١ _ العلم هبة الله تعالى.
٢ _ التفسير الفلسفي لعلم الله.
٣ _ معضلة فلسفية.
٤ _ الطريق لكسب العلوم.
٥ _ الحديث عن التقدم في العملية السياسية.
٦ _ استحقاقات الهوية الإسلامية للشعب العراقي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العـالمين والـصلاة علـى خيـر بريتـه وأكـرم خلقـه أبـي القاسم محمّد وآله الطاهرين.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.(١)

بداية وكما هو المعلوم أن حديثنا ليس درساً علمياً ولا بحثاً فكرياً، إنما هو تذكر وتداول وإشارات لأمور تهمنا فيما هو الواقع وفيما ينبغي أن يكون، وعلى هذا الأساس فإن ما سنتحدث عنه يأخذ هذا الاطار.

وهنـا حـديثان حـديث علمـي وحـديث سياسـي _ إذا صـحت هـذه التسمية _ ومن المهم عندي طبعاً أن أستمع لكم كما تستمعون إليّ فيما لـديكم مـن ملاحظـات وإثـارات عـن مجمـوع الوضـع لأن علينـا أن نتعامـل في هذا الطريق ونتعاون في بناء كياننا.

العلم هبة الله تعالى:

نحن حين سلكنا مسلك طلاب العلوم الدينية بصدد تحصيل العلم، يجب أن نعرف أن العلم هو موهبة وعطية من الله تبارك وتعالى، كما أن الغنى والملك والعافية والأولاد والحياة والبدن موهبة من الله تعالى.

---

(1) الجن: ٢٦ - ٢٨.

الطريق إلى تحصيل العلم:

العلم الإنساني هو امتداد للعلم الإلهي ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾،[1] **وكما أن ما لدينا من مال فإن خزائنه عند الله تعالى. كذلك العلم هو أيضاً امتداد واشعاع من شمس العلوم الإلهية وليس مفصولاً عن العطاء الإلهي، ولهذا كان بودي في هذا الملتقى الشريف كما هو في الملتقيات السابقة أن نتناول في البداية بحثاً علمياً على سبيل الاستطراد والاستعراض السريع وهو مسألة (العلم الإلهي).**

العلم الإلهي:

والعلم الإلهي الذي نتفق جميعاً أنه علم بالظاهر والباطن، علمٌ بالماضي والحاضر والمستقبل، علمٌ بما يقولون وما يفعلون وما في صدورهم، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[2] **علم غيب وعلم شهادة** ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[3] **العلم الإلهي الذي نريد أن نكسب منه اشعاعاً يسيراً** ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[4] **نحن نريد أن نأخذ إشعاعاً من ذلك العلم ومن تلك الشمس التي أضاءت السماوات، وهذا الاشعاع وهو العطاء والهبة الإلهية لا حد له، يبدأ من أدنى المستويات** ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ...﴾ **الشامل لكل بشر، وإلى أعلى المستويات وهو مستوى** ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.

---

(1) الحجر: ٢١.

(2) الأنعام: ٥٩.

(3) الجن: ٢٥ - ٢٦.

(4) طه: ١١٤.

فيفيض عليه تبارك وتعالى من علمه بما لا يبقى من صغير ولا كبير ولا ما هو كائن إلى يوم القيامة إلاّ وعلمه الإنسان حتّى يصل إلى مستوى قول الإمام عليّ عليه السلام: «سلوني عن طرق السماء فأنا أعلم بها من طرق الأرض».[١]

إذن.. هناك تدفق علمي من تلك الخزانه الإلهية تصل إلى مستوى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى﴾.[٢]

لاحظوا الإنسان أحياناً يعلمه أستاذ بسيط القوى يعلمه الفقه والأصول والجغرافية والتاريخ هذا الأستاذ هو إنسان مثلي لا يعلم إلاّ حروف تعلمها، ومرة يكون بمستوى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى﴾[٣] نحن أيضاً أبناء طموح، خاصةً الذين نتعلم علوم القرآن، وعلوم أهل البيت عليهم السلام، لدينا طموح أن نقترب من كُنه، الحقيقة ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٤] فلا يكفينا علم الظاهر وعلم القشور، وهناك مشكلة فلسفية لعلها من أعقد المشاكل الفلسفية في علم الكلام في قضية علم الله تبارك وتعالى.

التفسير الفلسفي لعلم الله تعالى:

وهذه المشكلة هي في تفسير كيفيّة علم الله تعالى بما يكون وليس فقط بما هو كائن، بل بما يكون في المستقبل إلى ما لا نهاية، هذا العلم الإلهي الذي نريد أن نأخذ ومضة منه كما أخذ منه الأئمّة عليهم السلام

---

(1) جواهر المطالب ١: ٢٢٥.
(2) النجم: ٥.
(3) النجم: ٥ و٦.
(4) طه: ١١٤.

وكما أخذ منه الأنبياء عليهم السلام وكما أخذ الأوصياء عليهم السلام. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ﴾[1] علم بما سيكون وليس علماً بما هو كائن، إن العلم بتأويل الأحاديث هو علم بما سيكون، إن ما جاء في قصة يوسف عليه السلام من قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ﴾ هو علم بما سيكون حيث علم يوسف عليه السلام أنه ستأتي سنوات عجاف ومثلها سنوات خصب.

الخضر عليه السلام أيضاً كان لديه علم بما يكون كما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[2] ذلك موسى عليه السلام وفتاه الذي أعطاه الله علماً بما سيكون، إن العلم بقصة السفينة والجدار والغلام هو علم بما سيكون لاحظوا قوله: ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[3] ليس هناك أمر مشهود ومنظور، بل إنما يتحدّث عن علم غير مشهود وغير منظور أمامنا، هذا العلم خارج دائرة الدلائل العلمية والأدوات التعليمية، خارج هذه الدائرة بأدوات أخرى خارج ما هو منظور، لأن العلم بما سيكون يحتاج إلى أدوات أخرى، إلى حاسَّة أخرى.

هنا الشكل الأوّل من القياس والشكل الثاني والثالث والرابع، وكذلك الاستقراء لا ينتج في كل هذه المواد التي تعلَّمها يوسف عليه السلام: وعلمها موسى والخضر عليهما السلام وعلمها الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

ولهذا فإن القرآن يقول: ﴿مِنْ لَدُنَّا...﴾ أي بعلم إلهي وبأدوات ليست أرسطية وإنما أدوات تعليمية أخرى سوف نسأل عن تلك الأدوات، هذا حديث موجز.

---

(1) يوسف: ٢١.

(2) السابق.

(3) الكهف: ٧٩.

إذن هناك سؤال فلسفي عن علم الله تبارك وتعالى بكل الوجود وحيث كان هناك وجود حتّى لا يبقى شيء من الأشياء، «الحمد لله الأوّل قبل الانشاء والاحياء والآخر بعد فناء الأشياء»،[1] قبل أن تكون الأشياء، وبعد أن تفنى، الله تعالى عليم بها.

معضلة فلسفية:

هذا العلم الإلهي بما سيكون كيف نفسره؟

هذه المسألة هي بدرجة من الاعضال الفلسفي حتّى أصبح بمستوى أن يقول بعض العاجزين عن معرفة هذا الأمر ان الله تعالى يعلم بما هو كائن فقط ولا علم له بما سيكون!

هذا العجز يفتقر إلى أدنى مستوى من مستويات المعرفة لأن الأنبياء عليهم السلام يخبرون عما سيكون بعد آلاف السنين، والأولياء يخبرون كذلك، وبعض المرتاضين ونتيجة رياضات روحيّة نجدهم يخبرون بما سيحدث.

لكن قد يصل البعض _ نتيجة الجهل _ إلى القول بأن الله تعالى لا يعلم بما سيكون، مع أن القرآن الكريم مليء بالإخبار عما سيكون مثل: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[2] هذا فضلاً عن أن البشر نفسه في بعض الحالات قادر على اكتشاف ما يحدث ليس بأدوات علمية وإنما بأدوات خاصة.

هذا الاعضال الفلسفي سوف أتناول معالجته بشكل موجز حتّى نصل بعدئذٍ لما هو محل الشاهد في الأمر.

---

(1) الصحيفة السجادية: ٥٥٦.

(2) الروم: ٢ و٣.

الاجابات الأربع لحل المشكل:

هناك أربع اجابات لحل مشكلة تفسير العلم الإلهي بما سيكون إلى فناء الأشياء وإلى ما لا حد له طالما هناك وجود، فإن الله تعالى عالم بذلك الوجود قبل أن يوجد ونبدأ بالتفسير الأوّل من الاجابات الأربع:

التفسير الأوّل:

_ وهو الأبسط _ هو: إن الأمور تجري بأسبابها لما كان الله تعالى عالماً بالأسباب، إذن هو عالم بالمسبَّبات.

فكما ان صاحب المعمل إذا كان يعرف ان الطاقة الانتاجية لهذه الماكنة هي مثلاً مئة مفردة، وما يملك من المواد الأولية يكفي لمئة مفردة، وحينئذٍ أنت لو سألت صاحب المصنع: كم تنتج يومياً؟

يقول: مئة مفردة.

وتسأله أيضاً: كم تنتج غداً؟

يقول: مئة مفردة.

هذا ليس لديه مشكلة، فالعلم بالأسباب ينتج العلم بالمسببات حينما تجري وفق سياقات طبيعية، فالله تعالى عالم بالأسباب، إذن يعلم بالمسببات، يعلم بك وبذريتك إلى يوم يبعثون لماذا؟ لأنها كلها تجري وفق أسباب ومسببات، ووفق قانون.

والله تعالى يعلم بتلك الأسباب، يعلمُ بآدم عليه السلام وبالشمس، والقمر، والأرض، والماء، والأمطار، وكل هذه الأسباب.

إذن في ضوء ذلك يعلم المسَبَبات، بالذرارى، وبالحروب، وبالأرزاق، وبحياتك، وبزواجك، لأنها كلها وفق شريط مترابط، إذن العلم بالأسباب، يعني العلم بالمسَبَّبات.

هذا هو الجواب الأوّل البسيط الذي يمكن أن يُقدَّم لعموم الناس رغم ان عليه بعض الملاحظات، لأن علم الله تعالى هو أعظم من أن يكون على مستوى العلم بالأسباب، كعلم صاحب المعمل بانتاج معمله، أو علم صاحب المزرعة بانتاج مزرعته، الله تعالى علمه فوق ذلك وأعمق من ذلك، فهو علم حضوري بالأشياء، ولديه تعالى إحاطة تامة ومباشرة بما كان وما سيكون، وهذا ما يمكن لهذا التفسير الأوّل أن يكشفه بشكل دقيق.

التفسير الثاني:

هو ان الموجودات لها كينونة أخرى، نسميها الهوية أو الماهية، وهذه الهوية أو الماهية كانت موجودة قبل أن يوجد الشيء في الخارج، وهذا الوجود الذي نراه أمامنا للأشياء إنما هو لباس الوجود أفيض على تلك الأشياء، الهوية الكائنة على مستوى الأشباح عند الله تعالى من عالم الأظلة[1] في الأشباح، كما في الروايات،[2] أنا وأنت ومن سيكون وما سيكون إلى يوم القيامة من أحداث، من بشر وحيوانات وكائنات وحروب وأرزاق وحياة وممات، هذا كله على مستوى الهوية، قبل أن تلبس ثوب الوجود، هذا كان حاضراً عند الله تبارك وتعالى.

هذه الهويات والماهيات كلها كانت عند الله تبارك وتعالى في عالم الأظلة وحينئذٍ هنا في عالم الدنيا يُعطى لها الوجود، وإذا أردنا أن نتصور الفكرة

---

(1) الأظلة: هي عالم الأرواح الصرفة، أو عالم الذر، وهو عالم المثال، واطلاق الظل على الروح والمثال مجاز تشبيهاً لهما بالظل في عدم الكثافة وتقريباً لهما إلى الفهم. (المؤسسة).

(2) في جملة منها أن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام... أنظر: الكافي ١: ٤٣٨؛ من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٥٢؛ معاني الأخبار: ١٠٨/ ح ١؛ مستدرك الوسائل ١٧: ١٨٦/ ح ٢١١٠٦/١؛...

مثلاً نقول إن جميع الصور لمعركة من المعارك وجميع أحداث المعركة كلها مصورة في شريط (كاسيت) رغم ان أحداث المعركة تستغرق عدة أيام أو شهور، وهكذا مثلاً فإن جميع الكتاب مثل كتاب بحار الأنوار من أوّله إلى آخره موجود ومصور في قرص سيدي وما شاكل ذلك ولكن إنما يسبغ عليه لباس الظهور حينما تنشره على صفحة التلفزيون، لقد كانت جميع الصور وجميع فصول الكتاب موجودة في الأصل لكن أُفيض عليه ثوب الظهور فظهرت، وذلك بعدما عرضته على الشاشة.

الحقائق الكونية هكذا هي موجودة عند الله تعالى، لكن تظهر في عالم الطبيعة، وهذا الذي نسميه وجوداً هو ظهور في الحقيقة، وإذا كان الأمر كذلك إذن فجميع هذه الحقائق والكائنات معلومة عند الله تعالى قبل أن تكون في عالم الطبيعة، لأنها موجودة عند الله تعالى بمستوى الهوية وليس بمستوى التحقق العيني والوجود الخارجي.

التفسير الثالث:

قد يكون أعمق من التفسيرين السابقين، وهو تلاشي البعد الزمني عند الله تبارك وتعالى، كما أن الروح مثلاً يتلاشى عندها البعد المكاني إلى حد كبير أو إلى حد مطلق.

الروح في لحظة واحدة مثلاً هي في النجف الأشرف وهي موجودة في كربلاء في أقل من ثانية من لحظات نوم الإنسان، روحه تكون هنا وهناك، ويقوم بفاعليات كبيرة متنقلة موزعة، ليس ذلك في عالم النوم بل يمكن مثله على بعض المستويات في مجال اليقظة أيضاً.

المكان أصلاً يتلاشى عند الروح، ويتلاشى المكان عند الفكر. وأنت الآن جالس في هذا المكان يمكن أن تقفز بفكرك إلى ما وراء

مئات السنين، إلى ما وراء الآلاف من الكيلومترات، وأنت جالس في مكانك تفكر في المدينة الفلانية في قريتك في منزلك في مدينتك في ما وراء القارات، الفكر البعد المكاني يتلاشى عند الفكر، وحينه لا تشعر أنك تعبر مسافة، بخلاف ما لو أردت أن تمشي بقدميك بعداً مكانياً تحتاج إلى معاناة وتعب وما شاكل ذلك، أما على مستوى الفكر فلا فرق عند الفكر بين أن يخرج إلى خارج هذه الدار بمتر واحد أو خارج هذه القاعة وبين أن يخرج باللحظة الواحدة إلى ما وراء القارات، فيبدأ يفكر بما يجري من مؤتمرات واجتماعات وما شاكل ذلك. ان عالم الفكر يتلاشى عنده المكان، مثل هذا الأمر نقول عن مستوى البعد الزماني.

الإنسان غير قادر بالأدوات الظاهرة على أن يتجاوز البعد الزماني مادياً، لكن عند الله تعالى يمكن أن نتصور أن البعد الزماني اليوم وغداً وبعد مئة سنة هذه كلها مطويات ﴿وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[1] الأزمنة كلها مطويات بيمينه وهذا واحد من معاني الهيمنة، فإن من أسماء الله تعالى (المهيمن) والمحيط بكل شيء، وعندما يكون محيطاً بشيء، حينئذٍ لا يوجد قبل وبعد، بل هو محيط بكله.

تصور هذا الأمر بمثالٍ بسيط، الكتاب الذي بين يديك يتكون من (٢٠٠ _ ٣٠٠) ورقة مثلاً، هذا الكتاب فيه صفحة رقم واحد وصفحة (١٠) وصفحة (٥٠) وصفحة (٢٠٠)، فيه قبل وفيه بعد، لكن أنت عندما تضع الكتاب بيدك وتقلبه يميناً وشمالاً، أوّلاً وآخراً هنا يتلاشى القبل والبعد، وصفحة (٢٠٠) يمكن أن تصبح قبل واحد حينما تقلبه من هذه

---

(1) الزمر: ٦٧.

الجهة، وصفحة (١) قبل صفحة (٢٠٠) حينما تقلبه من الجهة الأخرى، وصفحة (٥٠) أو صفحة (١٠٠) تكون هي الأولى عندك حينما تفتح الكتاب من النصف لأنك أنت مهيمن محيط، عند المحيط المهيمن يتلاشى القبل والبعد، والأوّل والآخر يتلاشى، لكن لأنه ليس لدينا إحاطة بالزمان وبالتالي نحن أبناء ساعتنا، إذن من الصعب علينا أن نفسر المعرفة بما سيكون، لكن إذا تصورنا المهيمن المحيط بكل الأزمنة إذن الأوّل والآخر عنده لا شيء، لا يوجد أوّل ولا يوجد آخر عنده، كاحاطتك بالكتاب الذي بين يديك، هذا هو التفسير الثالث.

التفسير الرابع:

وهو التفسير العميق، هو عبارة عن نظرية وحدة الوجود، نظرية فناء الأشياء ﴿لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾[1] نظرية هو الأوّل، هو الآخر، هو الظاهر، هو الباطن، لأنه ليس ثمة أشياء أخرى غيره حتّى نقول كيف يعلم بها الله تعالى، لا شيء إلاّ الله تعالى فيما كان وما هو كائن. وحينئذٍ علمه تعالى بما نسميه أشياء هو علمه بنفسه، ونفسه حاضرة له إذن علمه بها حاضرٌ بالفعل ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ﴾.

نظرية وحدة الوجود تعني أن الأشياء في الحقيقة هي عبارة عن تجليات لحقيقة واحدة هي الله تعالى. والكثرة والتعدد بالنحو الذي نراه هو ناشئ عن قصور معرفتنا، على أساس هذه النظرية سوف تنتهي المشكلة، لا تبقى لدينا مشكلة في علمه تعالى بما هو كائن وما سيكون، لأن علمه ذاته، والذات حاضرة لديه فليس ثمة مشكلة، هذا هو التفسير الرابع.

---

(1) البقرة: ١٦٣.

الطريق لكسب العلوم الإلهية:

هذا كله ذكرناه على سبيل المقدمة، لماذا؟ لأنا نريد أن نكون علماء، وأن نكسب علماً إلهياً. والعلم الإلهي بالظاهر والباطن بما كان وبما سيكون.

الأنبياء عليهم السلام وصلوا إلى أعظم مستوى من الكشف للعلوم الإلهية وكسبوها، نحن أيضاً في هذا الطريق حينئذٍ، ما هو الطريق لتحصيل ومضة من العلوم الإلهية؟ ما هو الطريق لديكم؟

الجواب يوجد طريقان:

الطريق الأوّل: دراسة الظاهر.

الطريق الثاني: تطهير الباطن.

الطريق الأوّل: دراسة الظاهر:

هذه الدراسات التي نقوم بها في كل العلوم هي دراسة الظاهر، هذا هو العلم التحصيلي الكسبي الظاهري. وهذا النمط وهذا الأسلوب هو الذي بحث عنه موسى عليه السلام في سيره مع الخضر عليه السلام وربما يكون _ والله العالم _ انه أحد أسباب فشل التجربة ونحن لا نجرؤ على مقام الأنبياء عليهم السلام إلاّ بمقدار ما نستوحيه من القرآن الكريم من إشارات على سبيل الاحتمال وليس على سبيل اليقين، موسى عليه السلام وجد ﴿عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾، قال موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[1]؟ يعني اختار الطريق الأوّل وهو طريق دراسة الظاهر، قال: ﴿تُعَلِّمَنِ﴾ فأنت حصلت على مجموعة علوم أريد أن تدرّسني على طريقة (التدريس والتعليم) أستاذ مع تلميذه هذه هي طريقة الظاهر ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ وبهذا الطريق

(1) الكهف: ٦٦.

لم يصل موسى عليه السلام إلى نتيجة كافية وناجحة لأنه كان لدى الخضر عليه السلام علوم لا يمكن استيعابها بطريقة دراسة الظاهر، ولهذا قال له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾.[١]

الطريق الذي أنا أمشي فيه غير الطريق الذي أنت تمشي فيه، أنت تريد أن تمشي في طريق معلم وأستاذ، والطريق الذي أنا أكسب به العلوم هو طريق آخر غير قابل للتعليم والتدريس، بل يحتاج إلى ممارسة أخرى. ولهذا فقد اشترط عليه الصبر وعدم السؤال وعدم الكلام ثمّ قال له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ **وهكذا كان بالفعل فلم تنجح التجربة، هذا الطريق نسميه طريق دراسة الظاهر.**

الطريق الثاني: تطهير الباطن:

أو طريق الإحسان. وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الاحسان قال: «أن تعبد الله كأنك تراه»،[٢] لم يقل الاحسان هو أن تتصدق بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[٣] **هذا الاحسان هو تطهير الباطن وهذا الأمر لاحظوه في قصة يوسف عليه السلام حينما يقول القرآن الكريم** ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٤] **فقد ربط العلم والحكم بالإحسان، وهنا يجب أن نسأل: يوسف عليه السلام أي احسان قام به وهو صغير، ألقوه في الجب ثمّ ذهب إلى بيت الملك ثمّ بلغ أشده.**

---

(1) الكهف: ٦٧.

(2) مسند أحمد ٢: ٤٢٦.

(3) النحل: ١٢٨.

(4) يوسف: ٢٢.

لـم يـدرس دراسـتنا الدينيـة ودراسـاتنا الأخـرى، أصـلاً لـم يـدرس شيئاً، فكيف صار عالماً؟

القـرآن يفـسره فـي التفاتـة قرآنيـة تظهـر بالتأمـل، وقـد نغفـل عـن هـذه الإشـارات الرائعـة فـي القـرآن. لاحظـوه يقـول: ﴿وَلَمَّـا بَلَـغَ أَشُـدَّهُ...﴾ **أي لمـا بلـغ المـستوى المناسـب مـن العمـر آتينـاه حكمـاً وعلمـاً، لكـن أيـن الالتفاتـة القرآنيـة؟ هـي فـي قولـه:** ﴿إِنَّـا كَـذلِكَ نَجْـزِي الْمُحْـسِنِينَ﴾[1] **هـذا نتيجـة احـسانه** ﴿آتَيْنـاهُ حُكْمـاً وَعِلْمـاً﴾ **أي إحـسانٍ كـان عنـد يوسـف** عليه السلام**؟ هـل كـان لديـه مال؟ لا، هل كانت لديه صدقة؟ لا، هل كان عنده دراسة ؟ لا.**

الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ **إذن أي أحسان؟ إنه تطهير الباطن وتزكية النفس، والتغلب على الهوى كما صنع يوسف** عليه السلام.

فـالطريق الثـاني هـو طريـق موصـل ومقدمتـه موصـلة، وليـست غيـر موصـلة، أمـا الطريـق الأوّل فقـد تكـون المقدمـة موصـلة وقـد تكـون غيـر موصـلة ـ كمـا نقـرأ فـي اصـطلاحات علـم الأصـول ـ، أمـا هـذا الطريـق فمقدمته موصلة ﴿إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

هنـا أذكـركم بقـصة لأجـل أن يكـون البحـث العلمـي أيـضاً فيـه بحـث أو إشارات على مستوى الواقع أو على مستوى سلوك العلماء.

قصة ابن سينا وأبو سعيد:

(ابن سينا) من فلاسفة الإسلام في القرن الرابع والخامس الهجري وفي زمانه كان هناك حكيم وفيلسوف آخر اسمه (أبو سعيد) هذان الفيلسوفان كان أحدهما يسلك المسلك الأوّل في طريق تحصيل العلم وهو (ابن سينا)، يعني

---

(1) الصافات: ١٠٥.

دراسة الظاهر والمشي في طلب العلم من هنا وهناك عبر بطون الكتب وسبرها. وهذا ما يسمى بالطريق المشائي، وأما (أبو سعيد) كان يطلب العلم عن طريق الباطن وهو ما يسمى بطريق الاشراق فهذان طريقان:

الطريق الأوّل: المَشّائي.

الطريق الثاني: الاشراقي.

حيث لدينا المنهج المشائي في الفلسفة، والمنهج الاشراقي في الفلسفة، وهو مأخوذ من إشراق الروح وهذا هو تطهير الباطن، هذا هو الطريق الثاني في الفلسفة. وأما المشي في طريق التعليم والتعلم، فهذا هو الطريق الأوّل وهو طريق دراسة الظاهر.

(ابن سينا) فيلسوف من الدرجة الأولى لذا يسمى (الشيخ الرئيس)، و(أبو سعيد) بهذا المستوى أيضاً لكن لم يكن الضوء مسلطاً على (أبو سعيد) يومئذٍ.

الرواية تقول أنهما في سفر التقيا على سبيل الصدفة حيث يومئذٍ لا توجد اتصالات ولا مراسلات ولا هاتف ولا وسائل نقل سريعة وبالتالي ذاك حكيم في مكانه وهذا حكيم في مكانه، التقيا يوماً ما في الطريق وهذه فرصة لأن أحدهما قد سمع بالآخر (ابن سينا) سمع بحكيم اسمه (أبو سعيد) و(أبو سعيد) سمع بحكيم اسمه (ابن سينا) فكانت هذه فرصة حينما التقيا فاتفقا على أن ينفردا ويختليا بينهما للبحث والمناضرة العلمية. أغلقا على أنفسهما الباب لمدة ثلاثة أيام وليالي كان بينهما مجلس في ثلاث ليال وثلاثة أيام يبحثون فيما وصلوا إليه من حقائق وكشوفات، أنت ماذا اكتشفت من كنوز، وأنا ماذا اكتشفت من كنوز؟ وبعد الأيام الثلاثة خرجا واستقبلهما الناس. وهذه فرصة طيبة جميلة للقاء دام لثلاثة أيام بين فيلسوفين بمستوى عظيم، فلاسفة الدهر، لنرى ما وصلوا إليه،

سألهم الناس، أين وصلتم؟ كيف استكشف أحدكما صاحبه؟ وأيكم يدعي أنه أعلم من الآخر؟ يومئذٍ هما من فلاسفة الإسلام، وهكذا العلماء الصالحون هم أهل التواضع وأهل المعرفة حقيقية، وليسوا أهل أنانيات.

فسألوا (ابن سينا) قالوا: كيف وجدت صاحبك؟

قال: وجدت صاحبي أني ما وصلت إلى معلومة من المعلومات إلاّ كان قد وصلها، ولا اكتشفت حقيقة من الحقائق إلاّ كان قد اكتشفتها.

فهو إذن قد اكتشف ما اكتشفته بطريقتي المشّائية ومن خلال الاستدلال، لكن هو اكتشف تلك الحقائق ليس بطريقة الاستدلال والقياس من الشكل الأوّل والثاني، بل بطريقة أخرى هي طريقة الاشراق.

ثمّ سألوا (أبو سعيد)، قالوا: أنت كيف رأيت صاحبك؟

قال: رأيت صاحبي أينما أمشي في الطريق أجد رجلاً أعمى يمشي خلفي لكنه متكيء على عكازه، فكلما وضعت قدمي في موضع وضع عكازته في ذلك المكان وهو أعمى لا يرى لكنه يصل في النتيجة إلى ما وصلت إليه، لديه عكازه يمشي عليها، يقصد أبو سعيد أني أرى الطريق بواسطة الاشراق ولكن ابن سينا أعمى لا يرى الطريق لكن لديه استدلالات عقلية على مستوى استدلالات أرسطو المنطقية (وبالعكازة الاستدلالية) هو أيضاً يكتشف وليس بالإشراق الروحي، وما دخلت قرية اكتشفها إلاّ وهو معي يكتشف تلك القرية باتكائه على عصا يكتشف بها الطريق، هذان هما الطريق المشّائي والطريق الاشراقي، هذا طريق دراسة الظاهر وذلك طريق الخوض في الباطن.[1]

---

(1) أنظر: روضات الجنّات ٣: ١٨٤.

الفاصل بين الأرض والعرش:

ذكرت ذلك على مستوى القصة التأريخية لتوضيح الفكرة، هنا توجد كلمة للإمام عليّ عليه السلام كلمة عظيمة جداً. وهذه الكلمة أقف عندها وأنظر لها بإعجاب وأرى أن العمر كله يستحق أن يكون دقيقة واحدة للوقوف عند هذه الكلمة.

الإمام عليّ عليه السلام يُسئل سؤالاً: ما هو الفاصل بين الأرض والعرش؟ عرش الله تعالى الذي يحيط بكل الوجود ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾(١) **ما هو الفاصل بين الأرض والعرش؟**

تصور لو أن فيلسوفاً أو عالماً أو شخصاً آخر سُئل هذا السؤال بماذا كان يجيب، كم يفكر؟ وقد يقول لا أدري أو يجيب بإجابات خاطئة، لكن لاحظوا الإمام عليّ عليه السلام ماذا قال:

قال عليه السلام: «ما بين الأرض والعرش قول العبد مخلصاً لا إله إلاّ الله».(٢)

إذن بهذه الكلمات يطوي المسافة ما بين الأرض والعرش، فيكون جالساً عند العرش. هذا الكلام حين يقوله الإمام عليّ عليه السلام هل ذلك على سبيل التربية لنا أم هو حقيقة يكشفها الإمام؟ وهو مطّلع عليها؟

---

(1) طه: ٥.

(2) أنظر: تفسير الميزان ٨: ١٦٩ وفي آخر الحديث علق السيد الطباطبائي 1 بقوله:

أقول: هذا من لطائف كلامه عليه السلام أخذه من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ووجهه ان العبد إذا نفى عن غيره تعالى الالوهية باخلاص الالوهية والاستقلال له تعالى أوجب ذلك نسيان غيره والتوجه إلى مقام استناد كل شيء إليه تعالى، وهذا هو مقام العرش على ما مر بيانه.

الجواب: الإمام ليس بصدد تربيتنا أخلاقياً ووعظنا تربوياً، بل هو بصدد بيان حقيقة واقعيّة.

من الممكن أن يكون السائل من أهل الكتاب وهو يريد أن يختبر الإمام عليه السلام، الإمام يعرف الحقيقة كم ما بين الأرض وما بين العرش، هو قول العبد المخلص (لا إله إلاّ الله)، فيكون قد جلس على العرش ويكون قد أحاط بالوجود، ولكن عمق القضية هو في (مخلصاً) وهذا هو الاحسان، هذا هو تطهير الباطن حينئذٍ يصل إلى ما يصل إليه عليه السلام حين قال: «سلوني قبل أن تفقدوني سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها من طرق الأرض»،[1] ببساطة يقول هذا الكلام وليس بتكلف، الإمام لم يقل هذا الكلام بتكلف أو باستحضارات علمية ومراجعة كتب حوله، بل وهو على فراش الموت قبل أن يستشهد عليه السلام. قال الكلام مرة أخرى: «سلوني قبل أن تفقدوني» لماذا؟ لأن الأداة بيده، أداة معرفة ما هو كائن وما سيكون، هو «قول العبد مخلصاً: لا إله إلاّ الله»، وهكذا أداة كما تجعله قادراً على كل شيء ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[2] من خلال الاندكاك والفناء بالله تعالى، فإن العلم كذلك بمقدار ما يندك الإنسان بـ (لا إله إلاّ الله) تنتهي الفواصل الزمانية والمكانية بينه وبين العرش.

هذه من روائع الكلمات ومن الذخائر «ما بين الأرض والعرش، قول العبد لا إله إلاّ الله مخلصاً».

العلم كُلُّهُ في أربع كلمات:

الشيخ الصدوق يروي في هذا الشأن عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

---

(1) مدينة المعاجز: ١١٢؛ بحار الأنوار ٣٩: ١٠٨.

(2) الأنفال: ١٧.

«أن الله تبارك وتعالى قال لآدم عليه السلام: إني أجمع لك الكلام[١] كله في أربع كلمات».[٢]

وإذا استطاع آدم عليه السلام أن يفك لغز هذه الكلمات إذن أحاط بالعلم كله أي أحاط بخزائن المعلومات كلها، مثل من يقول لك هذه المكتبات الإسلاميّة كلها مجموعة في أربع أقراص (سي. دي) في زماننا هذا، إذا كنت تعرف كيف تفك رموز هذه الأقراص، إذن أنت عندك هذه المكتبة من أوّلها إلى آخرها على أن تعرف كيف تفك هذه الأقراص، وإذا كنت لا تعرف فك هذه الأقراص فهي إذن عبارة عن قطعة حديد (فلزّ) لا تغني ولا تسمن من جوع.

الله تبارك وتعالى كما في رواية الصدوق قال: إني سأجمع لك الكلام[٣] كله في أربع كلمات: «واحدة لي، واحدة لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الناس».

الأولى: «أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً» وهذه هي قول لا إله إلاّ الله مخلصاً، هذه هي الأداة الأولى للعلم، تعبدني لا تشرك بي شيئاً.

---

(1) في البحار ١١: ١١٥: إني أجمع لك العلم...؛ وفي أمالي الصدوق: ٤٠٦: إني أجمع لك الخير كله...

(2) روى الصدوق باسناده عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: «أوحى الله عز وجل إلى آدم عليه السلام اني ساجمع لك العلم في أربع كلمات، قال: يا رب ما هن؟ قال: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين الناس. فقال: يا رب بيّنهن لي حتّى أعلمهن فقال: أما التي لي فتعبدني ولا تشرك بي شيئا، وأما التي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فعليك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فترضى للناس ما ترضاه لنفسك» الخصال: ٢٤٣/ ح ٩٨.

(3) في البحار ١١: ١١٥، عن قصص الأنبياء للراوندي: ٧٣، عن الصدوق: أجمع لك العلم...

هــذه هــي أدوات العلــم عــن طريــق تطهيــر البــاطن، فــإذا اســتطاع الإنسان أن يكون مخلصاً فتحت له آفاق واسعة من العلم.

الثانية: «أجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه» هذه حقيقة كبرى، الله تعالى أعطاها لنا، أن عملك مسجل ومحفوظ وستجزى به عند الحاجة.

حقيقـة المعـاد حقيقـة النـشأة الأخـرى، هـذه صـفحة أخـرى مـن العلـم لا نراهـا نحـن بـالعين، ولـولا الأنبيـاء كنـا عميانـاً لا نـرى شـيئاً أصـلاً، هـذه صـفحة أخـرى فتحهـا لنـا الأنبيـاء أن عملنـا محفـوظ وسـنُجزى بـه عنـد الحاجـة، تـصوروا عمـل الإنـسان علـى طـول عمـره والبـشرية علـى طـول عمرهـا، عملهـا كلـه محفـوظ ويمـشي إلـى جانبهـا. هـذه حقيقـة المعـاد حقيقـة النشأة الأخرى حقيقة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.[1]

هذه الكلمة ليست هي جملة خبرية للأخبار عن يوم القيامة، بل هي مفتاح للعلم بما يكون يوم القيامة. فإذا استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة عمله فقد عرف حقيقة كبرى هي حقيقة ما يكون عليه الحال بعد الموت.

الثالثة: «التي هي بيني وبينك، عليك الدعاء وعليَّ الإجابة»، هذه بيني وبينك، منك الدعاء ومني الإجابة وكل ما تريد أعطيك علم ومال وعز ونصر هذا أيضاً أفق رائع أن الله معنا، هذا أفق يمكن أن نلخصه بكلمة أن الله تعالى مع عبده، الله تعالى مع الإنسان، فما تريد من غنىً أو مال، الله يعطيك كل شيء تريد، عليك الدعاء ومني الإجابة. إذن أيها العبد هذا مفتاح خزائنه، هذا أوّلها ولا نهاية لآخرها خذ المفتاح «عليك الدعاء ومني الاجابة».

الرابعــة: هــي «مــا بينــك وبــين النــاس، ترضــى للنــاس مــا ترضــاه

(1) المدثر: ٣٨.

لنفسك»،[1] رغم أن هذه القضية هي قضية أخلاقية، لكن الحديث القدسي يجعلها مفتاحاً لخزانة رابعة للعلم كله، فمن خلال تمتع النفس بهذه الأخلاقية العالية يفتح لها أفق عظيم في العلم لا ندركه بأدواتنا التعليمية المدرسية.

هذه هي الكلمات الأربع التي جمع الله تعالى العلم فيها لآدم، ونحن الآن حين نريد أن نتعلم، ونكسب العلوم الإلهية علينا أن نفكر بهذه المفاتيح العلمية أكثر مما نفكر بالكتاب الذي ندرسه والمادة التي نتعلمها، رغم أن ذلك هو ضروري أيضاً.

الحديث السياسي: الواقع العراقي:

كان ما تحدّثنا به هو القسم الأوّل من محاضرتنا وهو ما سميناه بالحديث العلمي، ونريد الآن أن ننتقل للقسم الثاني من محاضرتنا وهو الحديث السياسي، كيف نقرأ الواقع العراقي؟

هذا ما نريد الحديث عنه، فهناك رؤية سلبية للواقع العراقي، ولكننا نعتقد أنه إلى جانب كل تلك السلبيات فإن هناك تقدماً في مجمل المسيرة، الأمر الذي يجعلنا ننظر إليها نظرة ايجابية.

الحقيقة اننا نلاحظ تقدماً في مسيرة الواقع العراقي وعلى أكثر من مستوى.

أوّلاً: التقدم نحو الاستقلال:

ما زال العراق تحت الاحتلال، هذه الحقيقة لا نقبل المكابرة فيها، لكن الحقيقة الأخرى أن هناك تقدماً نحو الاستقلال السياسي.

---

(1) أنظر نص الرواية في: الخصال: ٢٤٣/ ح ٩٨.

لا يقول قائل: بعد لم يتحقق الاستقلال السياسي، نحن نقبل هذا الكلام لكن نقول هناك تقدم نحو الاستقلال السياسي، ومن ينكر هذه الحقيقة يكابر، من يقول إن العراق الآن لم يتقدم خطوة نحو الاستقلال السياسي هذا يكابر، هذه الوزارات وهذه الدولة وهذا الحضور الشعبي وهذه القرارات التي تأخذ موقعها وتفرض نفسها على الرأي العام العالمي. اللغة الآن أصبحت لغة أخرى، لغة انسحاب، لغة أن الدولة متى طلبت الانسحاب يتحقق الانسحاب، مع وجود قلق ونقاط ضعف وتحايل وعرقلة، هذا كله موجود لكن توجد إلى جانب ذلك نقاط تقدم نحو الاستقلال.

ثانياً: التقدم نحو الاستقرار الأمني:

طبعاً الآن لا يوجد استقرار أمني مطلق في البلاد لكن هل يوجد هناك تقدم نحو الاستقرار الأمني في البلاد؟

الجواب: نعم كانت هذه البلاد مُعدَّة، أو يراد لها أن تلتهب حريقاً من الشمال إلى الجنوب الآن ليس هكذا، نعم هناك قلق أمني، اضطراب أمني هنا و هناك لكن الواقع أن هناك تقدم نحو الاستقرار الأمني وقد تمت تصفية بؤر التفجر الإرهابي في أماكن كثيرة.

إن هذه البلاد التي كان يتخوف عليها ويريد لها الأعداء أن تحترق وتصبح هشيماً تذروه الرياح، الآن ليس كذلك، هناك تقدم نحو الاستقرار هذه النجف وهذه مراكز التشيع وتلك أيضاً كردستان وتلك الرمادي والموصل والفلوجة، وما شاكل ذلك بلا شك هناك تقدم كبير نحو الاستقرار الأمني، وهناك قطع وملاحقة حقيقية لجذور الإرهاب ونعتقد أن هذه الملاحقة ملاحقة عادلة في كثير من الأحيان وقد تكون

مخطئـة ظالمـة هنـا وهنـاك أيـضاً. ولـسنا بـصدد التقيـيم التفـصيلي لطبيعـة الملاحقة الأمنيّة التي تجري في البلاد.

ثالثاً: التقدم نحو الاعمار:

بـلا شـك ان العـراق الآن أفـضل بكثيـر مـن أيـام الطاغيـة علـى كـل المـستويات الآن العـراق علـى مـستوى الاعمـار أفـضل بكثيـر ممـا كـان عليـه قبـل سـنة وأفـضل بكثيـر ممـا كـان يـراد لـه، كـان يـراد لعجلـة الاعمـار أن تتوقـف بحيـث لا يوجـد اعمـار أصـلاً، كـان هنـاك إمكانيـة لأن يكـون العـراق بـلا مـاء ولا كهربـاء ولا مستـشفيات ولا معامـل ولا مـدارس ولا مصانع بينما الآن لـيس كـذلك، أنـا لا أريـد أن أسجل هـذا الكلام لنفع جهة مـا، بـل أنـا بـصدد تقيـيم رؤيتنـا للواقـع، الآن الانتعـاش الاقتـصادي للعـراقيين يعتبـر شـيئاً خـارج حـدود المقـاييس الماديـة، إن دولـة عاشـت، ان شـعباً عـاش تحطيمـاً خـلال سـنوات طويلـة، حـصاراً ثـمّ أزمـات داخليـة ولكـن فجـأة يحـدث انتعـاش اقتـصادي، لا أتحـدث عنـك بالـذات أنـت الطالـب البـسيط الفقيـر وطلبـة العلـوم الدينيـة وهـم أفقـر النـاس _ وهـذا افتخـار لنـا _ لكـن أتحـدث عـن عمـوم النـاس هنـاك انتعـاش فـي الاقتـصاد العراقـي، ولا تـزال هنـاك _ طبعـاً _ مأسـاة بطالـة وجـوع وفقـر ولكـن كمـسار عـام هنـاك تقـدم كبيـر، انظـروا إلـى الرواتـب، إلـى التعيينـات، إلـى حـصة الفـرد العراقـي مـن الـدخل المعاشـي كيـف تزايـدت، وربمـا يغفـل الـبعض ويقـول أنـا لـم أحـصل على شـيء، لكـن بـشكل عـام هـذا موجـود مـع أن العـراق الآن يعـيش مجموعة أزمات ومشكلات.

الفـضل لله تبـارك وتعـالى ولا نريـد أن نـضع هـذا الفـضل فـي كـيس

أحـد أو جماعـة، الفـضل لله تعـالى، ونحـن لا نريـد أن نـبخس النـاس أشـياءهم، مـن عمـل فـي هـذا الـشأن، فجـزاه الله تعـالى خيـر الجـزاء، هـذا بحث أذكره على مستوى الإشارة أمّا الاستدلال فله محل واسع أيضاً.

رابعاً: التقدم نحو التحرر الكامل:

التقـدم نحـو التحـرر الكامـل مـن نظـام صـدام، هنـاك أيـضاً تقـدم، نظـام صـدام سـقط لكـن حـزب البعـث لـم يـسقط، البعثيـون لـم يـسقطوا، أزلام النظـام لـم يـسقطوا، وقـد يقـول قائـل: سـقط نظـام صـدام ولكـن جماعـة صـدام لا زالـوا بـاقين، نحـن يجـب أن نـاقش القـضية، يوجـد تقـدم أو لا يوجـد؟ يوجـد تقـدم فـي اجتثـاث البعـث أو لا يوجـد تقـدم؟ كـان مـن الممكـن أن يتـسلط هـؤلاء علـى رقـاب الـشعب مـرة أخـرى، ألـم يكـن هـذا ممكنـاً؟ كـان مـن الممكـن أن الدولـة التـي أسـقطت صـداماً تمـد يـدها لتـصالح هـؤلاء وتـسلطهم علـى الـشعب العراقـي. هـذا أيـضاً كـان ممكنـاً وفـي الفـروض السياسية كل ذلك كان ممكناً، لكن الآن ما الذي يجري؟

الـذي يجـري أن حـزب البعـث كأطروحـة وكيـان انتهـى وأن البعثيـين انتهـوا رغـم أنهـم ينـازعون هنـا وهنـاك، ويحـاولون أن ينفـذوا هنـا وهنـاك، نعـم هـذا نعلمـه لكـن هنـاك تقـدم كبيـر فـي تطهيـر الـبلاد مـنهم، مـع كـل مـا لـديهم مـن إمكانـات، مـن خبـرات، مـن خباثـة، مـن دعـم دول جـوار، لكـن الآن هـم يُـستأصلون، رغـم أن الأبـواب قـد فتحـت لهـم مـن قبـل الحكومـة المؤقتـة، لكـن برعايـة الله تبـارك وتعـالى مـرة أخـرى عـادت الدولـة لاجتثـاث البعـث، فتحـوا لهـم الأبـواب، وكـان ممكنـاً أن ينفـذوا مـن هـذه الأبـواب، لكـن الحمـد لله الـذي جعـل أعـداءنا حمقـى، الحمـد لله ونحـن قلنـا منـذ اليـوم

الأوّل أيـضاً إن البعثيـين جبنـاء حمقـى أراذل، الآن مـرة أخـرى الدولـة اتخـذت قـراراً، وسـواء اتخـذت الدولـة قـراراً أم لـم تتخـذ فإنـه لا مجـال لعـودة البعـث، الدولـة لا بـدّ أن تتخـذ هـذا القـرار، تلـك مـشيئة الله، هـذه الدولـة اتخـذت هـذا القـرار بعـدما رأت أن وراء أحـداث الفلوجـة ومعاركهـا المـسلّحة عناصـر قياديـة فـي حـزب البعـث حـاولوا أن يقربـوهم لكـن اكتشفوا مـرة أخـرى أن المكـر مـن هنـا، إن رأس الأفعى هنـا، كمـا كنـا نقـول هذا الكلام قبل سنة، رأس الأفعى هم هؤلاء.

إن كان إرهاب في العراق فهم هؤلاء، واكتشفوا أخيراً ان المسؤول عن حماية رئاسة الوزراء هو من عناصر البعث الإرهابية واعتقلوه أخيراً، يعني كان من الممكن أن يفجر مجلس الوزراء بما فيهم رئيس الوزراء، وجدوا أن هذا عقرب موجود في حذائهم، وكاد يلسعهم.

الحمـد لله، مـرة أخـرى اتخـذوا قـراراً بإجتثـاث البعـث. أنـا أقـول سـواء اتخـذوا القـرار أم لـم يتخـذوا القـرار لـيس ذلـك مهمـاً، البعـث قـد انتهـى واجتثـاث البعـث قـرار غيـر قابـل للتغييـر، ولا يمكـن للبعثيـين أن يعـودوا بجهلهـم بحمـاقتهم، بـدناءتهم بـسواد قلـوبهم لا مجـال لهـم فـي هـذه الأرض التي شاء الله أن تطهر من هؤلاء الأدناس.

أنتم تعرفون كم يوجد تخوف وحديث لدى الناس من عودتهم، لكن الواقع يوجد هنا تقدم في مجال اجتثاثهم، الآن إذا وجد إنسان بعثي أو عضو فرقة حينما يتحدّث هو رذيل، حينما يمشي هو مهزوم، وأنت العزيز، العراق وصل إلى هكذا حال، ولا بدّ أن نمشي أكثر في هذا الطريق، إذن هناك تقدم جيد نحو التحرر الكامل من نظام صدام وأتباع صدام.

خامساً: التقدم في وحدة الصف:

هناك تقدم كبير في مجال وحدة الصف الشيعي، الحق والانصاف أن هناك تقدماً كبيراً في وحدة الصف الشيعي، في أي زمان لدينا مثل هذا التوحد أو التقارب في الصف الشيعي؟

نحن الآن في الواقع وكذلك بحسب تصور غيرنا نمثل كتلة واحدة قوية متحدة يخاف من وحدتها الآخرون، ربما ذلك الخوف لا مبرر له، ولكن هم يشعرون بأن عملاق التشيع وسفينة التشيع اتحدت وتوكلت على الله، وبدأت تمشي في البحر ولا يوجد عندنا لا قتال عشائري ولا قتال داخلي ولا قتال بين مدينة وأخرى، بل هو تقارب أو هو توحد، المرجعية على رأس هذا التحرك، وأصبحت تقود هذا التحرك وأصبحت تعطي من روحها لهذا التحرك، أسست لجنة واستقرت هذه اللجنة في بغداد لتوحيد الصف الشيعي وهكذا نحن نجد رعاية حقيقية للملمة أطراف التشيع الذي أراد الأعداء أن يقطعوا أوصاله، هناك تقدم كبير،كانت هناك فروض أخرى ضعوها أمامكم حتّى يعرف الإنسان النعمة التي هو فيها، كانت هناك امكانية تشتت الصف الشيعي، أن يتحول إلى جسد ممزّق، أن لا يعرف بعضهم بعضاً، لا يساعد بعضهم بعضاً، كان هذا ممكناً، لكن الآن أين نحن؟ لو تنظرون إلى غيرنا من المذاهب الأخرى، أنظروا إلى تفرق صفوفهم رغم إننا نسعى إلى جمعهم ولكن مع ذلك هم مختلفون، وباصطلاحنا العراقي (أحدهم يرفع والآخر يكبس)، هناك إذن تقدم لا أقول وصلنا إلى القمة لكن تقدم كبير في وحدة وتقارب الصف الشيعي.

سادساً: التقدم في مشروع تأسيس العراق الجديد:

هناك تقدم في مشروع التأسيس للعراق الجديد، كيف نؤسس للعراق الجديد؟ كانت هناك فروض وبدائل كثيرة، لكن الفروض الذي تحققت الآن على الأرض هو التقدم نحو المشروع السياسي الصحيح وهو ان العراق يقوم على أساس الإرادة العراقية عبر التصويت والانتخاب وآراء الناس. وهذا هو التأسيس لعراق يستمر لمئات السنين على قاعدة صحيحة، هذا العراق ينبغي أن يُبنى على أساس صحيح والأساس الصحيح، هو هذا، هناك تقدم في مشروع وضع الأُسس الصحيحة للعراق الجديد وهو الانتخابات بحمد الله تعالى.

كانت المرجعية قد طرحت هذا المشروع وهي رائدة هذا المشروع، وأخذ هذا المشروع موقعه على الأرض وزحف على الأرض، ورأيتم كيف أصبح يتقدم في الداخل وعالمياً أيضاً وفرض نفسه كحقيقة، رغم أن الغير لا يعجبهم ذلك، لكن شاء الله تعالى أن يجعل هذا المشروع موضع رضىً، لأي سبب؟ تلك إرادة الله تعالى، والأمم المتحدة تقول كذلك، والولايات المتحدة تقول كذلك، ودول الجوار تقول كذلك، والسني يقول، والشيعي يقول، والمسيحي أيضاً يقول، هذا تقدم.

في الحقيقة كان يمكن أن لا يكون هذا أصلاً، أنتم ارجعوا إلى قبل سنة في أذهانكم، هل كان أحدكم يفكر أن يصبح وضع كهذا؟ انتخابات وصناديق اقتراع!؟

مقترح المشروع الدائم:

إننا نبحث عن مشروع دائم للعراق، والانتخابات مشروع أساسي لكنه مشروع مرحلي.

ما هو مشروعنا الدائم للعراق على المدى البعيد وفي كل الأصعدة؟

على الصعيد الثقافي والاجتماعي والاعماري والسياسي؟

مشروعنا الدائم هو الحضور الجماهيري الإسلامي، الحضور في الساحة، إذا غاب الجمهور وغابت الإدارة الإسلاميّة فعلى الإسلام السلام، العراق سوف تأكله الذئاب اليوم أو غداً، لكن إذا كان هناك حضور جماهيري يسير بإرادة إسلاميّة هذا هو مشروعنا، وهنا يأتي دور الحوزة العلمية ودور العلماء في ترشيد حركة الجمهور وفي احضار الجمهور في الساحة.

الهويّة الإسلاميّة للشعب العراقي:

نحن نعتقد أن العراق هويته إسلاميّة، وإرادته إسلاميّة وجذوره إسلاميّة، إذن حضور الجمهور يعني انتصاراً للإرادة العراقية الإسلاميّة على كل المجالات في مقابل الإرادة المستوردة فكرياً وسياسياً.

معركتنا الآن ليست معركة سنة وشيعة، ولا مسلم ومسيحي، ولا عربي وكردي، روح المعركة الآن معركة بين إرادة عراقية أصيلة هويتها الإسلام، وبين إرادة مستوردة في المجال الفكري الثقافي السياسي.

هذا واقع المعركة، فبمقدار ما يكون لنا حضور نحن طلاب العلوم الدينية من فضلاء وأساتذة ولنا قدوة بالمرجعية الدينية التي قادت المعركة، بمقدار ما يكون لنا حضور سنحقق إنتصاراً لصالح الإرادة العراقية ذات الهوية الإسلاميّة، وبمقدار ما نغيب عن الساحة فإن الباطل يكسب الجولة، لأنه كما تعلمون لا يكفي أن نكون نحن على حق، وهذه نقطة جداً مهمة على أنها بسيطة، فهناك أمران مطلوبان:

١ _ أن نكون على حق.

٢ _ أن نكون مع الحق.

أكثر الناس يفكرون بأنهم على حق، لكن لا يكفي ذلك لانتصارهم، والمسلمون دائماً على حق، والشيعة دائماً على حق، ولم ينتصروا دائماً لماذا؟

يجب أن يكونوا مع الحق، أما مجرد أننا على حق ونحن نشهد بالله وأنتم تشهدون بالله أننا (الإسلام والشيعة) على حق ولكن هل هذا يكفي لأن تنتصر؟ لا بدّ أن نكون مع الحق.

استحقاقات الهوية الإسلاميّة:

الإسلام ماذا يريد؟ أهل البيت ماذا يريدون؟ التشيع ماذا يريد؟ الشيعة في العراق ماذا يريدون؟ المسلمون في العراق ماذا يريدون؟ إذا كنا مع استحقاقات هذا الحق حينئذٍ سننتصر.

أيها الطلبة، أيها الفضلاء لا يكفي أن تكونوا على حق، أنا أدري أنكم على حق ونحن على حق، لكن هذا في القانون الإلهي ومن اليوم الأوّل لخلق الدنيا لم يكن كافياً، لا بدّ أن تكونوا مع الحق فاسلكوا الوادي الذي سلكه عليّ، ومجرد أننا نؤمن بعليّ عليه السلام هذا لا يكفي ﴿ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾،[1] ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾،[2] (على) لا تكفي، هنا نحتاج إلى (مع).

ارجعوا إلى أنفسكم القضية الأولى إنكم على حق هذا صحيح، لكن كونوا مع الحق، يعني مع صيحة الإسلام وصيحة التشيع واستغاثة الناس واستغاثة

(1) البقرة: ٤٣.

(2) التوبة: ١١٩.

الفكر الإسلامي الذي يُحارب ويُقاتل ويُلاحق هنا وهناك، مع استغاثة الأمّة في معركتها والذئاب من حولها، كثرة العدو وقلة العدد، كونوا مع استحقاقات هذا الحق، قريتك، مدينتك، الصحف والإذاعات، كن مع استحقاقات قضيتك، لا تكن ممن يتفرج على ذلك، ماذا قلت؟ ماذا فعلت في الانتصار لهذا الحق الذي يريد الأعداء ذبحه؟ طبعاً ﴿يَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ...﴾[1] لكن الحديث عن نحن وتكليفنا وقد يشهد البعض وأنتم تشهدون حالة إلقاء التبعة على الآخرين، والذم للآخرين، البعض يقول: الزمان غير جيد، الناس غير جيدين، الدنيا غير جيده، لكن هذا وهم، هذه مخادعة لأنفسنا والله تعالى لا يرضى بهذا النبع، من قال ان الناس غير جيدين كيف؟ إذا أصلحنا أنفسنا وعملنا فالناس تأتي معنا.

رسول الله ﷺ كان وحده حتّى كسرت رباعيته لم يقل الناس غير جيدين ولا انسحب من أرض المعركة، ولا أئمّتنا سمعنا منهم هذا الكلام، نعم الناس عبيد الدنيا، هذا صحيح، لكن الإمام الحسين عليه السلام تقدَّم وكان مع الناس لكي يهدي الناس، وهدى الله تعالى به أمّة كاملة إلى يوم القيامة، لا توجد معاذير لسكوتنا، بل نقتدي معاً والله مَنَّ علينا بقدوة عظيمة وهو (آية الله العظمى السيد السيستاني) أقام الحجة على كل واحد منّا، فما تريد أن تكون؟ تريد أن تكون أستاذاً أو زاهداً أو طالب علم أو مؤلف؟ لا مانع، لكن يجب أن يكون لك حضور سياسي، وأمامك هذا المرجع الديني هو أستاذ عالم مؤلف زاهد عابد، لكن ذلك لا يمنعه من أن يرفع الراية لكي يكون مع الحق، ويتقدم بأمّته وبشعبه فأي عذر لي أنا أن أنزوي مثلاً.

---

(1) الأنفال: ٣٠.

نحن ماذا نريد من طلاب العلوم الدينية؟

نحن نريد علماً، ونريد عملاً، نريدهما معاً، رجل العلم يجب أن يكون رجل علم ومعرفة حقيقية، وليس علم ظاهري بالقشور، بل معرفة بالله تعالى وشريعته وإرادته. ويجب أن يكون رجل عمل وسياسة «وساسة العباد وأركان البلاد»[1] إدارة وسياسة، قادر على أن يخوض المعركة وينتصر في تلك المعركة بإذن الله تعالى، هذا هو المطلوب أيها الأخوة يجب أن تعدوا أنفسكم بهذه العدة، عدة العلم والعمل، واسألوا أنفسكم كم تقدمتم في مجال العلم والمعرفة؟ وكم تقدمتم في مجال الإدارة والسياسة؟ وفي مجال العمل السياسي؟ ولنا قدوة صالحة بمن مضى من الأنبياء والأولياء والعلماء الصالحين حشرنا الله تعالى معهم.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) مفاتيح الجنان: الزيارة الجامعة الكبيرة.

(١٤/ ذو القعدة/ ١٤٢٥ هـ)

المحاضرة الثانية:

التوحيد الأفعالي

في سلوكنا التبليغي

موضوعات المحاضرة:

١ _ الكلام في التوحيد الأفعالي.
٢ _ القدر الإلهي والعمل الإنساني.
٣ _ شرائط العمل الإلهي.
٤ _ أعمالنا التبليغية والسياسيّة.
٥ _ واقعنا المعاصر.
٦ _ ضرورات في الحوزة العلميّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

إن هذا الملتقى للتذاكر اكثر مما هو محاضرة وتقديم توجيهات. هذا الملتقى لأولئك الذين يعدون انفسهم لبناء مستقبل الإسلام لتمهيد الأرض واعدادها لظهور، نور الله وحجته عليه السلام.

وهذا الملتقى هو لقاء مع جمع من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام.

فملتقانا الشهري الذي يعقد لأجل التداول واستذكار الواقع الذي نحن عليه وما هو المطلوب منا ونحن قد وضعنا أنفسنا هذا الموضع، وأنا واحد منكم، وربما في هذا الاجتماع من هم من أولياء الله الصالحين المقربين ولا يعلم النوايا إلاّ الله تبارك وتعالى.

في لقاءات سابقة تحدّثنا في التمهيد والمقدمة عن التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي الأسمائي لله تبارك وتعالى. حديثنا هذا اليوم على سبيل المقدمة عن التوحيد الأفعالي ثمّ نصل إلى ما نحن فيه من الواقع.

الحديث الأوّل: الكلام في التوحيد الافعالي:

التوحيد الأفعالي هنا يقول عنه أهل المعرفة العلماء، أنه يعني أن لا فعل في الخارج إلاّ فعل الله تعالى كما أنه لا وجود في الخارج ولا شيء في الخارج إلاّ هو انعكاس وتجلي وظلال لله تبارك وتعالى، وذلك هو التوحيد الذاتي. والتوحيد الافعالي يعني لا فعل في الخارج إلاّ فعل الله، لا قيام وقعود ولا حركة

ولا سجود، ولا مرض ولا عافية ولا فشل ولا انتصار، ولا ربح ولا خسارة ولا بيع ولا شراء، ولا درس ولا تدريس إلاّ هو فعل الله تبارك وتعالى، إذن لا فعل إلاّ فعله. هذا معنى التوحيد الأفعالي.

أما إذا قلنا يوجد هناك فاعلان مثلاً، الله فاعل والإنسان المخلوق فاعل، الله فاعل وزيد وعمرو فاعل. فهذا غش في التوحيد وهذا عدم إخلاص في التوحيد.

الدليل القرآني:

إذن صار هناك خالقان وصار هناك فاعلان بينما القرآن يقول: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾،[1] شيء يطلق على الأعيان ويطلق على الأفعال، الحجر شيء، الشمس شيء، الشجر شيء، الماء شيء، والله خالق كل شيء، يعني هذه الأعيان خالقها الله تبارك وتعالى.

والأفعال أيضاً شيء، الحرب شيء، التجارة شيء، البناء والاعمار شيء، التهديم شيء، وهي ليست أعيان تلمس باليد، بل هي أفعال، وحينئذٍ تكون مصداقاً للعموم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾ فهذه الحرب، وهذا السلم، وهذا القيام، وهذا القعود، وهذا المرض، وهذا الشفاء، هذه كلها أفعال وأشياء الله تبارك وتعالى خالقها.

ولهذا نجد إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الموحدين وهو صاحب الحنيفية الكبرى نطق بشكل صريح ومقصود وبفكرة التوحيد الأفعالي حين قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[2] التفاتة رائعة من إبراهيم عليه السلام، هو يطعمني هذا الطعام وليس هو يرزقني هذا

---

(1) الزمر: ٦٢.

(2) الشعراء: ٧٨ و٧٩.

الطعام إنما هو يطعمني الطعام، ليس هو تعالى يرزقني الشراب إنما هو يسقيني الشراب، هناك فرق بين يرزقني الطعام وبين يطعمني الطعام.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[1] هذه إشارة إلى التوحيد الأفعالي، والنصوص القرآنية ظاهرة في هذا الأمر وكثيرة.

الدليل الفلسفي:

علماؤنا يذكرون دليلاً فلسفياً على التوحيد الأفعالي، كيف لا فعل في الخارج إلاّ هو فعل الله تبارك وتعالى.

يقول فلاسفتنا: (ليس في الخارج من وجود إلاّ هو ﴿لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فلا وجود إلاّ الله تبارك وتعالى، وليس في الخارج شيء إلاّ هو تعالى)، وحينئذٍ أينما وضعت يدك على شيء من الأشياء فذلك هو تعالى، ولكن بمعنى من المعاني وليس شيء آخر غيره سواء كان ذلك الشيء عيناً أو كان ذلك الشيء فعلاً.

لماذا؟

لأننا هكذا درسنا، وهكذا نعتقد، أن الله تبارك وتعالى هو الوجود الواجب أو الوجوبي، وهناك وجود ناقص ممكن فوجوداتنا هي الوجودات الممكنة الناقصة، فالفهم السطحي الساذج البسيط لهذا الأمر، هكذا يقول: إن هناك وجودين: وجود واجب مطلق بسيط، ووجود ناقص جزئي مركب. وهذا الوجود الثاني محتاج إلى وجود الأوّل، ومخلوق للوجود الأوّل.

هذا الفهم متعارف عندنا ولكن هو الفهم البسيط، أما الفهم العميق، فهو: (إن الوجود شيء واحد، وليس هناك وجودان، والوجود شيء بسيط وليس مركباً وبسيط الحقيقة كل الأشياء).

---

(1) الشعراء: ٨٠ و٨١.

الوجود الواحد البسيط فيه مراتب شدة وضعف. وليس في الخارج إلاّ وجود، والوجود واحد له مراتب:

١ _ مرتبة وجود مطلق كامل.

٢ _ مرتبة وجودات ناقصة.

وهذه التي نسميها وجودات ناقصة هي في الحقيقة ترشحات وأضلة لذلك الوجود الواجب الدائم وليست شيء آخر، وبمجرد أن تقول إن هذا شيء وهذا شيء فقد قلت بالاثنينية.

فإذا قلت هذا شيء والله شيء آخر غيره إذن هناك اثنان وهذه اثنينية وهذا خلاف التوحيد.

وفق هذا الفهم وهذه النظرية أن لا وجود إلاّ هو، وأن الوجود الناقص هو امتداد للوجود التام الكامل إذ كل ما هو في الخارج هو امتداد للوجود الكامل وهو الله تبارك وتعالى كما هو في الأعيان كذلك هو الأفعال فالقيام والقعود والركوع والسجود هي أفعال لله تعالى، وكما أن هذا الوجود الناقص هو وجوده، كذلك الفعل أيضاً فعله لكن هناك نسبتان:

١ _ نسبة ناقصة.

٢ _ نسبة تامة.

فنسبة هذه الأفعال القيام والقعود والركوع والسجود إلينا نسبة ناقصة، ونسبتها إلى الله تبارك وتعالى نسبة تامة هذا المعنى طبعاً هو معنى عميق. والفهم البسيط هكذا يتصور أن هناك أفعالاً لكن هذه الأفعال هي منسوبة لي أنا الإنسان إلاّ أنها تقوم بالله وبسبب الله وبقدرة الله، فأنا أقوم وأنا أقعد لكن بحول الله وقوته أقوم وأقعد.

فصاحب القيام وفاعل القيام من هو؟

الجواب: أنا المخلوق، والله تعالى هو الذي يعطيني الحول والقوة، وهذا هو الفهم البسيط.

لكن أهل المعرفة والفلاسفة والمتعمقين بالقرآن الكريم لا يقبلون هذا الكلام يقولون: الفعل الصادر عني منسوب لي نسبة مجازية ناقصة، وصاحب الفعل الحقيقي هو الله تعالى «يا من لا يدبر الأمر إلاّ هو».

مثلاً: أنت تضرب بيدك أو تأكل بيدك، فالآكل الحقيقي من هو؟

الجواب: هو أنت.

واليد صاحبة الفعل، رفعت اللقمة ووضعتها في فمك. والفم مضغ الطعام والمعدة هي التي هضمت الطعام، كل واحدة من هذه الأفعال منسوب لتلك الأعضاء له نسبة جزئية ناقصة، لكن العاقل الفاهم المتدبر يقول إن الآكل الحقيقي هو (أنت الإنسان)، لا اليد ولا الفم ولا المعدة أنت الآكل وأنت الشارب أما هذه اليد لها نسبة ناقصة في الفعل.

إن اليد ليست شيئاً غيرك أنت، فأنت لك يد ولك رجل، فالمجموع هو أنت، فاليد جزء منك والفاعل الحقيقي هو أنت وليس اليد، أما الله تعالى فحيث أنه ليس له اجزاء ولا نستطيع أن نقول القمر جزء منه والشمس جزء منه، انما نقول هي ظلال له تبارك وتعالى، وانعكاسات له تبارك وتعالى، ومراتب من وجوده تبارك وتعالى ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ﴾[1] كل أمر فإن الله مدبره إذن الله تعالى هو فاعله.

رد شبهة الجبر وسلب الإرادة:

قد يقال: القول بالتوحيد الأفعالي هل يؤدي إلى سلب الإرادة من

---

(1) السجدة: ٥.

الإنسان؟ وسلب النسبة أي نسبة الفعل إلى الإنسان الفاعل؟ هل هذا هو سلب الإرادة من الإنسان؟ وسلب الفاعلية من الإنسان؟ وهل للإنسان أن يقول إلهي أنا لست فاعلاً فلم تؤاخذني؟

إلهي أنا لست مختاراً ولا مريداً، أنت الفاعل الحقيقي، أنا مثل اليد في عملية الأكل، لا أكثر من هذا (جرى عليَّ الفعل)، ولست أنا الفاعل الحقيقي، وهذا بحث في غاية التعقيد وهو بحث (القضاء والقدر).

توضيح:

وأروي لكم رواية عن الإمام السجاد عليه السلام يعطينا فيها صورة توضيحية جميلة جداً، سأله سائل: أبقدر يصيب الناس ما أصابهم؟ يعني هذا كله مقدر بتقدير وليس لهم في ذلك شأن.

فقال عليه السلام: «إن القدر والعمل بمنزلة الروح والجسد».[1]

لاحظوا القدر (أي التقدير الإلهي) زائداً العمل الإنساني هذه اليد الإنسانية الجسم الإنساني والإرادة الإنسانية.

قوله عليه السلام: «إن القدر بمنزلة الروح والجسد»، فالروح بغير جسد لا تحس، روح بلا جسد لا شيء، ولا يكون عندها شامة ولا ذائقة ولا لامسة، فهي حية ولكن فاقدة لهذه الادراكات، فهذه روح بلا جسد، والجسد بغير روح ميت. بغير روح أي صورة لا حراك فيها حينئذٍ إذا اجتمعا (الروح والجسد) قويا وصلحا، الإمام يقول هكذا.

القدر الإلهي والعمل الإنساني:

متى ما اجتمعا وصلحا جرت الأعمال، هذه الأعمال لم تكن لتجري لولا

---

(1) التوحيد: ٣٦٦؛ بحار الأنوار ٥: ٥٤/ ح٩٦.

القدر الإلهي، وهو بمثابة الروح في البدن، ولم تكن لتحدث لولا الإنسان يتحرك ويقول ويقعد، بالضبط كما هي العلاقة بين كل أفعالنا وبين جوارحنا، أنت الذي تقرأ، الفاعل الحقيقي للقراءة والدراسة من هو؟

هل العين أو اللسان؟ يعني هل تقول لساني قرأ، وعيني قرأت أو أنا قرأت؟ تقول أنا قرأت، الفاعل الحقيقي للقراءة والدراسة هو أنا ومع ذلك تستطيع أن تقول إن عيني هي التي قرأت أو يدي هي التي ضربت ويدي ولساني هو الذي نطق، صحيح كل منها حق، الحنجرة التي أطلقت الصوت، والعين هي التي رأت السطور والورق، واليد هل قلبت الورق، ولكن الفاعل الحقيقي للقراءة هو الإنسان، هذه كلها وسائط، مثل هذا الأمر ينطبق على التوحيد الأفعالي.

تطبيق: هذا الأمر يطبقه على التوحيد الأفعالي، فالفاعل الحقيقي في كل الوجود هو الله تبارك وتعالى، وكما إن هذه العين واليد واللسان وسائر هذه الأدوات تستحق ما تستحقه من خير أو من شر نتيجة العمل المنسوب إليها. فإن الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى يستحق نتيجة الأفعال المنسوبة إليه نسبة ناقصة.

مثال: هذه اليد إن لمست شوكاً هي قد وخزها الشوك، والروح أيضاً قد تالمت، يعني هذه اليد عندما تقبض جمرة، اليد تحترق أو لا تحترق؟

الجواب: تحترق، هذا جزاء عملها، أنها أمسكت جمرة.

هذا نتيجة العمل واستحقاقه. وبنفس الوقت فإن المعذب الحقيقي والمتألم الحقيقي هو اليد أو أنا؟

الجواب: أنا المعذب بهذه الحرارة وبهذه الجمرة. لاحظوا مثل هذا الأمر على مستوى الجزاء والثواب، حينما تأخذ وردة مثلاً وحينما تشرب ماءاً، البدن

يرتوي الحنجرة المعدة اللسان الفم يرتوي ويأخذ نتيجة هذا الشراب، لكن المرتوي الحقيقي هو أنا الإنسان. وعلى هذا الأساس الإمام السجاد عليه السلام يعطينا التصوير الرائع جداً، يقول العلاقة بين القدر الإلهي والعمل الإنساني هو كالعلاقة بين الروح والجسد، الله بمثابة الروح، ونحن بمثابة الجوارح في الأعمال التي تصدر في الخارج. وعلى هذا الأساس فنحن في وفق نظرية التوحيد الأفعالي نعتقد بأن لا يصدر في الخارج ولا يكون شيء في الخارج إلاّ هو فعل الله تبارك وتعالى، ودورنا في ذلك هو أننا أصحاب (نسبة ناقصة) يعني إن الفعل ينسب لنا نسبة غير تامة وغير حقيقية، وأيضاً ننال ما يستحقه ذالك الفعل إن خيراً أو شراً إن عقاباً أو ثواباً، هذه رؤية اجمالية. وننتقل لمقطع ثالث، وهو كيف تكون أعمالنا إلهية؟

الأعمال الإلهية:

والحديث مع طلاب العلوم الدينية وحملة رسالات الله الذين نريدهم إن يؤثروا في قلوب الناس وليس أبدانهم، على أرواح الناس وليس على أجسامهم. إذن كيف تكون أعمالنا إلهية؟ بحيث يكون هذا عمل الله وليس مخلوطاً به شيء من أنانيتي (أنا).

وحينئذٍ حينما تكون الأعمال إلهية، ينطبق عليها قول الله ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا﴾[1] ينطبق عليه ﴿اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾،[2] فهو العالي وهو الغالب.

العلماء هكذا يقولون، أهل المعرفة يقولون: (كل عمل لم يلاحظ فاعله لفناء فعله في فعل الله هو فعل الله).

---

(1) التوبة: ٤٠.

(2) يوسف: ٢١.

يعني حينما هذه الواسطة تذوب وتفنى في ذي الواسطة حينئذٍ يكون الفعل فعلاً إلهياً، مثلاً قيامي حينما تزول فيه أنانيتي الشخصية الجزئية لا أعرف حولي ولا طولي ولا إرادتي ولا ربحي ولا خسارتي ولا مصالحي ولا قدرتي وانما لا أعرف إلاّ الله تعالى في هذا المقام حينئذٍ يكون ذلك القيام قياماً إلهياً.

الإمام عليّ عليه السلام حينما اقتلع باب خيبر لم يكن هناك شيء ملحوظ عنده إلاّ الله تبارك وتعالى، بحيث فنت إرادة الإمام عليّ عليه السلام في إرادة الله تعالى فلا اعتمد على قوته ولا وثق بنفسه ولا حسب حساب ربحه وخسارته ولا ذكر اسمه وعنوانه كما سيكتب التاريخ عنه، انما فنى في الله تعالى فكانت يده هي يد الله تبارك وتعالى.

أضرب لكم مثالاً لتوضيح الفكرة، الأحلام التي تراها في المنام، هل هي فعلكم؟ هل تملكون فيها إرادة، والأحلام احياناً مريحة جميلة وأحياناً موحشة. لو كان بيدك لم تكن تريدها، ولو كانت الأحلام الجميلة بيدك لكنت تؤديها ليلياً ويومياً فلا الأحلام الجميلة بيدك ولا الأحلام الموحشة بيدك حينئذٍ لو سألكم سائل هذه الأحلام هي من فعل من؟ فعلكم أو فعل غيركم؟ تقولون فعل غيرنا، الله تعالى الملائكة أو الشياطين. لأن ليس لنا فيها إرادة وانما فنت تلك الإرادة وتجمدت في غيرها، إذن هذا الفعل يصير منسوباً لذلك الفاعل الآخر الحقيقي وليس لك.

وهكذا أضرب مثالاً ثانياً لتوضيح الفكرة، حركة المعدة والقلب والرئة عند الإنسان وكذلك عند الحيوان، الآن وأنت جالس الرئة تتحرك هذه الحركة نسميها حركة ذاتية، القلب منذ ولادتنا يتحرك بإذن الله حركة ذاتية إلى أن يموت ابن آدم هذه الحركة وهذا الفعل هل أنت

فاعله؟ لو سألك سائل هذا قلبك يتحرك لكن هل أنت فاعل التحرك؟ تقول: لا، من هو الفاعل؟

الجواب: غيرك، هو الله تعالى، حركة القلب ذاتية وهذا البدن هو في حركة دائمة وأنت نائم وعبر العمر الطويل أو القصير. نقول هذه الحركة ليست حركتنا بل الفاعل الحقيقي هو غيرنا.

أحياناً بعض الأحلام السيئة هي من فعل الشياطين، فالشيطان حقيقة يسيطر على الروح في المنام ويفعل ما يفعل، هذا ليس فعلنا بل هذا فعل الشياطين.

هكذا إذن أفعالنا حينما تكون الإرادة والهدف والتوكل والثقة والربح والخسارة لا شيء مرئي عندنا إلاّ الله تعالى. حينئذٍ يكون الفعل إلهياً يعني حقيقة سوف لا تكون هذه يدك، سوف تكون يد الله تعالى، أما إذا فكرت بأنك أنت الذي تضرب، أنت الذي تكتب اسمك الذي سيبقى قدرتك التي تقلع الباب أو لا تقلع الباب كلامك الذي يؤثر أو لا يؤثر، إذن هنا صرت أنت وليس الله تعالى، إذن يكون الأثر بمقدار طاقتك، لكن لو سقطت هذه الرؤية للوسائل تماماً، إذن يكون الفعل فانياً في الله ويكون فعل الله تعالى.

أضرب لكم مثلاً من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾[1] في قصة نبي الله أيّوب عليه السلام هذا أيّوب، هو المريض المبتلى لسنوات طويلة وجرى عليه ما جرى، جاءه نداء ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فركض برجله ولم يكن يفكر بهذه الركضة بالرجل يعني ضرب التراب ستصنع ما تصنع، يعني لم يكن لديه معرفة وثقة بأنه ستنبع عين أثر ضربه للأرض بفعل الضربة، ولم

(1) ص: ٤٢.

يكن له لا مثل هذه المعرفة ولا مثل هذا الأمل ولا مثل هذه المقدرة، بل تكليف جاءه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ **فهو أدى تكليفاً كأداة جامدة، دون اعتماد على نفسه ولا على معرفة ولا على إرادته ولا على رجله ولا على أي مطلب آخر،** ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ **فركض فتحركت فكان الله تبارك وتعالى** ﴿هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾**، وهكذا موسى** عليه السلام ﴿قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ...﴾[١] **موسى** عليه السلام **لم يكن يفكر ولا يمكن أن يخطر بباله إن لهذه العصا القدرة الزلزالية لتفتح وتشق هذا البحر، أصلاً وليس لها هذا الدور أبداً ولا واحد بالمئة، فهنا لا يوجد أنا ولا يوجد موسى ولا يوجد عصا ولا يوجد إرادته ولا يوجد قدرته ولا يوجد دهائه ولا يوجد حتّى معنى _ أنا ببركة دعائي _ حدث ما حدث، هذا أيضاً لم يكن موجوداً، وانما كان الله تعالى،** ﴿قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ﴾ **فضرب بعصاه الحجر، فسقطت هنا كل القيم لوساطات، العصا والأنا، إذن من الذي كان؟**

الجواب: إن هذه الضربة هي ضربة الله تعالى ﴿فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.[٢]

هذا معنى إن العمل يكون الهياً، كل عمل تبليغي تأليفي سياسي من أعمالنا يكون إلهياً إذا فنت إرادتي الجزئية في الله تبارك وتعالى، حينئذٍ اطمئنوا بأن ذلك العمل إلهي وإذا كان إلهي فـ ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا﴾ **لأنه نور الله تبارك وتعالى، ونور الله لا يطفيء.**

شرائط العمل الإلهي:

العمل يكون إلهيا إذا تحققت ثلاث نقاط:

---

(1) البقرة: ٦٠.

(2) الشعراء: ٦٣.

١ _ النية الخالصة:

فقط الهدف هو (لله) تعالى، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.[1] بمعنى هدفي من التبليغ الهداية أو أداء التكليف.

وليس في هذا الهدف حتّى شائبة إن أنا أوفق أو أربح وما شاكل ذلك، وأحصل على ثواب لأنه حتّى هذا صار به أنا وصار به ربح مادي إذن صار بحسب طاقتي لا بحسب طاقة الله تعالى، لله يعني لا شيء آخر للإنسان فالنية خالصة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

٢ _ التوحيد الخالص:

بأن نثق بأننا عندما نتحرك أن هذه الحركة ليست إلاّ بالله تعالى ونحن لا قدرة لنا في أكل ولا في منبر ولا في تأليف ولا انتخابات ولا في سياسة، فالقدرة لله تعالى، وانما نحن عندما نتحرك فبحول الله وقوته.

٣ _ الثقة المطلقة بالله:

الله قادر على كل شيء بحيث لو أُغلقت عليك أبواب السموات والأرض، يجب أن تكون عندك ثقة بأن الله قادر على كل شيء بأن سيفتح لك الأبواب، والإنسان كثيراً ما يحصل عنده اليأس، واليأس ناشيء من ضعف التوحيد وضعف الإيمان والثقة بالله تعالى، يعني لو كنتم في مكان موسى عليه السلام أو في مكان يونس عليه السلام في بطن الحوت، وكان موسى عليه السلام على جرف البحر هل يبقى لدينا شيء من الثقة بالله تعالى بأننا سوف ننتصر، بينما تجدون موسى عليه السلام لم يكن عنده فقط أمل بالنصر، بل كان عنده يقين بالنصر وهذا من الغرائب، ولم يكن يقول فقط إن شاء الله بأننا سوف ننتصر، وانما موسى عليه السلام قال: هلمَّ بلسان

(1) الأعراف: ٢٩.

صريح وجاد وقلب قوي مطمئن ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[1] كأنه يرى النصر أمامه وكان البحر أمامه وجيش فرعون من وراءه كاد أن يأكلهم اليأس أكلاً، ولكن موسى قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي...﴾ فانتظروا ما سيحدث.

فالثقة بأن الله قادر على كل شيء يفتح أبواب السماوات والأرض وتفتح مغاليق السماوات والأرض للإنسان هو الشرط في كون العمل إلهياً.

أعمالنا التبليغية والسياسية:

التوحيد الأفعالي مطلوب في مجمل أعملنا، وحتّى يكون العمل لله تعالى في هداية شخص أو في مشروع ديني أو مشروع سياسي، ففرقنا عن غيرنا هو هذا، فغيرنا يعتمد على الاعلام والأموال وشراء الآراء والفضائيات وكثرة الأفراد، أصلاً نحن لا نفكر بأن لدينا كثرة أفراد ولا نفكر بأن لدينا اعلام ولا أموال نعم نستخدمها كلها لكن يجب أن تفنى في حقيقة إن الذي يكون هو إرادة الله تعالى، فهذه أدوات لا بدّ منها ولكن ليست هي التي تؤثر وتهدي هذه لا تصنع شيئاً في عملنا السياسي وفي عملنا التبليغي أيضاً، مثلاً لا يصنع منبرنا شيئاً في قلب هذا الشاب ويغير قلبه، انما إرادة الله تعالى تغير قلبه، ولا تغير قلبه إلاّ بمقدار إخلاص النية والثقة بقدرة الله تعالى، والتوحيد المطلق بدون شرك، حينئذٍ يكون ذلك العمل إلهياً، فإذا كان العمل إلهياً يكون هو الغالب وحينئذٍ لا يكون إلاّ ما هو المقدر عند الله تعالى الذي يريده الله تعالى، إذن هنا انتصرت الإرادة الإلهية ولم تنتصر إرادة الإنسان.

خلاصة وخاتمة:

في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، انه

---

(1) الشعراء: ٦٢.

لما كان في صلاته خرَّ مغشياً عليه فلما سُئل عن ذلك قال: «ما زلت أرددها حتّى سمعتها من قائلها»، يعني الإمام في الصلاة يردد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حتّى فنى فيها حتّى سمعها من قائلها وهو الله تعالى، هذا يعني أن هذا البدن تلاشى وهذا اللسان والإرادة الذاتية انخلع عنها هذا الوجود الإنساني، أصلاً فأصبح الذي يردد هو الله تبارك وتعالى وهذه الإذن التي سمعت ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] سمعت كلام الله تبارك وتعالى.

وقد تقول هذا الكلام غريب، لكن أقول لكم إن رأس الحسين عليه السلام حينما كان يقرأ القرآن، كان الحسين عليه السلام يقرأ القرآن أو الله تعالى كان يقرأ القرآن؟ اتحاد إرادة الحسين عليه السلام وفناؤها في إرادة الله هي التي جعلت هذا الرأس يتكلم والروح مفصولة عنه وكل المقومات المادية مقطوعة عنه، إذن إرادة الله وراء هذه التلاوة.

«ما زلت أرددها حتّى سمعتها من قائلها» ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يرددها حتّى فنى في الله تبارك وتعالى فأصبح القائل هو الله سبحانه وتعالى، وهذا يسميه العرفاء (اتحاد العابد والمعبود)، يعني يتحد (الإنسان العابد في الصلاة) مع المعبود وهو الله تعالى، فتكون الصلاة لزيد لكن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى، يعني الله يسخرك للعبادة، كما لو كنت نائماً والأحلام تسخر روحك، فكما إن هنا ليس لك إرادة، يصل الإنسان إلى مستوى ذوبان إرادته وجسمه وقدرته في الله تعالى، هذا الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام يصل إليه في أثناء صلاته. بحيث كانت السهام تنتزع منه أثناء صلاته.

طبعاً هذا مفهوم غريب (اتحاد العابد والمعبود) وصعب على الأذهان لكن

---

(1) الفاتحة: ٥.

عندما نرى حياة أئمّتنا عليهم السلام نرى أموراً عجيبة لا يمكن تفيسرها إلاّ بهذا الشكل. كيف أن الإمام عليّ عليه السلام ليس لديه احساس بألم حين انتزاع السهام منه؟ والسهم إذا انتزع ينزع معه اللحم والشحم فكيف لا يحس به لأنه فنى في الله تبارك وتعالى، فهذا الجسم مات من حيث قدرة الاحساس والادراك، وصارت الروح في مكان آخر من حيث تركيزها وتوجهها.

اتحاد العابد والمعبود:

أعمالنا كلها، ليست فقط الصلاة بل مطلق أعمالنا يجب أن نتحد فيها مع الله تعالى، بحيث هذا الفعل الذي يجري في الخارج يكون فعل الله تبارك وتعالى، صحيح أنه منسوب إلينا لكن يجب أن يكون هو فعل الله، بحيث نقطع إرادتنا وأسماءنا وعناويننا وأنانيتنا وأهواءنا وقدراتنا، حينئذٍ الله يتحرك على الأرض، فإذا تحرك الله على الأرض تنتصر إرادة الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾،[١] ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.[٢]

الإمام الصادق عليه السلام يقول:

«عجبت لمن يفزع من أربع كيف لا يفزع لأربع» ربما هذه الرواية عندكم معروفة في تحف العقول وغيرها، لكن يجب أن نفهمها بعمقها وليس بفهمها السطحي، حيث يشير الإمام إلى التوحيد الأفعالي:

١ ـ «عجبت لمن يخاف من سوء كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٣]».

---

(1) الطلاق: ٣.

(2) التوبة: ٤٠.

(3) آل عمران: ١٧٣.

لكن يجب أن نقولها قولاً فانياً في الله تعالى وتعيش في عمقنا حقيقة ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ **مثل** ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ **فهي سوف تفعل فعلها حينئذٍ بصدق قولنا:** ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**؟**

القرآن يقول: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾[1] **حينما صار احتساب وتوكل مطلق وتوحيد خالص جاء الفتح من عند الله تعالى،** ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾.

٢ ـ «وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]».

والغم هنا عام يشمل كل أنواع وألوان الغم، الشخصي والسياسي والاجتماعي وغير ذلك. وهنا يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.[3]

٣ ـ «وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾[4]».

فمطلق الأمور بيد الله وأنا واثق بقدرة الله يفعل ما يشاء وبعد هذا التفويض يقول الله تعالى: ﴿فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا﴾.[5]

٤ ـ «وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[6]».[7]

---

(1) آل عمران: ١٧٤.
(2) الأنبياء: ٨٧.
(3) الأنبياء: ٨٨.
(4) غافر: ٤٤.
(5) غافر: ٤٥.
(6) الكهف: ٣٩.
(7) الخصال: ٢٨١/ ح٤٣؛ بحار الأنوار ٩٠: ١٨٥/ ح١.

يعني ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن حتّى في أمور الدنيا، الإنسان تكون ثقته بإرادة الله تعالى، وليس بمكره ودهائه وقدراته الشخصية، إن الإمام الصادق عليه السلام في هذه الالتفاتة الرائعة يدعونا لتحقيق التوحيد الذاتي والأسمائي والأفعالي لله تعالى وحينئذٍ لا يبقى شيء سوى إرادة الله تعالى ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾.[1] هذا هو كله الحديث الأوّل في لقائنا.

الحديث الثاني: واقعنا المعاصر:

وننتقل إلى الحديث الثاني فيما يخص واقعنا الحاضر، اليوم نحن نعيش ظاهرة يمكن ان نعبر عنها ظاهرة نزول المرجعية الدينية بكل قوتها في العملية السياسية في العراق وهي انتخابات المجلس التشريعي المقرر أجراؤها في (٣٠/ ١/ ٢٠٠٥م)، ولعله لأوّل مرة نجد إن المرجعية الدينية لشيعة أهل البيت عليهم السلام قد نزلت بكل ثقلها في العملية السياسية وهي هنا تضع نفسها أمام ربح مطلق أو خسارة مطلقة فإما انكسار قوي وإما ربح العملية السياسية طبعاً.

المرجعية بهذا الشكل نزلت، بحيث قد يقول قائل إنها مغامرة. ماذا تصنع المرجعية؟ ألقت بنفسها وبكل ما لديها في الساحة السياسية بحيث إذا انكسرت يقال: انكسرت وانتهت المرجعية.

هذه ظاهرة حقيقية نجدها، يعني لم تدخل المرجعية في العملية السياسية الأخيرة دخولاً مجاملاتياً أو دخولاً على مستوى إسناد الناس، والمباركة لهم، لا بل دخلت بثقلها. ولتوضيح ذلك لاحظ المثال الآتي:

إن الإمام الحسين عليه السلام دخل يوم عاشوراء بولده وأهل بيته ونسائه ما بقي شيء عنده كل ما لديه وضعه في خط الثورة، هكذا المرجعية اليوم وضعت كل

---

(1) يوسف: ٢١.

ما لديها في العملية السياسية، لا نريد أن نقيم الموقف الجيد وغير الجيد ولسنا بهذا الصدد لأن المرجعية هي التي تشخص هذا هو الأفضل وليس أنا وأنت، ونحن في واقع العراق نجد إن المرجعية الدينية التي هي عنواننا وخيمتنا. وهذه المرجعية قد ألقت بدرعها ومغفرها ونزلت للمعركة.

ولقد قيل لعابس يومئذٍ: (أجننت يا عابس؟ قال: نعم حب الحسين أجنني) أليس هكذا في المثال، الآن المرجعية هكذا نزلت، طرحت انتخابات ثمّ أصرت ثمّ التقت مع المسؤولين الدوليين، ثمّ تبعث بالرسائل ثمّ تخاطب النصارى ثمّ تعقد لجنة، ثمّ تشكل قائمة انتخابية، تصد بأقوى ما يمكن، وفرغت لذلك طلابها ووكلاءها حتّى لم تجز لهم الذهاب للحج.

وهنا بالتتمة لذلك نلاحظ الحضور السياسي الشيعي الواسع، هنا الشيعة أيضاً ربما يكون هذا لأوّل مرة في التاريخ أيضاً نزلوا لساحة المعركة بقضهم وقضيضهم، معركة محتدمة الآن اسمها المعركة السياسية، ولأوّل مرة نزول الشيعة بهذا الشكل، أحزاب جماعات منظمات علماء، مقلدين غير مقلدين، مراجع مجتهدين، كلهم نزلوا في هذه القضية، وكذلك المؤمنون وغير المؤمنين وهذا حضور سياسي عظيم للشيعة في هذه المعركة السياسية.

مجموعة أسئلة:

السؤال الأوّل:

لماذا نزلت المرجعية بهذا الشكل؟ أليس هذا تصغيراً لحجمها؟

حيث يجب أن تكون خيمة للجميع، ولا تدخل في المعارك التي فيها خسارة وربح، حيث يمكن أن تخسر، فيقول قائل لو كانت المرجعية لم تنزل لكان أفضل لها؟ وهذه هي الحسابات المادية بحسابات الإنسان المادي، هكذا يفكر ربح وخسارة.

وهـذا الـسؤال المرجعيـة هـي التـي تجيـب عليـه ولـست أنـا. الموقـف الــسياسي نحــن لا نشخــصه للمرجعيــة بــل المرجعيــة هــي التــي تشخــصه فتقول: هكذا افعلوا ولا تفعلوا هكذا.

المرجعيـــة رأت أن المعركـــة بمـــستوى مـــن الأهميـــة علـــى مـــدى التـاريخ الـشيعي تـستحق أن تفنـى في ذلـك، ولـو كـان نتيجـة الأمـر أن يـصفى وجودهـا، أو لنفتـرض تخـسر خـسارة مطلقـة، كمـا إن الإنـسان يقتـل سياسـياً، طبعـاً الناصـر هـو الله تعـالى، لكـن لتوضـيح الفكـرة، إن هـذا المقاتـل حـين يقاتـل ويحتمـل أنـه يقتـل ويجـرح ومـا شـاكل ذلـك، لأنـه يـرى أن واجبـه هـو هذا، ولا يبقى في الخط الخلفي.

الآن المرجعية هكذا شخصت إن الأمر بدرجة من الأهمية يجب أن تنزل بكل ثقلها، لأنها إذا أبقت شيئاً من ثقلها إذن أنا أيضاً أبقي شيئاً من ثقلي وأنت ستبقي شيئاً من ثقلك والآخر كذلك، سوف نتزل نصفنا في المعركة. ونصف في المعركة لا يصنع شيئاً في مثل هذه المعركة بالذات، المرجعية رأت أن تنزل بكل ثقلها وبذلك استطاعت أن تحرك الوضع الشيعي.

وأذكـر لكـم فـي بعـض المحافـل والاجتماعـات الـسياسية المهمـة فـي الأيـام الأولـى لتـصدي المرجعيـة الدينيـة هنـا لمـسألة الانتخابـات، انتخابـات المجلس التشريعي أو انتخابات لجنة لتدوين الدستور.

كـان يقـول الـبعض نحـن لا نـدري لعـل المرجعيـة تنـسحب نحـن مـا جربناهـا لعلهـا فـي نـصف الطريـق تتركنـا فـي الطريـق، ويومئـذٍ أنـا كنـت أُدافـع وأقــول تكليفنــا أن نــدعم المرجعيــة إن انــسحبت فــي نــصف الطريــق أو أكملت، ولا يفرض على المرجعية التكاليف.

الآن تبـين أن المرجعيـة اسـتمرت واثبتـت كفـاءة عاليـة وفنـاءً فـي الله

تبارك وتعالى (ليس له اسم ولا رسم ولا صورة ولا شيء سوف يتحقق لهذا الإنسان الزاهد العابد).

إذن هذا الموقف من المرجعية يدلنا على إن المعركة بدرجة من الأهمية بحيث شخصت أن تنزل بكل قوتها ولا تقوم بدور تقسيطي يعني تقدم رجل وتؤخر أخرى.

السؤال الثاني:

هل إن هذا النزول الشيعي في الساحة هو طائفية، هكذا نتهم!!

هل المرجعية تحولت للطائفية دون أن تكون أباً للجميع؟

الجواب: لا، نحن عموماً والمرجعية الشيعية خصوصاً أبعد ما نكون عن الطائفية. نحن فتحنا قلوبنا للجميع ككريم يفتح بابه للجميع، لكن إذا لم يدخل الدار إلاّ أهله وولده وأهل بيته فما تقصيرنا إذا لم يدخل الآخرون في الدار؟

المرجعية والشيعة دعوا إلى خوض العملية السياسية ودعوا الجميع إلى الاشتراك في قائمة وطنية واحدة تضم الشيعة والسنة والأكراد والمسيح واليزيدية والشبك والتركمان، تعالوا نرتب قائمة وطنية لكل أطياف العراق والعراقيين فاستجاب لهذا النداء قوم ولم يستجب آخرون، فتشكلت مجموعة من الجماعات والأحزاب تحت لواء المرجعية وشكلوا هذه القائمة.

المرجعية ليست طائفية والشيعة أيضاً ليسوا طائفيين ومن أجل بناء العراق نزلوا بكل جهودهم _ وبيننا وبين الله _ اننا لا نريد أن نغصب أحداً حقه، ولا نحلم بذلك أصلاً.

وأقصى آمالنا أن نحصل ليس على كل حقوقنا بل بعض حقوقنا. والمسألة هنا ليست طائفية وانما استحصال بعض الحقوق.

الطائفية: هي عبارة عن غصب حقوق، وأما استحصال بعض الحقوق فهو ليس طائفية.

السؤال الثالث:

ما الذي سيحدث هل نريد حكومة إسلاميّة؟

الآن العالم يبدي قلقاً واقعياً أو مفتعلاً (إن هؤلاء يريدون حكومة دينية) وحتّى إن تصريحاً أخيراً نسب إلى (كيسنجر) _ المنظر للخارجية الأمريكية _ يقول: (تقسيم العراق أولى من أن يقيم الشيعة حكومة دينية).

يعني وصلوا إلى هذا المستوى، التقسيم الذي يعتبر خطأً أحمر يقول نقبل به!! ولا يصل الشيعة للحكم!! فيقيمون حكماً دينياً بعض الدول العربية وغير العربية يبدون قلقاً من وصول الشيعة للحكم خوفاً من إقامة حكومة دينية.

واقعاً هل نفكر نحن الآن بإقامة حكومة دينية؟

الجواب: لا _ أقول هذا الكلام ليس على سبيل المجاملة معكم _.

نحن لا نملك المقومات التي تسمح أن نصل إلى الحكومة الدينية ونعرف حجمنا ونعرف واقعنا، نحن الآن مساجدنا بنسبة (٥٠ %) فارغة من أئمّة المساجد، كم نملك من قضاة وحكام للشرع؟ كم نملك من الخطباء؟ كم نملك من الكتاب الذين يغيرون المناهج الثقافية في البلاد؟

واقعاً لا نملك كثيراً مما هو مطلوب، في حال قيام حكومة دينية، نعم انها أماني من قبيل اننا نأمل أن نشهد ظهوره عليه السلام، فتقوم الحكومة العالمية «فيملؤ الأرض قسطاً وعدلاً» هذا صحيح، لكن هل نحن الآن بهذا الصدد؟ يعني نريد بالانتخابات أن نملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً؟

تفكيرهم بأن الشيعة يعملون على إقامة دولة دينية، هذا اختلاق ومخاطرة وهمية لإثارة العالم من حولنا، ويضعونا في زاوية حرجة.

(نحن نفكر بقيام حكومة دستورية هذا خلاصة ما نريده).

أيها الشيعة أيها العلماء ماذا تريدون في العراق؟

الجواب: نريد قيام حكومة دستورية انتخابية عادلة فيها عدالة سياسية للجميع، هذا هو الذي نريده.

نحن نريد حكومة انتخابية على أساس الأكثرية، ثمّ العدالة السياسية التي تضمن للاقلية حقهم وللأكثرية حقهم، كل جماعة لهم حقهم هذا ما نريد (حكومة دستورية انتخابية عادلة) لا نضم إلى ذلك ضميمة أخرى، لا نقول دينية إسلاميّة. وإذا كانت حكومة دستورية انتخابية عادلة، يعني أن الإسلام أخذ موقعه والدين أخذ موقعه طبيعياً، دون أن نثير مخاوف غيرنا. ولا نريد أن نفقد الشجاعة ونخاف من ذكر الحديث عن الإسلام والدين بل حديثنا هو الإسلام والدين لكن الواقع اننا نريد حكومة انتخابية دستورية هذا الذي نريد. فإذا كانت الانتخابات والدستور كان وفق إرادة الناس، طبعاً سيكتب الناس في هذا الدستور هويتهم الدينية بطبيعة الحال.

الحديث الثالث: ضرورات في الحوزة العلمية:

الحوزة العلمية في النجف الأشرف تحتاج إلى مجموعة تخصصات علمية.

في القرآن الكريم، في العقائد، في سيرة أهل البيت عليهم السلام. نعم نحتاج إلى تخصصات وخبرة في هذه المجالات ولا يكفي أن يكون لدينا تخصص في المكاسب المحرمة والخيارات، وكتاب البيع للشيخ

الأنـصاري أعلـى الله مقامـه الـشريف، نحتـاج إلـى ثقافـة كلاميـة شـاملة، ثـمّ إلى تخصصات طالب العلم الذي يحتاج إلى عدة أمور:

١ _ دورات تفسير يكون قد قرأها.

٢ _ قـراء شـاملة لكـل كتـاب البحـار، مـن أوّلـه إلـى آخـره ليكـون ثقافة إسلاميّة موسوعية شاملة.

٣ _ قراءة كاملة لشرح نهج البلاغة.

٤ _ قراءة عدة كتب في سيرة أهل البيت عليهم السلام كلهم واحداً بعد واحد.

٥ _ ثقافـة إسـلاميّة فـي الموضـوعات الإسـلاميّة المختلفـة فـي التربيـة الإسلاميّة، السياسة الإسلاميّة، الأخلاق الإسلاميّة، المجتمع الإسلامي.

ويحتـاج إلـى ثقافـة موسـوعية. وهـذا يطلـب منـا وقتـاً كثيـراً وجهـداً كبيـراً، وبعـده تبـدأ مرحلـة التخصـصات بحيـث يقـال هنـا متخـصص بعلـم التفسير وهذا متخصص بعلم العقائد وهكذا.

الحوزة تحتاج إلى ذلك، والحوزة يعني أنتم ولا تفترضوا أن ينزل غيركم من السماء، ويكون هو متخصص في التاريخ والتفسير، وستأتي الأيام والسنين المقبلة وتبرز طاقاتكم بإذن الله وتملؤون فراغات في مجالات كثيرة تملؤون فراغات حقيقية، والآن ما تزال هناك فراغات. ولنتحدث بصراحة نحن الآن في أضعف مستوى _ وهذا الحديث ليس للاعلام بل حديث داخلي _ نحن الآن هـل نـستطيع أن نـذهب إلـى جامعـة مـن جامعـات بغـداد ونتحـدّث عـن الـسياسة الإسلاميّة؟ أو مقارنـة مـا بـين الـسياسة الإسـلاميّة الخارجيـة والـسياسة الخارجيـة الغربية؟ هل نستطيع ذلك؟

أو نحــدّثهم عــن الاقتــصاد الإســلامي ومميزاتــه، أو هــل نــستطيع أن نعطـي صـورة جيـدة لامعـة عـن سـيرة الإمـام علـيّ عليه السلام فـي عدالتـه الـسياسية

أو فـي حكمتـه؟ كـم واحـد منـا يـستطيع؟ ممكـن الـبعض، وهـو دون المطلوب بكثير جداً. وقس على ذلك في المجالات الأخرى طبعاً، عندما أقول هـذا الكـلام لـيس بهـدف الانتقـاص مـن نفـسي أو أي أحـد أو كـل الكيانات لكن لبيان ما هو حجم المطلوب منا.

ما نحتاج إليه:

١ _ نحتاج إلى تخصص من ناحية.

٢ _ وثقافة موسوعية من ناحية أخرى.

٣ _ نحتـاج إلـى تطـور أدائـي فـي البيـان وفـي القلـم، بحيـث نكـسب الـشريحة العظمـى مـن النـاس، بحيـث لـو دعـي أحـدكم إلـى تقـديم برنـامج فـي التلفزيـون فلـيس المعنـى أن نـدرس كتـاب الأسـفار أو شـرح البـاب الحـادي عـشر، بـل نحتـاج إلـى نمـط بيـان وقـدرة معالجـة لنكـسب الـشباب، ولا يذهبوا لغيرنا. مثل هذه القدرة نحتاجها.

٤ _ ربمـا لـدينا معلومـات أكثـر ولكـن يجـب أن تكـون طريقـة الأداء ناجحـة تأخـذ بعـين الاعتبـار ثقافـة النـاس، عواطـف النـاس، حاجـات النـاس، لغة الناس، اهتمامات الناس.

حالات وامتيازات طلبة العلوم الدينية:

يمتـاز طلبـة العلـوم الدينيـة بحالـة كبيـرة مـن النقـاء والمظلوميـة، والحقيقـة إن أشـرف شـريحة وأطهـر شـريحة فـي المجتمـع هـي شـريحة طلاب العلوم الدينية كشريحة كاملة وليس كفرد فرد.

يمتلكـون نقـاءاً عاليـاً إلـى جانـب مظلوميـة كبيـرة، الطبقـة المـسحوقة في العـراق هـي طبقـة طلبـة العلـوم الدينيـة، لـيس لهـا أي شـيء مـن الحقـوق،

لا مستقبل لا تقاعد لا راتب دائم ولا شيء آخر، فضلاً عن واقعهم الحالي لا يملكون شيئاً هؤلاء من الناحية الإنسانية نأسى لهم، ومن ناحية نفرح لهم، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم في مقابل هذا، أعطاهم النقاء والطهر والدمعة الساكبة وإرادة الآخرة والانقطاع عن الدنيا، فنفرح لهم ونأسى لهم. فعلى من نعتب؟!

وهل تستطيع الحوزة أن تبني مدارس وتعطي رواتب كافية؟ أم أنها تعمل حسب هذه القدرات المتاحة.

هل عند المرجعية نفط أو صادرات تجارية أو وصول الحقوق الشرعية بشكل كاف؟ الحقيقة لا.

بينما كل العيون تنتظر منها. وحديثي عن كل المرجعيات ولا أعني شخصاً وعلى طول التاريخ أيضاً ولا أقصد هذا المقطع الزمني.

أين أهل المال؟ التجار؟ أين الأثرياء؟ هم في واد وهموم المرجعية والحوزة في واد آخر.

لذا احتسبوا ما يصيبكم من فقر، من غربة عند الله تعالى، لأن أئمّتكم كانوا كذلك، أمير المؤمنين عليه السلام كان يبث همومه إلى الصحراء إلى بئر حيث يخلد وحده، هموم كثيرة للطلبة ولعل بعضكم يبكي منتصف الليل، الله تعالى فقط يسمع بكاءه ويسمع مناجاته المهم أن تخلصوا النية لله تبارك وتعالى.

والدين له أهله، والتشيع له ربه وأئمّته، وهذا ما نستطيعه حقيقة.

الاعمار المعنوي:

آية الله السيد السيستاني يعبر تعبيراً جميلاً عن (الاعمار المعنوي) كلنا نفكر باعمار العراق لكن انتبهوا إلى الاعمار الحقيقي الذي نريده،

الآن اعمار العراق بدأ لكن مثلاً دخلت الشياطين لبيوت الناس من خلال الستلايت والانحراف، وما هذه النقم التي تجري إلاّ من هذه المعاصي.

وما يدرينا لعل هذه المعاصي هي التي فتحت أبواب هذه البلاءات والفتن؟ الناس يفكرون بالاعمار المادي، أما أنا وأنتم نفكر بشيء آخر اسمه (الاعمار المعنوي)، من لهؤلاء الناس إذا تركناهم؟ للفضائيات، والأحزاب المنحرفة، والاذاعات المنحرفة.

من للشعب العراقي؟ هذا الفتى أو الشاب لمن يذهب؟ فالجريدة شيطان يجذبه، والتلفزيون شيطان، وعندما ينزل للشارع حيث شياطين الإنس والجن، فأين يذهب هذا الشاب؟

من القادر على شفاء الناس؟ فإذا كان طالب العالم مريضاً فكيف يداوي الناس وهو عليل؟ (بالاعمار المعنوي)، عضّوا على نواجذكم، «صبروا في أيام قليلة أعقبتهم راحة طويلة» في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ويجعلكم من أوليائه وأهله.

الشيء الذي أستطيع أن أقوله لكم هو إذا فكرنا بهذا الشكل فالله ناصرنا واننا فائزون إن شاء الله تعالى، وهذه قدرتنا على كل حال ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ حينئذٍ ستجدون ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.[1]

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) الشعراء: ٦٣.

(٢٣/ ذو الحجة/ ١٤٢٥هـ)

المحاضرة الثالثة:

العصمة هل يمكن اكتسابها؟

موضوعات المحاضرة:

١ _ العصمة الإلهية.
٢ _ نظرية استلاب الذات.
٣ _ كيف نحقق العصمة؟
٤ _ المعالجة الفردية والاجتماعية.
٥ _ مسؤولية العلماء.
٦ _ عوامل الانتصار في العملية السياسية.

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الغدير وكربلاء:

اليوم نقف بين حدثين: حدث مضى وحدث يأتي، الذي مضى بيعة الغدير والذي يأتي محرم الحرام فنحن بين الغدير ويوم كربلاء، بين يوم البيعة ويوم الثورة بين يوم الفرح ويوم البكاء، بين يوم الولاء ويوم سفك الدماء.

ما بين الغدير وكربلاء فاصلة زمنية ليست طويلة، لكن فيها تحولات كبيرة حولت المشهد رأساً على عقب من مشهد ابتهاج وبيعة وعقد الإمرة لأمير المؤمنين عليه السلام وتلاحم صفوف الأمّة الواحدة إلى مشهد التخاذل عن الحق وعن نصرة الحق، وترك الحق وحيداً في ساحة الميدان.

بين هذين المشهدين فاصل كبير جداً، بين مشهد بخ بخ لك يا عليّ، وبين مشهد قطع رؤوس أولاده وحملها على الرماح، بين مشهد ولاية عليّ أمير المؤمنين ومشهد سبي زينب بنت أمير المؤمنين، على أن الفاصل الزمني قصير جداً.

نحن نريد أن نقف وقفة فيها شيء من الاستفادة القرآنية والتجريبية من هذه الحوادث.

وحيث كنا نبدأ بحديث بيعة الغدير، هكذا نجعل مفتاح الحديث هو قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.[1]

---

(1) المائدة: ٦٧.

العصمة الإلهية:

حديثنا اليوم عن العصمة الإلهية للإنسان انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هنا نقصد بالعصمة الإلهية عصمة الله للإنسان، عصمة الإنسان التي مصدرها الله تبارك وتعالى.

القرآن الكريم يستعرض هذا المفهوم مفهوم العصمة في موارد عديدة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾.(١)

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.(٢)

﴿فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾.(٣)

العصمة واشتقاقاتها، اعتصم، اعتصموا، القرآن يذكر هذا المفهوم في عدة اشتقاقات، ومن الآيات التي تناولت ذلك المضمون قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ هذه العصمة من الله تعالى لنبيه ﷺ.

هناك سؤالان مهمان والغرض من هذا البحث ليس هو تناول بحث العصمة في استدلالاتها العلمية، فذلك من شأن علم الكلام ودراستنا في الحوزة العلمية، إن الحديث في هذه الندوات وفي هذه اللقاءات هو أن نستهل بمفاهيم قرآنية إسلاميّة لننظر مدى انعكاسها على واقعنا وسلوكياتنا.

هناك سؤالان مهمان:

السؤال الأوّل: هل العصمة من فعل الإنسان أم من فعل الله تبارك وتعالى؟

السؤال الثاني: هل يمكن الوصول للعصمة أو لا يمكن الوصول إليها؟

---

(1) آل عمران: ١٠٣.

(2) آل عمران: ١٠١.

(3) يوسف: ٣٢.

كـلا الـسؤالين طبعـاً يـنعكس علـى سـلوكياتنا، وعلـى قـراءة الواقـع لاحداثنا الفردية أو السياسية.

معنى العصمة لا نحتاج أن نقف عنده طويلاً.

العصمة هي المدى الأعلى للهداية:

القمـة فـي الهـدى، القمـة فـي التـسديد والتوفيـق الإلهـي، الوصـول إلـى منتهـى البعـد عـن وادي الانحـراف، النـاس المؤمنـون كلهـم فـي طـريقهم نحو العصمة، كـل شـخص لـه حصة، هـذا لـه مـن التقـوى عـشرة بالمئة، حتّى نـصل إلـى مرتبـة مئـة بالمئـة. وهـذه هـي العـصمة، حيـث لا سـقوط ولا تـصل يد الضلال ويد الانحراف إلى هذا الإنسان الذي وصل إلى القمة.

العصمة في معناها العام المستعمل يمكن أن نقسمها إلى عصمتين:

١ _ العصمة الغريزية.

٢ _ العصمة الكسبية التربوية.

العصمة الغريزية:

تلـــك التـــي تحـــصل لـــدى الإنـــسان انطلاقـــاً مـــن اندفاعاتـــه الغريزيـــة، كمـــا أن الإنـــسان ذاتيـــاً يبتعـــد عـــن مـــس النـــار، وذاتيـــاً يبتعـــد عـــن الهـــوي فـــي الـــوادي، كـــذلك الإنـــسان ذاتيـــاً يبتعـــد عـــن أكـــل الميتـــة العفنـــة، والاقتـــراب مـــن القـــذارة النتنـــة، دون الحاجـــة إلـــى حكـــم عليهـــا بالنجاسة أو الحرمة.

أنـت لا تجـد إنـساناً متـوازن الخلقـة وهـو يقتـرب مـن الميتـة العفنـة ليأكلهـا، فهـو معـصوم منهـا ذاتيـاً وغريزيـاً، غرائـزه تقـف سـداً بينـه وبـين أن

يقترب من هذه الميتة العفنة، أو السقوط العمدي في الوادي وما شاكل ذلك، هذا نسميه عصمة غريزية.

المؤمن وغير المؤمن، المسلم وغير المسلم، غريزياً هو معصوم عن الاقتراب من المهالك والخبائث الواضحة بدافع ووازع غريزي هذه عصمة غريزية، وهنا أيضاً على مستوى المحرمات، حينما يكون المحرم مكشوفاً ومهتوكاً، تلك السيئة حينما تكون منتنة، حينما تشمئز منها النفوس، الإنسان يبتعد عنها كما مثلت لكم، الإنسان المؤمن عادة يهرب من رائحة المسكرات يعني هو يراها مزعجة ومنفّرة يعني هو أصلاً لا يراها جميلة حتّى يقترب منها فهو معصوم منها ذاتياً وغريزياً بفعل فطرته الإيمانية.

العصمة الكسبية:

وهناك عصمة كسبية تحتاج إلى جهد، بحيث لو ترك الإنسان وغريزته لما امتنع من التورط في ذاك الفعل ولكن يحتاج إلى تربية، إلى كسب، إلى تعليم النفس، من قبيل العلاقة مع الكثير من الأهواء المنحرفة التي يزينها الشيطان للإنسان، هنا لو ترك الإنسان مع غريزته لاقترب منها من قبيل الشرب والأكل في نهار شهر رمضان، لذلك فإن الإنسان الجائع والعطشان في نهار شهر رمضان، هذا الإنسان بكسب وتعلم وتربية لا يقترب من الماء البارد، وإلاّ هو عطشان لو ترك مع غريزته لاقترب وشرب الماء، فهنا عصمة نسميها كسبية، يعني يجب أن يعصم نفسه بالإرادة.

وفي قصة يوسف حيث قال تعالى: ﴿فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ﴾[1] كان مقتضى الدوافع الغريزية أن يتورط يوسف في ذلك الاثم،

---

(1) يوسف: ٣٢.

مقتضى الدوافع الغريزية البشرية هو ذلك، ولكن هذا النبي استعصم وامتلك ناصية العصمة الكسبية التربوية، التعبير القرآني جميل في دلالته.

إذن نحن مرةً نتحدّث عن عصمة غريزية هي من فعل الله بلا شك وليس للإنسان دور فيها، يعني الإنسان منذ خلقه الله تعالى، ووعى المدركات حوله، كانت غريزته تجعله يهرب من الروائح النتنة غريزياً، بلا شك هذه من فعل الله، ليس لنا فيها فضل.

لكن الحديث عن العصمة بالمستوى الثاني أي العصمة الكسبية، هذه العصمة بمستوى أن يبتعد الإنسان بنحو مطلق عن المعاصي والهفوات، السؤال كيف نحصل عليها؟

أمثلة أخرى: هناك علم ابتدائي وهناك علم كسبي.

العلم الابتدائي كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١] العالم والجاهل علّمهم الله تعالى العلم الأوّلي، هذا العلم الابتدائي ليس علماً كسبياً وليس للإنسان فيه فضل، فطره الله على تلك المعلومات.

الهداية أيضاً، هناك هداية كسبية، وهناك هداية ابتدائية ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾[٢] وهذا عام لكل البشر لكن هناك هداية كسبية يحصل عليها المؤمنون كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣] الهداية الثانية هذه هي غير الهداية الأولى.

نحن الآن نبحث عن العصمة الثانية كيف نعتصم بالله، وكيف نكون معصومين من قبل الله؟

---

(1) العلق: ٥.

(2) الإنسان: ٣.

(3) العنكبوت: ٦٩.

هـذا هـو الهـدف وكمـا قلـت لكـم نحـن لا نريـد أن نتنـاول بحـث علـم الكلام فلسنا بهذا الصدد.

تقسيم آخر للعصمة:

وقبل أن نجيب على السؤال السابق نقف عند تقسيمات أخرى للعصمة، هناك تقسيم آخر للعصمة: العصمة من كيد الشيطان، والعصمة من كيد الإنسان.

الإمـام قـد يكـون معصوماً مـن كيـد الـشيطان ولكـن ممكـن أن يُعتـدى عليه من قبل بعض الناس.

الـسؤال كيـف نحقـق العـصمة الكـسبية مـن كيـد الـشيطان، مـن الانحـراف والـضلال؟ ثـمّ كيـف نحقـق العـصمة مـن كيـد العـدو الإنـساني، بحيث نصل إلى مستوى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.[1]

كيـف يعـصمنا الله فـي مجمـل عملنـا الاجتمـاعي والـسياسي والتبليغـي؟ هـل نـستطيع أن نـصل لهـذا المـستوى أم لا نـستطيع؟ هنـا نقـدم قراءة لعمل الإنسان والفرق بينه وبين عمل الحيوان.

دوافع العمل:

لاحظوا العمل الاختياري لا يصدر في الخارج إلاّ عن ثلاثة أمور، وجود حاجـة تكوينيـة، يتبعهـا تحقـق غريـزة ذاتيـة تنـشأ منهـا انـدفاعات عاطفيـة، هـذه الغريزة وهذه الاندفاعات هي التي تدفع الإنسان لتحقيق حاجاته التكوينية.

هـذا الإنـسان الابتـدائي أو الإنـسان الطفـل حينمـا يتجـه لـشرب المـاء، ويتجـه لـشرب (الحليـب) عبَّـر بـذلك عـن وجـود مـصلحة نابعـة مـن حاجتـه

---

(1) المائدة: ٦٧.

البدنية لهذا الحليب، وعبر عن الغريزة التي أودعها الله تبارك وتعالى فيه بحيث يندفع إلى أن يشبع حاجاته، إذن هناك حاجة نشأ منها دافع نسميه غريزة لدى الطفل باتجاه الطعام والشراب.

في المرحلة الثالثة تتحقق عاطفة وعلاقة نفسية عند هذا الطفل مهما كان بعيداً عن الادراكات المعنوية العالية، لكن يتحقق لديه مستوى من مستويات المحبة والعاطفة النفسية.

هذه الدوافع الثلاثة (الحاجة، الغريزة، العاطفة) نجدها بهذا المستوى عند الحيوان أيضاً.

عمل الحيوان أيضاً يبدأ من حاجة معينة، ثانياً غريزة، ثالثاً عاطفة بمستوى من المستويات، الحيوان ينطلق من هذه الدوافع الثلاثة.

الإنسان كذلك لكن الفرق أن الإنسان يتطور من حالة الإنسان الغريزي إلى حالة الإنسان الاجتماعي.

الإنسان الابتدائي، سواءاً بمعنى ما قبل التاريخ إذا افترض وجوده أو بمعنى الطفل، هذا الإنسان غريزي فقط تحركه الحاجات البدنية والغرائزية والعواطف بما يتلاءم مع تلك الغرائز.

لكن الإنسان الغريزي يتطور إلى انسان اجتماعي وهو الذي لا تتلاشى عنده الغريزة، وإنما تكبر عنده المصلحة، تكبر عنده العواطف إلى علاقات مع الأب، مع الأخ، مع الأم، مع الآخرين.

المصلحة موجودة ومطلوبة لكن كبرت عنده، فهو يريد مصالح، لكن مصالحه تتطور وتتكامل من مصالح على مستوى الحاجات البدنية والعواطف الغريزية الذاتية إلى مصالح أكبر، مثل العزّة والكرامة وحب العشيرة والوطن والجماعة السياسية والمبادئ العقيدية وغير ذلك.

وحين يكون الإنسان إلهياً فإن مصلحته تزداد سعة وشمولاً بحيث يفكر بالحق والإنسانية والقيم الكبرى في الوجود.

الإنسان الإلهي ينطلق من مبادئ الحق، وقيم ومصالح الحق، ويوظف غريزته وأهواءه ومصالحه الشخصية بذاك الاتجاه.

توجيه الذات:

من المفيد الإشارة إلى بحث علمي وهو: هل المطلوب حينما يريد الإنسان أن يكون إلهياً هو إلغاء الذات أو توجيه الذات؟

البعض كما لدى الصوفية يتصورون اشتباهاً أن الطريق إلى الكمال هو إلغاء الذات، بينما نحن نجد أن سلوك الأنبياء والأئمّة الأطهار وكما هو في المعرفة الإسلاميّة الصحيحة لا يتجه نحو الغاء الذات، نعم قد نسميه فناءاً في الله، أنا لا أتحدث عن المصطلحات المعرفية، لكن أتحدث عن الترجمة العملية.

الإنسان في الإسلام مدعو إلى تهذيب الغرائز وليس إلى إلغاء الغرائز وبينهما فرق كبير.

وهنا نصل إلى نظرية في علم النفس تقول إنه لا يمكن إلغاء الذات بحيث أن الإنسان تنعدم عنده المنطلقات المصلحية تماماً، لا يمكن هذا، لقد جُبل الإنسان على غرائز معينة وحينما يتحول إلى إنسان اجتماعي، ثمّ إنسان إلهي فإن من غير الممكن أن يتخلص من الغرائز الذاتية.

إذن ما هو المطلوب؟

المطلوب هو توجيه هذه الغرائز، وليس الغاؤها، وذلك بالاعتناء بها، الاعتناء بالذات وليس الغاؤها، وبهذا نستطيع أن نفسر قول رسول الله ﷺ: «اني ليغان على قلبي، واني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة» ماذا

يعني ذلك؟ هل أن الرسول يفكر بالمعصية؟ طبعاً لا، لكن نفس أن يبقى الإنسان مع ذاته، ويريد أن يكون له شأن، ويفرح إذا كان له كيان وعنوان، أن هذا بنفسه هو تجاوز لمقام العبودية والفناء في الله تعالى، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «انه ليغان على قلبي، واني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»[١] ممَّ هذا الاستغفار؟ هل هناك معصية؟

إن الذات ودوافعها وأنانياتها هي موجودة دائماً، ولا يمكن للإنسان أن يلغي ذاته، بمعنى أن لا يكون له شيء من الأنا، ولا مثقال ذرة، لا يمكن ذلك، النبي كما هو في رواياتنا يعمل لوجه الله. لكن هذا العمل الذي هو لوجه الله، تأنس النفوس البشرية إذا أثنى عليه الناس.

عندنا في بعض الروايات ذاك الإنسان الذي يقول للإمام اني أصلي لوجه الله لكن بالأثناء إذا تعرّف المؤمنون على صلاتي فاني أفرح، هل هذا رياء؟ قال الإمام عليه السلام هذا ليس رياء إذا لم يكن ذلك من قصدك.[٢]

مثلاً أنت تؤلف كتاباً لوجه الله تعالى، وسوف تفرح إذا طالعه الناس واستفادوا منه واشتهر اسمه في الأسواق، إن من غير الممكن أن لا تفرح، فهل ذلك معصية؟

الطريقة الصوفية والدرويشية تريد تماماً التنكّر للذات، بينما الإسلام لا يريد التنكر للذات بل يريد تصفية الذات، وتزكية الذات، والاحتفاظ بكونها تطلب مصالح انطلاقاً من دوافع غريزية صحيحة ومتوازنة وليست حيوانية.

---

(1) المستدرك على الصحيحين ١: ٥١١.

(2) عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام: سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك؟ فقال: «لا بأس، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك» الكافي ٢: ٢٩٧/ ح ١٨.

نظرية استلاب الذات:

من الغريب أن نجد بعض الدراسات الاجتماعية والنفسية الحديثة تعتقد أن الإنسان ينطلق في بداياته من غرائز ومصالح طبيعية ولكن حينما يكبر يبدأ يفكر بعناوين اجتماعية، بربح وخسارة ليس على مستوى مادي، وإنما على مستويات أخرى. الطفل في المرحلة الأولى يفكر فيما يأخذه من (حليب) وحينما يكبر تكون عنده مصالح اعتبارية: الحب والبغض والموقع لدى الآخرين.

وهنا تنشأ عملية التضاد بين المصالح الاعتبارية المعنوية، والمصالح الطبيعية المادية، ومشكلة الإنسان انه يريد أن يحقق المصالح الاعتبارية على حساب المصالح الطبيعية وهنا تبدأ حالة الاضطراب النفسي.

يقول هؤلاء الكتاب إن التخلص من هذا الاضطراب النفسي هو رفض المصالح الاعتبارية، والبقاء مع المصالح الطبيعية، وهذا ما يسمى بالفلسفة البرجماتية النفعية، أي أن نبقى مع المصالح الطبيعية، أما التفكير بالاعتبارات والمصالح الاعتبارية والذي يجرّنا إلى مشادة بين تلك المصالح الطبيعية وبين المصالح الاعتبارية، فإن الخلاص من هذا الاضطراب النفسي أن يُسقط الإنسان كل الاعتبارات ويبقى مع المصالح الطبيعية، لأن المصالح الاعتبارية في خط مواجه للذات وليس في خط تكاملي للذات، وهنا تحدث الأزمة التي تصيب الإنسان وهي أزمة (استلاب الذات) أن هذا الإنسان حينما يبدأ يفكر بالمصالح الاعتبارية تصبح عنده أزمة استلاب الذات، يعني يسلب ذاته ويعمل بالضد من تلك الغرائز الطبيعية.

نقد نظرية استلاب الذات:

طبعاً هذا تصور خاطئ، هؤلاء يعتقدون أن انتقال الإنسان من مرحلة المصالح الطبيعية إلى مرحلة المصالح الاجتماعية، يعني من إنسان غريزي إلى إنسان اجتماعي، يتصورون أن هذا هو خط إلغائي، بينما نحن في فهمنا لوحدة الإنسان أن هذا هو خط تكاملي، يعني الإنسان عندما يكبر تكبر عنده المعنويات والاعتبارات، هذا لا يعني انه ألغى تلك المصالح المادية الغريزية، وإنما هذّبها ووجدت عنده مصالح جديدة، شخصيته كبرت، أصبح عنده نمو في الشخصية، حينئذٍ يحتاج إلى ملابس تتلائم مع هذه الشخصية بالحجم الجديد، فالغاء الملابس القديمة والحاجة إلى ملابس جديدة هذا لا يعني استلاب الذات، بل هو عمل تكاملي.

الإنسان عندما انتقل من إنسان غريزي إلى إنسان اجتماعي، ثمّ ينتقل إلى إنسان مبدئي وعقيدي هذا الإنسان لا يعيش في اضطراب، وإنما هو يتجه نحو تكامل الشخصية البشرية، وحينئذٍ فإن الحل ليس هو التمرد على الاعتبار والقانون والمصالح الاجتماعية والقيم الأخلاقية، وإنما الحل هو التلاؤم معها.

هذا الحل هو أن يفكر في المصالح الغريزية ومن ثمّ يفكر في المصالح المبدئية، كله تفكير في نسق واحد وليس على سبيل التضاد.

كيف نحقق العصمة؟

نرجع إلى محور حديثنا وهو العصمة، كيف نحقق العصمة لأنفسنا؟ العصمة الكسبية وليست العصمة الذاتية الغريزية.

العصمة الكسبية هي من فعل الله تبارك وتعالى بالإنسان، ولكن

الفعل الترتُّبي، أي أنك تدعو والله يجيب الدعاء، الفعل هو فعل الله، لكن هذا الفعل مترتب على دعائك.

العصمة الكسبية هي فعل الله بلا شك، يعني الله يعصمك، لكن عمل الإنسان هو الاعتصام بحبل الله.

لاحظوا يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١] **وهكذا تكون الخطوة الأولى من الإنسان.**

وهكذا في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٢] **الخطوة الأولى من النبي وهي الابلاغ، بعدئذٍ تأتي الخطوة الثانية من الله سبحانه وتعالى وهي العصمة.**

العصمة هي كما قال تعالى: ﴿كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ﴾[٣] **في قصة يوسف، الصرف عن المعاصي هو فعل من الله، لكن هذا مترتب على خطوة قام بها الإنسان** ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ **فهناك خطوة أولى من الإنسان وهي الاخلاص، والعصمة هي الخطوة الثانية من الله تبارك وتعالى.**

إذن العصمة هي فعل الهي لكن ترتّبي وليس ابتدائي، ان علينا أن نحقق أولياته كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا﴾[٤] **الخطوة الأولى هي التذكُّر وهو فعل الإنسان وحينئذ يأتي الفعل الإلهي وهو** ﴿فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

---

(1) آل عمران: ١٠١.

(2) المائدة: ٦٧.

(3) يوسف: ٢٤.

(4) الأعراف: ٢٠١.

العصمة هي فعل من الله تبارك وتعالى، لكن هناك نحوان من الفعل الإلهي، فعل إلهي ابتدائي كما هو في العلم الابتدائي ﴿عَلَّمَ الإِنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكما هو في الهداية الابتدائية ﴿إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ﴾(1) كذلك هو في العصمة الابتدائية الغريزية كما شرحت، وهناك عصمة الهية ترتُّبيَّة، تحدث بعد أن يتقدم الإنسان خطوة نحو الإمام.

السؤال إن هذا الفعل الإلهي كيف نحصل عليه؟

كيف ننزل العصمة الإلهية لنا؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ سواءاً يعصمك من الشيطان فلا تنحرف ولا تعمل المعاصي، أو يعصمك من الأعداء.

المعالجة الفردية والاجتماعية:

العصمة من الشيطان تحتاج إلى معالجة فردية، لكن العصمة من الأعداء تحتاج إلى معالجة اجتماعية.

الله تبارك وتعالى في بيعة الغدير قال لنبيه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وذاك المجتمع الذي قد يزيد على مائة وعشرين ألفاً، ولم ينجح المنافقون الموجودون يومئذ في تعكير صفو ذاك المؤتمر العظيم.

الله حقق له العصمة، ولكن يوم كربلاء ونحن نستقبل محرم الحرام، الإمام الحسين قطّعوه إرباً إرباً وحملوا الرؤوس على الرماح ولم يتحقق ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ لماذا؟

لماذا هناك تحقق عصمة اجتماعية، هناك انتصر النبي وهنا لم ينتصر الحسين عليه السلام؟

الجواب: إن العصمة الاجتماعية تحتاج إلى معالجة اجتماعية،

---

(1) الإنسان: ٣.

وليس إلى معالجة فردية، فمن أجل أن تكون معصوماً من الكذب تحتاج إلى معالجة ذاتية فردية وحدك وأنت في الغرفة، أنت ممارستك الفردية تبتعد عن المفاسد والمحرمات، ولكن حينما تريد أن تحقق عصمة لمشروع كامل، عصمة اجتماعية، عصمة سياسية، نجاح لمشروع عمل متكامل، ودفع كيد الإنسان وليس كيد الشيطان فقط، هنا تحتاج إلى معالجة اجتماعية، ومعركة مع المجتمع، والشرط في تحقق العصمة الاجتماعية السياسية هو حضور الأمّة، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1] ومعنى ذلك إن العصمة الاجتماعية والسياسية في أي مشروع ديني بحيث يكون معتصماً من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، بحيث يحقق نجاحات باهرة، هذا الأمر لا يتحقق إلاّ بشرط؛ وهو إرادة الأمّة وموقفها الصحيح.

في بيعة الغدير كانت هناك أمّة تفاعلت مع الرسول ﷺ، هناك تحققت إرادة أمّة كاملة، لكن يوم عاشوراء هذه الإرادة كانت إرادة سلبية، وتُرك الحسين وحيداً، بالتالي جرى ما جرى.

مسؤولية العلماء:

أيها الاخوة نحن لو كنا فقط نريد عصمة فردية هذا يعني أن نكون عبّاداً، لكن نحن عندما أصبحنا طلاب علوم دينية يعني لا نريد أن نكون فقط عبّاداً، ونربي ذواتنا فقط، وإنما نريد أن نكون قادة لتحقيق مصالح إسلاميّة كبيرة، وليس لأنفسنا، نريد أن نحقق عصمة سياسية للمجتمع، نريد أن نحقق مجتمعاً مهتدياً وليس فرداً مهتدياً.

---

(1) الرعد: ١١.

الفرق بين العابد والعالم، كما تقول الروايات هو أن العابد يريد أن يحقق الهداية لنفسه، بينما العالم يريد أن يحقق أمّة مهتدية.

كيف نحقق إذن العصمة الاجتماعية؟

هذا يحتاج إلى معالجة اجتماعية، ولهذا فإن البعض من طلاب العلوم الدينية حينما يبدؤون في طلب العلوم الدينية يفكرون بطريقة المعالجة الفردية، وتحقيق عصمة فردية لأنفسهم، بينما طالب العلم هو مرشح لتحقيق عصمة اجتماعية للناس.

لو كنت تريد أن تحقق عصمة لنفسك فبامكانك ذلك وأنت تعيش في الغابة، هذا ليس هو المطلوب لطالب العلم، بل المطلوب هو صنع أمّة مهتدية، وتحقيق مجتمع معصوم.

إذا كنا بهدف تحقيق مجتمع معصوم ولو بمستوى من مستويات العصمة، إذن لا بدّ أن نقوم بمعالجة اجتماعية، وحضور اجتماعي وتحقيق إرادة اجتماعية، حينئذ نستطيع أن نصل بمجتمعنا إلى مستوى العصمة السياسية والاجتماعية.

عوامل انتصار العملية السياسية:

ما حدث في الانتخابات التشريعية الأخيرة في العراق يمكن أن نسميه ملحمة وطنية كبرى وتحول عميق _ كان مفاجئاً لغيرنا وليس لنا، بل كان مقروءاً لنا _ حقق انتصاراً لأمّة وعصمة لمشروع ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ كان هناك أعداء يوعدون ويتوعدون ويهددون في الداخل وفي الخارج بشتى الوسائل لكن جاءت العصمة الإلهية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فجرى الأمر أحسن ما يجري، وتحققت عصمة سياسية للمجتمع.

عوامل الانتصار:

هذا الانتصار تحقق بأربعة أسباب كانت وراءه:

السبب الأوّل: سلامة الاتجاه، وحقّانية المطالب، اتجاهات صحيحة ومطالب صحيحة، يعني لا تريد أمتنا ما هو خلاف الحق، ولا ساروا بمسار غير صحيح، بل سلكوا مساراً إنسانياً عقلائياً منطقياً وفق التكليف الشرعي ومنسجم مع الإرادة الوطنية والإسلاميّة.

السبب الثاني: الحضور الجماهيري والإرادة الاجتماعية.

الناس بذلوا الجهد في الصبر، في الاستعداد للتضحية، تحققت إرادة اجتماعية.

السبب الثالث: الحضور العلمائي والحوزوي والمرجعي قبل ذلك ومع ذلك، مع حضور الجمهور قبله. في الحقيقة إننا في هذه الملحمة الوطنية الكبرى، تلاشت عدة مقولات كانت تعشش في بعض أوساطنا.

شبهات حول حضور الحوزة:

توجد مقولات تعيش في بعض أوساطنا الحوزوية سابقاً أو على الأقل هناك مؤهلات لمثل هذه الأفكار:

الفكرة الأولى: أولوية الانصراف العلمي:

نسمع بعض الناس يقول أنا أنصرف للعلم، أما هذه الأعمال مثل التبليغ وإمامة الجماعة والانفتاح على المجتمع هذا يشغلني عن طلب العلم وبالتالي أنا منصرف لطلب العلم، هذه مقولات في الحقيقة كانت موجودة في بعض مجالسنا مقولة الانصراف للعلم محضاً، هذه المقولة الآن تلاشت، الآن طلاب الحوزة الفضلاء اتجهوا للساحة، إذن أصبح هنا علم مع عمل، علم يواكبه العمل.

الفكرة الثانية: الحضور المشروط في الساحة:

كان يقول بعض الطلبة أنا أعمل وأحضر في ساحة المجتمع لكن حضوراً مشروطاً، أنا مستعد لأعمل عملاً مشروطاً، ما هو هذا العمل؟ فقط التوجيه للناس، أنا دائماً مربي والناس عليهم أن يسمعوا ويستجيبوا.

الآن في هذه الملحمة الوطنية وجدنا أن الحوزة العلمية ارتفعت عن هذه المقولة الثانية، بل عملت بنحو مطلق وليس عملاً مشروطاً توجيهياً، بل عملاً فيه توجيه، وفيه مساهمة حقيقية ميدانية، حيث أصبح طالب الحوزة ينتخب ويرشّح نفسه، ويقوم بعمل دعائي لقائمته ونفسه، وهذا ليس عملاً توجيهياً محضاً بل هذه ممارسة عملية، يعني الدخول في منافسة سياسية.

الفكرة الثالثة: نعمل عملاً محدوداً:

هكذا كان يفكر بعض طلاب الحوزة سابقاً، إن عملنا في المجتمع له حد هو المحافظة على وجودنا، وكل عمل يؤدي إلى أن نقع في تضحية، والحوزة والمرجعية تقع في تضحية إذن ذاك العمل نبتعد عنه، نعمل بحدود أن لا يؤدي ذلك العمل إلى تضحية.

هذه المقولة انتهت أيضاً حيث نجد الآن الحوزة العلمية دخلت بعمل غير محدود تنتصر أو لا تنتصر، لا يوجد فرق، كان يمكن للمرجعية الدينية والحوزة العلمية في هذه الملحمة التي صنعتها أن لا تنتصر، يمكن على مستوى الافتراضات العلمية أن تصاب بهزيمة، ومع ذلك فقد عملت.

وهكذا يجب أن نعمل لا بشرط، ويجب أن نعمل مطلقاً.

أوّلاً: عمل وليس فقط انصراف للعلم.

ثانياً: عمل بلا حدود، يعني إذا كان هناك تضحية بالحوزة نحن

نضع خط رجعة، لا، لا يوجد خط رجعة، الحسين عليه السلام هكذا كان.

يعني أن يكون الحسين عليه السلام للدين وليس الدين للحسين، طالب الحوزة للأمّة وليست الأمّة فداء لطالب الحوزة.

إن كـان ديـن محمّـد لـم يـستقم   إلاّ بقتلـي يـا سـيوف خـذيني

بعض القراءات في أوساطنا الحوزوية تفترض أن كل ما يعرض وجودنا إلى خطر إذن ذلك العمل خارج الحدود الصحيحة، المهم أن يكون طالب العلم محفوظاً، أما إذا كان هذا الكيان يتعرض إلى انهيار وتصدّع فنحن نضحّي بالدين في سبيل هذا الوجود، وهذا خطأ كبير، هذا لن يقبله الحسين، ولا يقبله رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام.

اليوم حينما تحققت هذه العوامل الثلاثة (سلامة الاتجاه، الحضور الجماهيري ثمّ الحضور العلمائي) تحققت هذه الملحمة الوطنية الكبرى وهنا جاءت العصمة السياسية، ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[1] أنت تتقدم، وحينئذٍ إذا تقدمت يا رسول الله بفعل غير مشروط ولا محدود حينئذٍ جاء ﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ثمّ تقارن ذلك طبعاً مع إرادة جماهيرية شعبية، لأن المسألة كما قلت مشروطة بوجود الإرادة الجماهيرية.

السبب الرابع: وكان أحد عوامل الانتصار الأخيرة هو الممارسة الأخلاقية الرائعة.

الحقيقة أن الشيعة _ وهنا نخصهم بالذكر _ قاموا بممارسة أخلاقية رائعة في هذه الملحمة، روح المحبة، والتعالي عن الانجرار إلى معارك جانبية، الصمت في هذه الملحمة، صنعوا ملحمة بأخلاق عالية، ما دخلوا في مهاترات

(1) المائدة: ٦٧.

وتمزيـق صـور، وقوميـات، الأخلاقيـات العاليـة فـي مجملهـا التوكـل علـى الله فتحققت هذه الملحمة التي لا سابق لها في تاريخ العراق.

ملحمة عاشوراء:

نحن على أبواب محرم الحرام حيث نشهد ملحمة سنوية.

النـاس أمـام الملحمـة الـسنوية لمحـرم الحـرام علـى ثلاثـة أصـناف، وإنما نتحدّث عن المؤمنين طبعاً:

الـصنف الأوّل: يفكـرون بالاسـتثمار الشخـصي كالبـائع يريـد مـن محـرم الحـرام اسـتثمار المناسـبة لكـن اسـتثماراً تجاريـاً شخـصياً، وهـذا حظـه من هذه التجارة هو ما يربح مادياً.

هذا استثمار حلال وليس حراماً.

الصنف الثاني: يفكرون بالاستثمار الإسلامي، أي يستفيد من هذا المشهد المتوهج في محرم الحرام، ويثري الأمّة بعطاء ديني وبمعلومات مفيدة. وهذا استثمار، ولكن ليس استثماراً شخصياً بل إسلامياً بحيث هو يربي مجموعة من الناس، يعظهم ويرشدهم، هذه مرحلة ومستوى جيد أفضل من الحالة الأولى.

الـصنف الثالـث: يـشاركون فـي صـنع الملحمـة، هـؤلاء يـساهمون ويـصنعون ملحمـة عاشـوراء ولـيس فقـط يـستثمرونها، أي يـدخلون سـاحة الميـدان، ويـدخلون فـي الملعـب فـنحن نـساهم فـي صـنع الملحمـة، كمـا ساهم الحسين عليه السلام في صنع الملحمة، كل واحد بطريقته الخاصة.

نحن طلاب العلوم الدينية أيضاً أمامنا هذه المستويات الثلاثة.

علينـا أن نكـون مـن الـصنف الثالـث، نحـن نـصنع ملحمـة عاشـوراء، مـثلاً هـذه الانتخابـات كلكـم سـاهمتم علـى مـستوى المـساهمة وأعطيـتم

رأياً، لكن المطلوب منا أكثر من ذلك أن نصنع ملحمة انتخابات وليس مجرد أن نعطي رأينا، نضحي بمقدار ما يحتاج الأمر من تضحية.

الآن ملحمة عاشوراء هي قفزة للشيعة، المطلوب أن نصنع مشهداً عاشورائياً عند الناس من خلال ظهورنا وتحريضنا للناس، رسول الله لم يكن يقاتل بنفسه بل كان يحرض المؤمنين، المطلوب منا هو أكثر من أن تكون المسألة استثماراً إسلاميّاً فقط، بل كيف نوجد مسرحاً محرمياً عاشورائياً للأمّة وهذا هو المطلوب، وهذا لا يكون إلاّ إذا صرنا مثل زهير بن القين وعابس ومثل أصحاب الحسين عليه السلام، إذا لم نكن بهذا المستوى سنكون بمستوى مستثمرين، لكن أن أصنع عاشوراء في هذه القرية وفي هذه المدينة بحيث تلتهب حماساً وتنهار جدران النفاق التي بنيت، وتتوهج أنوار الهدى هذا لا يكون ما لم ندخل في الميدان كزهير وعابس فهؤلاء أبطال شاركوا في ميدان القتال باستشهادهم، نحن في ميدان آخر، قتال بالإرادة، بالفكر وبالمواقف السياسية.

طالب العلوم الدينية يجب أن يفكر كيف يدخل ملحمة محرم؟ ومن أي صنف من الأصناف يكون في التعامل مع هذه الملحمة؟ حينئذٍ نستطيع أن ننتظر من الله تبارك وتعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1] العصمة السياسية مشروطة بأن تنزل الأمّة للساحة، نحن نوجه هذه الأمّة، ونحضر معها، نتقدم معها، نمشي في مواطن الخطر التي نخشى على الأمّة منها، نكون درعاً واقياً للأمّة ولدين الأمّة، حينئذٍ تتحقق إرادة اجتماعية وأمّة معتصمة باعتبار ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2] حينئذٍ ينزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

---

(1) المائدة: ٦٧.

(2) آل عمران: ١٠١.

الحسين عليه السلام استشهد ومات قتيلاً لأن الأمّة لم تتفاعل معه، فأصحاب الحل والعقد يومئذٍ لم يتحركوا في الأمّة، ولا صنعوا الحل، بل بقوا متفرجين.

الحسين عليه السلام كان يحتاج إلى صنّاع ملاحم وليس إلى رواة، ولهذا فإن الحسين عليه السلام وهو أوّل العارفين بأحاديث جده صلى الله عليه وآله لكن لم يتحول إلى راو للحديث بل وضعه كان وضع القائد.

نحن اليوم في الحقيقة هل موضعنا موضع الرواية فقط، نذكر روايات وتوجيه وهو أمر حسن لكن لا يجوز أن نقف عنده، المطلوب منا أكثر من ذلك، أن نصنع الإرادة الجماعية، وأن نكون مساهمين في صنعها كما صنعها رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(٢/ صفر الخير/ ١٤٢٦ هـ)

المحاضرة الرابعة:

الإسلام والمدنية الحديثة

موضوعات المحاضرة:

١ _ فلسفة التبليغ.
٢ _ الطريق إلى معرفة النفس.
٣ _ العوالم ثلاثة.
٤ _ حاكمية الإسلام.
٥ _ اشكالات معاصرة على حاكمية الإسلام.
٦ _ أصول المدنية الحديثة.
٧ _ القراءة الصحيحة لأصول المدنية الحديثة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبداً وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.[1]

كما اتفقنا عليه أن هذا اللقاء ليس بحثاً علمياً ودرسياً وإنما أعد لمحض اللقاء ثمّ التداول فيما ينبغي ويلزم.

هذا اللقاء أيضاً وعلى ما جرى التنظيم المسبق له أن يكون في حديثين ومحورين:

الحديث الأوّل: إشارات قرآنية وعلمية.

الحديث الثاني: فيما هو ساخن في الساحة في مجمل أوضاعنا السياسية.

ونحن بحمد الله نجتمع بعد أن قطعنا مراحل بنجاحات كان الله تبارك وتعالى وراءها، أصل الانتخابات ثمّ فوز القائمة الصالحة على مستوى الجمعية الوطنية أو على مستوى مجالس المحافظات ثمّ تمامية هذه العملية بسلام وبدون معوقات تذكر رغم التهديدات.

نحن نعيش وقد خلّفنا وراءنا مجموعة هذه النجاحات والحمد لله وببركة المرجعية الدينية والحوزة العلمية وأنتم تستذكرون الأيام الماضية والأحاديث قبل الانتخابات والتهديدات وما أحاط بالعملية.

أنتم تجتمعون وهذه النجف العامرة المباركة الآمنة المستقرة وقد عادت

---

(1) النور: ٢١.

حيويتها والحوزة العلمية بعد أن أنذروا قومهم والآن عادوا ليدرسوا، فهذه في الحقيقة رحمة الله تبارك وتعالى نزلت على العباد وعلى الشعب العراقي وعليكم وعلينا، نحن هكذا نقرأ الواقع الذي نعيشه نرى الرحمة من فوقنا وأمامنا ومن خلفنا ومن بين أيدينا وبذلك فليفرح المؤمنون.

البحث الأوّل: مصدر الهداية:

الحديث الأوّل: حديث قرآني علمي نفتتحه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبداً وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ﴾.[١]

هـذا المعنى بصياغة مقاربة أيضاً يتكرر في أكثر من آية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.[٢]

ومثلها أيضاً: ﴿ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.[٣]

هـذه آيات في سياق واحد وهي باتجاه التركيز على فكرة واحدة سنقف عند هذه الفكرة ودلالات هذه الآيات.

حديث الإفك:

لكن موضع النزول من هذه الآية من سورة النور ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ **هو حديث الإفك، هذا ذيل الآية أما مطلع الآية هكذا** ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[٤] **وهذه مسبوقة بآية أخرى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةَ

---

(1) السابق.
(2) النساء: ٨٢.
(3) البقرة: ٦٤.
(4) النور: ٢١.

فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] **هذه أيضاً جاءت بعد قوله تعالى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾،[2] **إذن الحديث في هذه الآيات هو في تداعيات قصة الافك.**

وهناك طبعاً روايتان، رواية أهل السنة تميل إلى رأي، والرواية الشيعية تميل إلى رأي آخر. على أن كلتا الروايتين فيهما اضطراب كبير يكاد الإنسان لا يطمئن إلى دقة الرأي الأوّل أو الرأي الثاني.[3]

روايات أهل السنّة تقول إن آية الإفك نزلت في عائشة كما هي تروي ذلك. وكيف أنها تخلفت عن الركب وجرى ما جرى ثمّ أتُّهمت ثمّ نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...﴾.

الرواية الشيعية تقول إن هذه القصة يعني حديث الإفك نزلت في مارية القبطية وهي الجارية التي وهبها ملك مصر المقوقس لرسول الله ﷺ وهي امرأة صالحة وهي أم إبراهيم، الرواية الشيعية تقول إن هذه الآية نزلت في مارية القبطية حين أتُّهمت في عرضها، وعلى كل حال كان هذا هو موضع النزول ولسنا نريد التحقيق منه فعلاً.

لكن دلالة الآية واسعة لا تختص بموضع النزول كما تعرفون في قواعد التفسير حيث يقال إن مورد النزول لا يخصص ولا يقيد إطلاق الآيات.

فالآية هكذا تقول: ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ

---

(1) النور: ١٩.

(2) النور: ١١.

(3) من الملاحظ أن هناك من مترجمي الصحابة ذهب إلى أن علة الافك الذي تعرضت له السيدة مارية هو الغيرة منهابسبب ما وهبها الله تعالى من حسن الخلقة.

أَحَدٍ أَبَداً﴾ من كل البشرية وجميع أفراد جنس الإنسان، نبياً أو غير نبي، لولا فضل الله ورحمته ما كان لأحدٍ أن يزكو.

من الواضح على مستوى الدلالة أن هذه الآية القرآنية دالة على معنى صريح وحاسم وهو انحصار الهداية بيد الله تبارك وتعالى دونما استثناء ﴿ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾، في آية أخرى: ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾[1] في آية: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.[2]

نحن إذ نتحدّث عن هذا المحور محور التزكية، ونختار هذه الآيات لاعتبار أن وجود الحوزة العلمية، ووجود طالب العلم إنما هو للتزكية، لتزكية المجتمع، للهداية، فالحديث عن الهداية وعن التزكية لأنه يتعلق بشأن الحوزة العلمية وما هي وظيفتها.

انحصار الهداية:

هذه الآية واضحة في انحصار الهداية بيد الله تبارك وتعالى فقط، ولا يمكن أن تكون الهداية من غير الله تعالى. هذا المعنى طبعاً يتكرر في العديد من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ﴾.[3]

أو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ﴾.[4]

---

(1) البقرة: ٦٤.
(2) النساء: ٨٣.
(3) الأعراف: ٤٣.
(4) الإسراء: ٩٧.

إذن هناك انحصار ولا يمكن لأي كائن إنس أو جن أن يهدي ذلك الذي أضله الله تبارك وتعالى.

بعد أن نكون شخّصنا دلالة هذه الآية، هناك أكثر من بحث.

فلسفة التبليغ:

هناك بحث في المقدمة أذكره وأطويه سريعاً، أنه إذا كانت الهداية منحصرة بالله تبارك وتعالى، إذن ما هو دور علماء الدين؟ وما هو عمل الأنبياء والأئمّة والهداية هي من الله تبارك وتعالى؟

نحن لا نستطيع أن نغيّر ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ سواء تركته وحيداً بلا تبليغ أو بلّغته عشر سنوات إن لم يكن هناك قرار إلهي بالهداية ما عسى ينفع عملنا؟ وإن كان هناك قرار إلهي بالهداية ما ضرّ لو تخلّفنا عن العمل؟

هذا سؤال لا نريد أن نذهب بعيداً في الجواب عنه، ولكن خلاصة الجواب أن الله تبارك وتعالى حسب حكمته، جرت سنّته أن يعمل في الوجود من خلال أسمائه، الله تبارك وتعالى يهدي باسم الهادي، يرحم باسم الرحيم، يرزق باسم الرازق، وهكذا هو المحيي والمميت فمن يموت مات باسم الله وهو المميت، ومن يحيى يحيي باسم الله وهو المحيي.

هذه الأسماء هي عبارة عن وسائط التأثير، الله تبارك وتعالى من مقام الأحدية كما يصطلح عليه العرفاء، ذاك مقام الأحدية المطلق اللامتناهي يفعل فعله في الوجود من خلال الأسماء، من خلال هذه الصفات الإلهية، حينئذٍ من أسمائه تبارك وتعالى الهادي، كما هو الشافي والمعافي هو أيضاً الهادي، هادي العباد، هذه الهداية للعباد أيضاً تمرّ عبر

أسباب الهداية، إن كان السبب هو مبلّغ ديني، أو موعظة حسنة، أو صديق، أو مصيبة، أو ابتلاء، هذه أسباب الهداية، أو نحن طلاب العلوم الدينية وهكذا بالنسبة للأنبياء والهداة، هؤلاء هم أسباب الهداية ليس على أساس أن الهداية هي فعلهم بل هم سبب لها ولا يصطدم ذلك مع انحصار الهداية بالله تعالى، الشفاء أيضاً منحصر بالله لكن الدواء سبب، اسم الله تعالى الشافي والمعافي يؤثر عبر هذه الأسباب وهي أسباب متعددة، هذا أو ذاك، على كل حال أن يتحرك العالم الديني أو يتحرك نبي من الأنبياء للهداية هذا لا يصطدم مع حقيقة انحصار الهداية بالله تبارك وتعالى، ولهذا فإن القرآن الكريم يقول لنبيه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[1] أنت لست المطلق، أنت وسيلة لكن الله يهدي من يشاء.

نحن طلاب علوم دينية نضع أنفسنا أدوات لاسم الله وهو الهادي، طالب العلم يضع نفسه أداة لتفعيل وتحقيق اسمه تعالى في الوجود على الأرض وهو الهادي، بدون أن يكون هناك اصطدام أو تقاطع أو معارضة، هذا بحث بالحقيقة نطويه في المقدمة.

ما هو طريق التزكية؟

لكن البحث المهم الذي نريد أن نقف عنده في هذه الآية ﴿وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ هو السؤال ما هو طريق التزكية؟

القرآن الكريم صريح في أن طريق التزكية هو سلامة القلب وصفاء النفس، يعني تطهير النفس الإنسانية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها * وَقَدْ

(1) القصص: ٥٦.

خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾،[1] ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾،[2] **وكما يقول الحديث الشريف: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».[3]**

لا بدّ من معرفة النفس:

هذه التزكية للنفس أيضاً تحتاج إلى معرفة بالنفس، ولهذا كلما كان الإنسان أكثر معرفة بنفسه، كان أقدر على تزكيتها، من قبيل الطبيب كلما كان أكثر معرفة بواقع المرض والجرثومة والمكروب يكون أقدر على قتله وتطهير البدن منه، كلما يكون طالب العلم العارف العالم أعرف بالنفس البشرية وهويتها يكون أقدر على الامساك بها، إذا استطاع أن يكشف حقيقة النفس بجوهر العبودية، حينئذٍ يكون قد عرف الله أيضاً بجوهر الربوبية، لأن هذه النفس الإنسانية إذا اكتشفها الإنسان في عبوديتها يكون قد اكتشف الربوبية لله تبارك وتعالى، وحينئذٍ يقول العرفاء والعلماء بالله إن العبادة لا تغني ما لم تصل إلى النفس والقلب، وما لم نعرف النفس أيضاً لا يمكن أن نصل ونحقق ذاك الصفاء المطلوب.

الطريق إلى معرفة النفس:

الآن كيف نعرف هذه النفس؟

العرفاء والعلماء يقولون إن الانقطاع عن كل المظاهر والشكليات والحدود، أن ينقطع عما هي المصالح الوقتية، الأنانيات الوقتية، القضايا الشكلية

---

(1) الشمس: ٩ و١٠.

(2) الشعراء: ٨٩.

(3) البحار ٢: ٣٢.

يستطيع من خلال ذلك أن يكتشف الإنسان عمق وجوهر نفسه. وحينئذٍ يستطيع أن يعرف الله تبارك وتعالى «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

وهذا يحتاج إلى رياضة ويحتاج إلى تعب وجهد، ولهذا فإن الإسلام يدعو إلى الخلوة مع الله تبارك وتعالى، حتّى ينقطع عن كثير من المشاكل التي لا تنتهي، الانقطاع في اليوم خمس مرات على الأقل في الصلوات الواجبة، سنوياً اعتكاف، حج بيت الله الحرام، صيام شهر رمضان، هذه كلها أنماط للانقطاع لهدف معرفة النفس حتّى نصل إلى العمق والجوهر ونعمل على تطهيره بعدئذ.

الإمام الباقر عليه السلام يقول: «لا يكون العبد عابداً لله حق عباد عبادته حتّى ينقطع عن الخلق كلهم، حينئذٍ يقول الله تعالى هذا خالص لي فيقبله بكرمه».[1]

الانقطاع عن الخلق بالطريقة الإسلاميّة طريقة أهل البيت عليهم السلام ليس معناه أن ننعزل عن الناس، بدليل أن أهل البيت أوصوا بالمخالطة والمعاشرة، إذن المقصود بالانقطاع ليس هو الانقطاع البدني بل الانقطاع القلبي، المزيد من الاشراف على النفس وحديث النفس وحاجتها الحقيقية.

حينئذٍ إذا استطاع الإنسان أن يكتشف جوهر النفس وما تريده، يستطيع أن ينفتح على عالم آخر وهذا هو ما يهمنا الحديث فيه من بُعدين سنصل إليهما بإذن الله.

هل يمكن الاتصال بالنشأة الأخرى؟

هناك سؤال وهو: أن الأنبياء اتصلوا بالنشأة الأخرى، الأنبياء عبروا حدود الدنيا وهم في الدنيا، اتصلوا بالسماء، اتصلوا بالغيب، اتصلوا بالنشأة الأخرى، غير هذه النشأة كما هو الإنسان صاحب العينين يرى، أما الأعمى فإنه لا يرى، لماذا؟

---

(1) عدة الداعي: ٢١٩، عنه البحار ٦٧: ١١١.

تستطيع أن تقول إن الأعمى لا يعرف منظر هذه النشأة، مقولة المنظر لا توجد عنده، لكن أنا وأنت رزقنا الله تعالى البصر والنظر، أصبحنا نطّلع على شكل هذه النشأة فضلاً عن الأمور الأخرى، الأنبياء رزقهم الله تعالى عيناً يبصرون بها النشأة الأخرى، وحينئذٍ هناك سؤال علمي وهو أن هذا الارتباط بالنشأة الأخرى هل هو اختصاصي أم هو اكتسابي؟

يعني ان النبي ﷺ وسائر الأنبياء الذين اتصلوا بالنشأة الأخرى. هل كان هذا على سبيل الاختصاص ولا يمكن أن يتعدى رقم مائة وأربع وعشرين ألف نبي؟ هؤلاء اطلعوا على النشأة الأخرى ولا يمكن أن يزيد على ذلك واحد، لأن هذه القضية اختصاصية منحصرة، أم أنها قضية اكتسابية يمكن أن يصل لها وصي من الأوصياء أو ولي من الأولياء ليس على أساس النبوة لكن على أساس إنكشاف النشأة الأخرى لعابد من العبّاد وزاهد من الزهّاد؟

هل الاتصال بالنشأة الأخرى ومشاهدتها بشهود حقيقي وليس البصري، هل هذا من اختصاص الأنبياء؟ اختصاصي أو اكتسابي؟

يقول العلماء انه اكتسابي وليس اختصاصياً، فلمثل عليّ عليه السلام والأئمّة الأطهار والزهراء عليها السلام وأمثال هؤلاء وبنسب مختلفة يمكن أن تكشف لهم الحقيقة. فهي قضية اكتسابية، يمكن لأولياء الله أيضاً أن يصلوا إلى مستوى من المستويات، إلى مشاهدة الحقيقة الكبرى، النشأة الكبرى ما وراء هذه الدنيا، كما يكون لك رؤى جميلة في المنام واتصال بالنشأة الأخرى في عالم المنام، كيف أن أحدكم أحياناً يرى في المنام النبي ﷺ أو الإمام المعصوم؟ هذا يعني انه اتصل بالنشأة الأخرى لكن عبر المنام وليس اليقظة. وهذا المنام هو درجة من درجات الحقيقة، وعلى كل حال فإن الاتصال بالنشأة الأخرى ممكن لكن يجب أن نبحث عن أسبابه، كيف نتصل بالنشأة الأخرى طالما هي اكتسابية؟

الأواني الثلاث:

الحديث هكذا يقول إن رسول الله ﷺ في إسرائه إلى المسجد الأقصى _ وكان جبرائيل عليه السلام معه _، يقول رسول الله ﷺ: «أتاني الخازن بثلاثة أواني» هذا كله في عالم النشأة الأخرى وليس في عالم هذه النشأة يقول: «أتاني بثلاثة أواني، إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء وسمعت قائلاً يقول: إن شرب الماء غرق وغرقت أمّته، وإن شرب الخمر غوي وغويت أمّته، وإن شرب اللبن هُدي وهُديت أمّته».[1]

يقول رسول الله ﷺ: «فأخذت إناء اللبن وشربته.

سألني جبرائيل: ما رأيت؟ قلت له: كيت وكيت، فقال: هُديتَ وهُديت أمّتك».

طبعاً هذا عالم النشأة الأخرى، اللبن هو رمز في الحقيقة لمعدن الهداية، أكثر من هذا لا نستطيع أن نفهمه.

العوالم ثلاثة:

هنا العلماء يقولون إن العوالم ثلاثة:

١ _ عالم الطبيعة هذا الذي نحن فيه وهو عالم الدنيا، عالم المادة.

٢ _ وهناك عالم فوق هذا العالم. وهذا انعكاس لذاك مثل الظل، هذا العالم الذي نحن فيه عالم الطبيعة هو انعكاس لعالم أكبر منه، أوسع منه، أكثر تجرداً منه. يسمّيه علماؤنا عالم المثال وفي ذلك العالم تأتي الخيالات والرؤى والأحلام.

٣ _ ثمّ هناك عالم ثالث أوسع من عالم المثال وهو عالم التجرد

---

(1) تفسير القمي ٢: ٤؛ بحار الأنوار ١٨: ٣٢٠/ ح ٣٤.

والعقل المجرد، وهو عالم الملائكة، جبرائيل والمجردات العليا، هذا بحث من المفيد لطلاب العلوم الدينية أن يعيشوا مع هذه المدرسة مع فهمنا للواقع المحيط بنا.

خزائن في النشأة الأخرى:

الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.(١)

الآن لو سأل سائل من عامة الناس يقول لك فسّر لي هذه الآية، هذه الأشجار خزائنها عند الله تبارك وتعالى وهي تنزل من خزائن واسعة لا تنفد، خزائن الأشجار، وأخرى خزائن الأثمار، وأخرى الأنهار، وخزائن الإنس لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزائِنُهُ﴾ **كل شيء تضع يدك عليه في الدنيا تقول هذا له خزانة، لكن ليس بالضرورة هي كخزانة مادية كحوض كبير، ليس هذا المقصود، هذه البحار الضخمة إنما هي قطرات من تلك الخزانة، إذن هذا العالم عالم الطبيعة فوقه عالم آخر هذا امتداد من ذاك، وهذا العالم ينفد وذاك العالم لا ينفد** ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾.(٢)

لكل شيء وجهان:

على هذا الأساس نستطيع أن نقول كما يقول أهل المعرفة لكل شيء وجهان، وجهٌ خَلْقي ووجهٌ إلهي، أنت كإنسان لك وجه خلقي أنت

---

(1) الحجر: ٢١.

(2) النحل: ٩٦.

فلان بن فلان، ابن هذه الدنيا لك محدودياتك الخاصة، هذا الوجه الذي نقرؤك به، نعرفك من خلال هذا الوجه المكشوف للخلق.

لكن هناك وجه إلهي أنت في الحقيقة بما أن خزائنك عند الله تعالى وما عند الله باق، هذا الوجه الخلقي الذي تستقبل الناس به ويستقبلوك هذا يموت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾[1] ماذا يبقى؟ يبقى وجه ربك، فأنت بذاك الوجه الإلهي باق وهذا هو معنى «خلقتم للبقاء ولم تخلقوا للفناء» وهكذا كل شيء بما في ذلك الوحوش ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[2] لماذا؟ لأن كل شيء له خزائن عند الله ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾[3] إذن الحري بنا أن نبحث عن ذاك الوجه الإلهي.

﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[4] أينما تولوا وجوهكم، أينما تتجهوا، لو كشف لك الغطاء وتعمقت في النظرة، لو ابتعدت عن الحدود والشكليات لعثرت على ذلك الوجه الإلهي في كل شيء ومع كل شيء.

لاحظوا يا أخوة: أنت إنسان يمكن أن تقرأ وتعرف نفسك بأنك إنسان، لكن انزل إلى عمق هذا الإنسان، في الحقيقة هو نوع لجنس أوسع منه لا توجد به هذه الحدود والخصائص، الحياة والقدرة، أليس عندك قدرة؟

الإنسان مجموعة حياة وقدرة وعلم وادراكات وما شاكل، لو نزعت الثوب واللحم والبدن والشعر والبشرة، وبحثت عن عمق جوهرك

---

(1) الرحمن: ٢٦.
(2) التكوير: ٥.
(3) النحل: ٩٦.
(4) البقرة: ١١٥.

أنت إنسان يعني الحياة، يعني القدرة والجمال والكمال، ويعني الإرادة، لكن هذه الإرادة والجمال هي الآن مطروحة بحجمك المادي، مقيداً بهذه العين وبهذا السمع وبهذا الوجود الصغير، أما لو جردت الأمر وتركت هذه القيود ماذا سيظهر؟

سوف تصل للعمق وهو القدرة المطلقة، الحياة المطلقة، والادراك المطلق، وهذا هو الذي يبقى، ما عندكم من بدن وبشرة وشعر وما شاكل هذا يفنى، الذي يبقى هو جوهر الإنسان هو ذلك الوجه الإلهي، إذن «من عرف نفسه فقد عرف ربه» إذا عرفنا الوجه الإلهي في واقعنا وان الإنسان خليفة الله وهو ومضة من نور الله وحياة الله وعلمه، نفخة كما يعبر القرآن ﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾[1] هذه النفخة هي واقع النفس الإنسانية وإذا استطاع الإنسان أن يتجاوز القيود التي تحيط به، والأنانيات الجزئية في ذاته فسوف يصل إلى معرفة تلك النفخة ومصدرها الإلهي. وحينئذٍ يتحقق من «عرف نفسه فقد عرف ربه».

رسول الله ﷺ وصل إلى هذا المقام عبر الاجتهاد والجد والعبادة، العلماء يقولون إن الإنسان يجب أن يسير بهذا الاتجاه وهو قادر على أن يصل إلى النشأة الأخرى التي هي جوهر النفس الإنسانية.

قصة شيبة الهذلي:

هناك شخص جاء لرسول الله ﷺ اسمه شيبة الهذلي.

قال: يا رسول الله علّمني دعاء ينفعني للآخرة.

فقال رسول الله ﷺ: «قُل بعد كل صلاة: اللهم اهدني من عندك، وأفض عليّ من فضلك، وانشر عليّ من رحمتك، وأنزل عليّ من بركاتك».

---

(1) الأنبياء: ٩١.

هذا الأعرابي أخذ الكلمات وانصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لو عمل بها ولم يتركها عامداً فتحت له أبواب الجنّة الثمانية يدخل من أيها شاء».

الحقيقة أيها السادة الكرام نحن بحاجة إلى الاقبال على عالم التزكية، على معرفة أنفسنا أوّلاً، بعيداً عن الأنانيات والشكليات التي تزول ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ لا تبقى التعينات الجزئية لتلك النفخة الإلهية المتجسدة في فلان بن فلان، بل يبقى ما هو الوجه الإلهي، ما هو لله تبارك وتعالى، والبقية تراب ولهذا ﴿يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾.[١]

الحقيقة أيها السادة الكرام ونحن يمضي بنا العمر يوماً بعد يوم يجب أن نكشف حقائق، يجب أن نرتفع، وإلاّ فمن الحيف أن يمضي هذا العمر ونحن لم نرتفع ولا شبراً واحد، ويبقى الإنسان ابن الدنيا ومكباً على الدنيا ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[٢]

نسأل الله أن يرزقنا الهداية والزكاة.

البحث الثاني: حاكمية الإسلام:

هنا بحث ساخن في أيامنا هذه اسمه حاكمية الإسلام أو حاكمية الدين الإلهي وخاصة في العراق. والمجلس التشريعي مقبل على تدوين الدستور، بودي أن أذكر هنا مقدمة، هذا الدستور يجب أن نسجل ما هو موقع الإسلام فيه؟

وهنا تأتي مسألة حاكمية الدين الإسلامي.

إن الدستور الذي يكتبه المجلس التشريعي بالأصل هو من مهمة

(1) النبأ: ٤٠.

(2) الملك: ٢٢.

رجال العلم، من مهمة رجال التشريع. وطالب الحوزة العلمية هو رجل تشريع يعني قانوني، يعني حقوقي، لكن هو حقوقي في الشريعة الإسلاميّة، قانوني في الشريعة الإسلاميّة، أنتم رجال التشريع في الحقيقة وحينئذ يأتي السؤال عن حاكمية التشريع الإلهي.

بعدان في دراسة الموضوع:

حاكمية التشريع الإلهي هذا الموضوع يُدرس ببعدين:

مرة يدرس ببعد سياسي ومن منظور سياسي، ما هي المصالح في العراق فعلاً، ما هي الموازنات السياسية فعلاً، أصلاً هل نستطيع أن نثبت حاكمية الإسلام أو لا نستطيع؟

المصالح ماذا تقتضي؟ الأديان الأخرى كيف نتعامل معها؟ هذا بعد سياسي، يعني كيف نتحرك وفق الموازنات الخارجية؟ قد نتقدم خطوة هي نصف الطريق وليست هي كل الطريق. هذا وفق الموازنات الخارجية، هذا بحث سياسي وهذا ما سيقوم به المجلس التشريعي، كم سيثبت للإسلام من حاكمية؟ حاكمية مطلقة، مائة بالمائة، أقل أو أكثر هذا يخضع للموازنات السياسية.

لكن الآن أنا بصدد بحث هذا الموضوع من منظور فقهي وليس من منظور سياسي، نحن قبل أن نصل للمجلس التشريعي. نحن الآن كحوزة وكطلاب علوم دينية وكرجال قانون إسلامي، رجال تشريع إسلامي، ماذا نعتقد في مسألة حاكمية الإسلام، لو أخذنا القضية مجردة عن الموازنات والاحتكاكات السياسية. هذا نسميه المنظور الفقهي للمسألة.

في هذا المنظور توجد لدينا ثلاثة مبادئ مفروغ منها في دراستنا التشريعية الحوزوية:

المبـدأ الأوّل: مبـدأ «حـلال محمّـد حـلال إلـى يـوم القيامـة، وحـرام محمّد حرام أبداً إلى يوم القيامة».[1]

يمكـن أن نـصطلح علـى هـذا المبـدأ بـ (خاتميـة الرسـالة الإسـلاميّة) ويمكن أن نصطلح عليه بـ (ديمومة التشريع الإسلامي).

حينما نقول حلاله حلال وحرامه حرام إلى يوم القيامة يعني ليس خاصاً بالقرن الأوّل والثاني والعاشر وما شاكل، وإنما يمتد مع امتداد البشرية.

المبـدأ الثـاني: المفـروغ منـه فـي دراسـتنا فـي التـشريع الإسـلامي هـو مبـدأ (شـمولية الإسـلام لكـل منـاحي الحيـاة) ان الإسـلام شـامل لكـل منـاحي الحيــاة، الاقتــصادية، الأســرية، الأخلاقيــة والــسلوك الشخـصي، يعنــي لا توجـد قـضية مـن القـضايا ومفـردة إنسانية هـي جـزء مـن حركـة الإنسان فـرداً أو مجتمعـاً دون أن يكـون للإسـلام فيهـا رأي وموقـف وتـشريع، هـذا نـسميه بـ (مبـدأ شـمولية الإسـلام) وهنـا أنـتم مطلعـون علـى النـصوص فـي كتـب الحـديث، وسـائل الـشيعة وفـي غيـر وسـائل الـشيعة أنـه مـا مـن شـيء إلاّ ولله فيـه حكـم حتّـى أرش الخـدش،[2] الخدشـة البـسيطة الله تعـالى لـه فيهـا حكـم «لـيس شـيء يباعـدكم مـن النـار إلا وقـد ذكرتـه لكـم، ولا شـيء يقـربكم مـن الجنّـة إلاّ وقـد دللـتكم عليـه»[3] كـل شـيء فـي حركـة الإنـسان فـإن الإسـلام له فيه رأي هذا هو معنى شمولية الإسلام.

---

(1) أنظر: الكافي ١: ٥٨؛ الفصول المهمة ١: ٦٤٣/ ح ١/١٠١٥.

(2) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما خلق الله حلالاً ولا حراماً إلا وله حد كحد الدور، فما كان من الطريق فهو من الطريق، وما كان من الدور فهو من الدور، حتّى أرش الخدش وما سواه، والجلدة ونصف الجلدة. أنظر: الكافي ١: ٥٩/ ح ٥؛ مستدرك الوسائل ١٨: ١١/ ح ٧/٢١٨٥٤.

(3) مستدرك الوسائل ١٣: ٢٩/ ١٠/١٤٦٥٢؛ بحار الأنوار ٧٤: ١٨٥.

المبدأ الثالث: الذي لا ننشغل به ولا ندرسه، باعتباره مسألة بديهية في الحوزة هو مبدأ (حرمة الاجتهاد مقابل النص) بمعنى انه إذا جاء نص من الرسول ﷺ أو من الإمام المعصوم أو من القرآن الكريم، حينئذٍ يحرم الاجتهاد مقابل النص. هذه هي مؤاخذتنا على أبناء أهل السنة انهم عملوا بالقياس والاستحسان وما شاكل ذلك. وكان هذا بداية الانحراف بعد رسول الله ﷺ وبداية الانحراف نشأت من التجاسر على النص، هكذا قال النبي، وهكذا أنا أقول وهذه هي أصل المشكلة، مبدأ الاجتهاد في مقابل النص.

نحن نعتقد سواءاً في قضية فقهية أو في قضية سياسية، أنّ الابتعاد عن أهل البيت عليهم السلام إنما هو اجتهاد في مقابل نص الرسول، الابتعاد عن الأحكام الشرعية مثل تحريف الأذان، تحريف الصلاة هو اجتهاد في مقابل النص وخضوع للمذاقات وهذا في فقهنا التشريعي نسميه اجتهاداً مقابل النص.

هذه مبادئ مفروغ منها في دراستنا ونحن الآن لسنا بصدد الاستدلال عليها.

إشكالات معاصرة على حاكمية الإسلام:

النقطة المهمة التي أريد الإشارة إليها وبحثها معكم هي وجود إشكالات معاصرة على حاكمية الإسلام.

نحن حين نتحدّث عن حاكمية الإسلام من البعد الفقهي لدينا هذه المبادئ:

أوّلاً: الإسلام دائمي.

ثانياً: شامل لكل مناحي الحياة.

ثالثاً: لا يجوز الاجتهاد في مقابل النص.

معناه نحن نعتقد فقهياً بحاكمية الإسلام كما في المجال الأُسري العائلي، الأخلاقي العشائري، الاقتصادي والسياسي.

ان معنى هذه المبادئ التي ذكرناها بلغة حوزوية هو حاكمية الإسلام أبداً إلى يوم يبعثون، في المجال السياسي أيضاً وفق هذه المتبنيات كخطوط عريضة.

لكن هناك اشكالات معاصرة بلغة معاصرة، بلغة أخرى غير لغة (الاجتهاد مقابل النص) والاستحسان والرأي والمذاقات التي برزت يومذاك بهذا الشكل.

الآن برزت بشكل آخر بمصطلحات أخرى يستخدمها أصحاب الحداثة والتجديد، لكن التجديد المحرّف وليس التجديد الصحيح، هؤلاء لديهم اشكالات يطرحونها. أنا أذكر من جملة اشكالاتهم على حاكمية الإسلام اشكالاً:

الاصطدام مع المدنية الحديثة:

يقول هذا الاشكال: إن حاكمية الإسلام تصطدم مع المدنية الحديثة، هذا الاشكال نسميه بـ (الاصطدام مع أصول المدنية الحديثة).

أصول المدنية الحديثة:

المدنية الحديثة ونحن جميعاً في هذا العصر أبناء هذه المدنية الحديثة شئنا أم أبينا، هذه الحاكمية للإسلام تصطدم مع المدنية. هذا هو الإشكال الأوّل فلنقف عند هذا الإشكال قليلاً.

يفترضون أن المدنية الحديثة تعتمد على أربعة أصول:

الأصل الأوّل: رفض التعبّد:

هذا الأصل يعني ان ابن المدنية الحديثة وابن هذا الزمان لا يقبل شيئاً

بدون أن يعرف خلفياته وأسراره، لا يقبل أن تقول له هكذا جاء في النص وهكذا قال الشرع وهكذا قال الفقهاء، هذا غيب، ابن المدنية الحديثة يطلب معرفة الأسباب والدلائل، كما هو في الفيزياء والكيمياء والطب وما شاكل ذلك، اليوم الإنسان يريد دليلاً، حينما يسأل عن شيء يريد جواباً، لا يمكن أن تقول له قال الأولون، أو قال الفلاسفة، هذا لا يقبل به الإنسان الحديث.

اليوم المدنية الحديثة مبنية على أن لكل سؤال جواب، يعني اثارة روح الاجتهاد عند الإنسان، هذه خصوصية نسميها بـ (رفض روح التعبد) وهم يفترضون أن هذا ركن من أركان المدنية الحديثة وأصل من أصولها.

الأصل الثاني: البحث عن المنافع الفعلية:

المدنية الحديثة تنتظر منافع فعليّة لكل مشروع أو قانون أو عمل أو نظرية أو فلسفة أو معتقد، وترفض انتظار نتائج ايجابية لآجال غير معلومة، أو فيما بعد الدنيا.

حينما تقول لي استعمل هذا الدواء سينفعك بعد الموت، أقول لك يا أخي أنا الآن مريض احتاج إلى دواء وأنت تعطيني دواءاً وتدعي أن فائدته بعد الموت، أو فائدته تظهر في أولادي. أنا لا أقبل هذا الكلام، أنا أريد شيئاً بالفعل، أو بعد سنة أو بعد عشر سنين لكن على أن يخضع للتجربة. ما عدا ذلك فإن المدنية الحديثة لا تقبل وعوداً مؤجلة.

الأصل الثالث: البحث عن الهدوء:

تقول المدنيّة الحديثة إن الهدف دائماً عند الإنسان في مجمل حركته هو البحث عن الهدوء النفسي، إن هذا الإنسان يريد هدوءاً نفسياً مهما كان الاسم، هو يبحث عن راحته يعني ما ينسجم مع تمايلاته. المدنية الحديثة تقوم على أصل ثالث هو أن حركة الإنسان لما كانت دائماً باتجاه تحقيق الهدوء النفسي،

فكل شيء يحقق هذا الهدوء النفسي فهو يتوافق مع المدنية الحديثة، وحينئذٍ يجب أن نعرض كل فكرة أو مشروع أو تشريع أو عبادة لهذا المبدأ والأصل، فإن كان يحقق هدوءاً نفسياً للإنسان فهو مقبول، وإلاّ فهو يتقاطع مع حركة الإنسان الصحيحة نحو الهدوء والراحة النفسية.

الأصل الرابع: هو القبول بالتطور العلمي الحديث:

من الكهرباء إلى وسائط النقل، إلى الأدوية، إلى وسائل الترفيه، إلى أساليب الإدارة الاجتماعية والسياسية، إلى نتائج علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وما شاكل ذلك، فكل هذا يجب أن تقبله، أما إذا لم تقبل به فأنت إنسان متحجر.

هذه أربعة أصول للمدنية الحديثة.

وحينئذٍ يقولون إن حاكمية الإسلام تصطدم مع أصول المدنية الحديثة، أنتم في الإسلام تتقاطعون مع الهدوء النفسي، فالصوم والصلاة والحجاب هو إبعاد عن سبل الهدوء النفسي.

أنتم في نظرية خاتمية وحاكمية الإسلام تصطدمون مع نظرية رفض التعبد، اليوم الإنسان يرفض التعبد بالقوالب الفكرية، وأنتم تقدمون قوالب فكرية معبّدة لهذا الإنسان.

أيها العلماء تريدون من الناس التعبد، بينما المدنية الحديثة تريد من الإنسان أن يبدع ويجتهد ويتحدّث كما يشاء ويعمل كما يشاء، بينما نسق حديثكم أن أعمل هكذا لأن رسول الله ﷺ هكذا عمل، فأنتم باتجاه التعبد، بينما المدنية الحديثة باتجاه التحلل من القوالب الجامدة وغير الواضحة.

وثالثاً أنتم لا تقدمون منافع آنية في طرحكم «الصوم جُنة من النار». متى؟ بعد الموت. من قال؟

المدنيـة الحديثـة تقـول هـذا الكـلام هـو نـسيئة أنـا أريـد أن تعطينـي شـيئاً نقـداً فعليـاً، تعطينـي الـصوم كيـف ينفعنـي بالفعـل هـذا أقبـل بـه، أمـا تعطينـي وعـوداً لمـا بعـد المـوت أنـا لا أدري مـا سـيكون بعـد المـوت، طبعـاً هذه لغة المدنية الحديثة أو لغة هؤلاء في فهمهم للمدنية الحديثة.

وهكـذا تـأتي مـسألة القبـول بـالتطور العلمـي، العلـم يتقـدم ويتطـور، وحاكمية الإسلام تصطدم مع التطور.

لنفترض على سبيل المثال: رحلة الفضاء، كان البعض يرفض القبول بواقع التقدم العلمي في مجال الفضاء، كذلك استخدام الأمواج الصوتية كالراديو والتلفاز أيضاً كان بعض الفقهاء يحرم هذه، الآن مسألة الاستنساخ البشري والحيواني أيضاً، وهكذا زرع الجنين وما شاكل ذلك مما هو من نتاجات وعطاءات المدنية الحديثة، ثمّ بعض القراءات الفقهية لا تقبل بها، وهذه كثيرة طبعاً، وفي ضوء ذلك يقال إن خاتمية وحاكمية الإسلام تصطدم مع المدنية الحديثة، أن التقدم العلمي حقيقة إنسانية مقدسة ولا يمكن الاصطدام بها، ومن يصطدم بها يكون كما قال الشاعر:

كنـاطح صـخرة يومـاً ليوهنهـا   فمـا وهاهـا وأوهـى قرنـه الوعـل

أنتم هكذا ستكونون، وبالتالي إذن ارفعوا أيديكم عن الحاكمية للإسلام انزلوا مع المدنية الحديثة وليبقَ من الدين عناوينه ومبادئه العامة، أما ما عدا ذلك فيجب أن تكونوا كما كانت الكنيسة يعني (ما لله لله، وما لقيصر لقيصر) هذا هو معنى المدنية الحديثة، وفي ضوئه يطلب من رجال التشريع والإسلام والعلم أن يكونوا هكذا انسجاماً مع المدنية الحديثة.

هذا هو الاشكال الأوّل.

هـذا الاشكال حينمـا تقرؤه بلغـة لطيفـة معاصـرة وأدبيـة فيهـا أرقـام وفيهـا

شواهد، تجدون أن الشاب قد يخدع بها، ويقول هذا كلام جميل، كيف أرد عليه، هذا فيه نقاط قوة ودغدغة عواطف وتفاعل مع أهواء الناس.

النصوص تقول: «من صام يوماً من رجب حرمت عليه النار وبعد عن النار مسيرة سنة»[1] لكن من الذي شاهد ذلك؟ وكيف نصدق به؟

الجيل الجديد الذي يعيش أدوات مدنية حديثة يريد أن يرى في كل شيء فائدة ويوجد له منفعة نقدية.

القراءة الصحيحة لأصول المدنية الحديثة:

ولكن الحقيقة اننا لا نجد تقاطعاً بين الإسلام وأصول المدنية الحديثة. وتصور وجود تقاطع بين الإسلام والمدنية الحديثة ناشئ من قراءة سطحية لأصول المدنية، فهنا قراءتان: أحداهما القراءة الصحيحة لأصول المدنية الحديثة. وثانتهما القراءة السطحية.

مواكبة المعطيات العلمية:

إن الإسلام وكذلك باقي الأديان الإلهية لا ترفض مواكبة التقدم العلمي بل هي أوّل من آمن به، ودعت له وحرضت الإنسان على العلم وبذل الجهد، حتّى كانت أوّل آية أنزلتها السماء على الإنسان هي حول العلم والثقافة كما هي في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.[2]

إلا أن هناك مجالين للتقدم العلمي:

المجال الأوّل: هو المجال التقني.

المجال الثاني: هو المجال التشريعي.

---

(1) من لا يحضره الفقيه ٢: ٩٢؛ إقبال الأعمال ٣: ١٩١.

(2) العلق: ١.

وبعبارة أخرى إن المجال الأوّل هو المجال العلمي والمجال الثاني هو المجال التشريعي، ويجب أن تفتح معطيات العلوم الحديثة إلى هذين الحقلين.

فالتطور في مجال الطاقة والفضاء والاتصالات والطب والكيمياء والفيزياء والاصلاح الزراعي والتقدم الصناعي هي جميعاً داخلة في الحقل الأوّل. بينما بحوث العلم الاجتماعي والعلم النفسي وعلم التربية وعلم الاقتصاد وعلم السياسة داخل في الحقل الثاني.

الفرق بين هذين الحقلين: إن المعطيات العلمية في الحقل الأوّل هي ثوابت غير قابلة للشك ويجب التعاطي معها إيجابياً. وهي مسألة لا تتقاطع معها الأديان جميعاً، فاستخدام الطاقة الكهربائية أو الطاقة الذرية قضية لا يرفضها الفكر الديني، وهكذا استخدام وسائل العلاج الحديث في الطب ومثله في وسائل النقل أو الاتصالات. باعتبار أن جميع هذه المعطيات هي معطيات من واقع التجربة الإنسانية وتكاملها، وهذا على خلاف ما هو من معطيات الحقل الثاني في المعطيات التشريعية.

في الحقل الثاني هي معطيات افتراضية ليست ثابتة علمياً، بل هي فروض ورؤى اجتهادية قابلة للتحرك والتغير، فالموقف الحضاري مثلاً من مفهوم الجريمة والجناية يخضع اليوم لدراسات حديثة في علم النفس. قد ترى أن الجاني والمجرم لا يحتاج إلى عقوبة بمقدار ما يحتاج إلى تربية، ولهذا ترفض المدنية الحديثة قوانين العقوبة، إذ أن ذلك معتمد على دراسة اجتهادية يمكن المناقشة فيها ولا يمكن اعتبارها من الثوابت العلمية التي لا تقبل الشك، أو من معطيات التجربة المادية الثابتة، ومن هنا فإن الإسلام يرى أن الجناية تنطلق من مرض نفسي وهذا المرض النفسي يضطرنا لاستخدام العقوبة إلى جانب التربية كما هو في الأمراض البدنية التي تضطر الطبيب أحياناً إلى عملية استئصال، أو

كما هو في الأمراض المُعدِية التي يضطر الطب فيها إلى حجر المريض في محاجر خاصة مهما كانت براءته ونزاهته النفسية.

إن ما نريد أن نؤكده هو أن المعطيات الحديثة في الحقل الثاني هي معطيات تستند إلى فروض واجتهادات قابلة للمناقشة وتختلف بين نظرية وأخرى ولا يمكن اعتبارها أصلاً مسلماً من أصول المدنية.

وسننتهي في نهاية هذا البحث إلى القول بأن الإسلام يقبل الأصل الأوّل من أصول المدنية الحديثة وهو معطيات العلم، لكنه يقدم قراءة أخرى لهذا الأصل حيث يجعله مختصاً بالحقل الأوّل دون الحقل الثاني، ولعل التقدم العلمي الذي شهده العالم الإسلامي أيام السبات والتخلف الغربي يدلل على هذه الحقيقة، حيث صعدت الشعوب الإسلاميّة إلى معارج كبيرة في المدنية بينما كان الغرب يعيش تخلفاً حضارياً في القرون الوسطى.

تثوير النزعة الاجتهادية:

أمّا الأصل الثاني من أصول المدنية الحديثة وهو رفض روح التعبد. ففي الحقيقة أن هذا التصور يستبطن سطحية كبيرة في فهم هذا الأصل من أصول المدنية.

إن القراءة الصحيحة لهذا الأصل هكذا تقول: إن المدنية الحديثة تعتمد على تثوير النزعة الاجتهادية لدى الإنسان، وإطلاق روح البحث والنقد والسؤال والشك المنهجي من جهة، ومن جهة أخرى تدعو المدنية الحديثة إلى تهذيب روح التعبد، فالتعبد غير مرفوض في المدنية الحديثة، إنما الانسياق مع الخرافات والأوهام، وكل ما لا يعتمد على دليل علمي هو الأمر المرفوض، وعلى خلاف ذلك التعبد والقبول بما هو

من نتائج الأدلة العلمية كما هو في مجال الهندسة والحاسبات والطب والفضاء وغيرها.

هذا الفهم للأصل الثاني من أصول المدنية الحديثة هو الفهم الصحيح. وهو أمر لا يتقاطع معه الإسلام ولا أي دين من الأديان الإلهية، بل كان الإسلام سبّاقاً في مجال اذكاء النزعة الاجتهادية والبحث العلمي لدى الإنسان حتّى البديهيات الدينية مثل التوحيد، كما نجده في الجدل الإبراهيمي حين استعرض على طريقة (الشك المنهجي) مسألة التوحيد بالله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1] ومثل ذلك في قضية رفض التعبد بالخرافات والأباطيل حتّى نجد الإسلام يحرم علم التنجيم وقراءة الكف في معرفة مستقبل الإنسان.

مسألة الهدوء النفسي:

إن ما كشفته الدراسات الحديثة من انطلاق الإنسان في مجمل حركاته من البحث عن الهدوء النفسي هو أمر لا ترفضه النظرية الدينية، سوى أن الأديان تقدم لهذا الأصل قراءة أخرى تقول:

إن الهدوء النفسي على قسمين، هدوء مستقر، وهدوء غير مستقر، هدوء ثابت، وهدوء قلق.

لا شك أن الإنسان يبحث عن الهدوء لكن أي هدوء، الثابت أو القلق؟

الإسلام يبحث عن الهدوء الثابت والمستقر وغير المضطرب للإنسان. وهو الأمر الذي يتحقق من خلال تهذيب الغرائز وليس الاندفاع المطلق معها.

إن الانطلاق من دوافع غريزية بصورة غير مدروسة لا يحقق

---

(1) الأنعام: ٧٨.

هـدوءاً ثابتـاً، وقـد يحقـق هـدوءاً مؤقتـاً سـرعان مـا يـزول، فالـسرقة مـثلاً قـد تـشبع الإنـسان الجـائع أو الفقيـر وتحقـق لـه هـدوءاً نفـسياً مـن جانـب، لكـن لا يمكننا اعتبار ذلك من أصول المدنية الحديثة، لماذا؟

لأن المدنيــة الحديثــة تبحــث عــن الهــدوء النفــسي الثابــت والــذي يعتمـد علـى تهـذيب الانـدفاعات الغريزيـة لـدى الإنـسان وهـذا نفـسه هـو مـا يدعو إليه الإسلام تحت عنوان التزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾.[1]

إن القـرآن الكـريم حـين يقـول: ﴿أَلا بِـذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَـئِنُّ الْقُلُـوبُ﴾[2] يقـرر مـسألة الاطمئنـان والهـدوء النفـسي باعتبـاره الـدافع الحقيقـي لحركـة الإنـسان. وهكـذا حينمـا يتحـدّث فـي قـضية يوسـف: ﴿قـالَ رَبِّ الـسِّجْنُ أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِمَّـا يَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ﴾[3] فـنحن نلاحـظ أن يوسـف يبحـث أيـضاً عمـا هـو المحبـوب لنفـسه والـذي يوجـب الهـدوء الثابـت لـه بـدلاً ممـا تحققـه جريمـة الاخـتلاط اللاشرعي من هدوء غير مستقر.

إن تصور التقاطع بين الإسلام وبين هذا الأصل من أصول المدنية الحديثة ناشئ من قراءة سطحية لهذا الأصل وهو ما يمكن اعتباره تجنياً على المدنية الحديثة واتهامها باللاقانون. وهو ما دعت إليه فلسفة التمرد الشاذة.

المنفعة الفعلية:

تحـاول المدنيـة الحديثـة أن تنـساق لاكتـشاف منفعـة لكـل مـشروع أو تـشريع تـدعو لـه، وهنـا تـصور الـبعض أن ذلـك يعنـي انتظـار منفعـة فوريـة

(1) الشمس: ٩.
(2) الرعد: ٢٨.
(3) يوسف: ٣٣.

وسريعة وراء كل مشروع أو تشريع. في الوقت الذي نجد أن هذا يمثل تصوراً سطحياً في فهم هذا الأصل.

والصحيح هو أن نفهم هذا الأصل فهماً علمياً عميقاً كما يراه الإسلام كسائر الأديان الإلهية حيث يتعامل مع المشاريع والتشريعات أيضاً من خلال ما تقدمه من منفعة، ولكن دون تحديد تلك المنفعة بالوقت المحدود لعمر الإنسان في الدنيا، حيث تؤمن الأديان والفلسفات التوحيدية بوجود عالم آخر بعد هذه الدنيا، ومسؤولية الإنسان هي البحث عن المنافع على كلا المستويين الدنيا والآخرة، وهذا ما قد نقرؤه بشكل واضح في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾.(١)

فالمسألة إذن مسألة تجارة أيضاً وليست رفضاً لروح البحث عن المنفعة بمقدار ما هي إعطاء مديات أطول وأعمق لهذه المنفعة. فالصلاة والصوم مثلاً هي في المنظور الإسلامي والديني في الوقت الذي تمثّل قيمة أخلاقية في التعامل مع الخالق، هي أيضاً تحقق منفعة للإنسان على المدى الأخروي كما تؤكده الأديان.

فالصوم جُنة من النار والصلاة معراج المؤمن، وهكذا في سائر الطقوس العبادية.

إن الإسلام لا يريد أبداً الغاء الدوافع الذاتية، وحتّى المصلحية لدى الإنسان، وإنما يريد تهذيبها والتعامل معها بشكل شمولي وعلى مديات بعيدة. والفرق هنا كالفرق بين البائع البسيط الذي يكتفي بربح دراهم معدودة سريعاً، وبين التاجر الكبير الذي يبحث عن أرباح طائلة ومشاريع طويلة الأمد.

---

(1) الصف: ١٠.

(٣/ ربيع الأوّل/ ١٤٢٦ هـ)

المحاضرة الخامسة:

الحياة الأصيلة

بين الإسلام والحداثة

موضوعات المحاضرة:

١ _ العلاقة بين الحداثة والإسلام.

٢ _ إشكال الحداثة الغربية.

٣ _ كيف نعالج إشكال (التضاد مع الذات)؟

٤ _ طريق السعادة.

٥ _ قصة إدريس عليه السلام.

٦ _ مقامات الأولياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

نقف على أبواب ذكرى شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام في العشر الأوائل من شهر ربيع الأوّل، كما نقف في ذكرى شهادة سيدنا وأستاذنا آية الله العظمى الشهيد السيد محمّد باقر الصدر 1 وأخته العلوية الفاضلة العالمة.

الشهيد الصدر هو رائد التجديد الإسلامي الأصيل. وسنجعل هذا العنوان منطلقاً لحديثنا هذا اليوم.

هناك آفاق عديدة للحديث عن شخصية السيد الشهيد الصدر، أفق المرجعية، أفق الريادة في الموقف السياسي، والأفق التربوي الأخلاقي، ولكن سأتناول هذا اليوم فقط أفقاً واحداً كمفتاح للحديث في هذا الشأن.

الشهيد الصدر كانت إحدى صفاته وامتيازاته أنه رائد التجديد الإسلامي المعاصر من خلال مجموعة مؤلفات يقف على رأسها كتاب فلسفتنا، واقتصادنا، والبنك اللاربوي، والإسلام يقود الحياة.

الشهيد الصدر لديه كتب في الفقه والأصول والتاريخ، لكن ما أريد أن أقف عنده هو التجديد الإسلامي الأصيل وهذا هو غير البحوث الفقهية والأصولية.

هنا نلاحظ تجديداً في الفكر الإسلامي المعاصر في هذه الكتب التي أشرت إليها.

لقد كان رائداً وما تزال بصماته موجودة في مجمل الحركة الفكرية الإسلاميّة المعاصرة. هذا هو مفتاح الحديث.

العلاقة بين الحداثة والإسلام:

نحن لدينا بين الإسلام والحداثة إشكالية قد يقرؤها البعض بأنها تضاد بين الإسلام والحداثة.

الحداثة الفكرية والمدنية الحديثة وهذا ما أشرنا إلى بعض معالمه في محاضرات سابقة لدى الحديث عن إشكالية العلاقة بين الإسلام والحداثة.

في محاضرة سابقة أشرنا إلى أصول الحداثة وقدمنا لها قراءة غير القراءة الغربية لها.

حديثنا اليوم أن هناك ثلاثة اتجاهات لمعالجة العلاقة بين الإسلام والحداثة، الإسلام الذي جاء قبل أربعة عشر قرناً وبين الحداثة ومستجداتها ومعطياتها، كيف نعالج الموقف؟

اتجاهات ثلاثة:

هناك ثلاثة اتجاهات نذكرها كخطوط عريضة:

الاتجاه الأوّل: رفض الدين لصالح الحداثة:

وهذا الاتجاه هو الذي تبنته الشيوعية الماركسية حيث اعتبرت الدين خرافة وأفيون الشعوب ويجب الاطاحة بعرشه لصالح الحداثة.

الاتجاه الثاني: رفض الحداثة لصالح الدين:

أي الاطاحة بعرش الحداثة واتهامها بأنها بدعة وشرك ويجب أن نحافظ على التقاليد الدينية كتقاليد، وهذا الاتجاه هو ما مثله التيار الصوفي الذي يرفض الحداثة ويعتبرها غرقاً في وادي الشيطان وتضاداً مع الدين، ونحن إما أن نكون من أبناء الدين أو أن نكون من أبناء الحداثة ، إذا أردنا أن نكون من أبناء الدين إذن يجب أن نرفع اليد عن الحداثة والمدنية والتقدم العلمي وما شاكل، وهذا هو

الاتجاه الذي يمكن أن نصطلح عليه بالاتجاه المتحجر، أو الجمود الفكري الذي يحرم مجموعة هذه المعطيات الحديثة.

على كل حال هذه هي فكرة رفض الحداثة لصالح الدين.

لقد فشل كلا الاتجاهين: رفض الدين فشل، اليوم نحن نشاهد عودة إلى الدين، حتّى في العالم المتمدن وليس في عوالمنا الإسلاميّة، لأن الدين يمثل ضرورة في الواقع الإنساني. ومشروع إسقاط الدين من الحياة الإنسانية هو مشروع قد أثبت فشله.

مشروع إسقاط الحداثة أيضاً فشل، لأن الحداثة أمر واقع لايمكن للإنسان أن يصطدم بالواقع أصلاً، لا يمكن أن يعيش، كمن يعيش في الصباح وتحت ضياء الشمس ويتصور أن الوقت ليل، وبالتالي إذا أراد أن يستخدم المصباح فإنه يكون موضع سخرية للناس.

الاتجاه الثالث: الموائمة بين الدين والحداثة:

يعني إيجاد المصالحة بين الدين والحداثة.

في هذا الاتجاه يوجد مسلك لصالح الحداثة ويوجد مسلك لصالح الدين، يعني الموائمة بين الدين والحداثة في المسلك الأوّل الذي يدعو إلى تعديل الدين، إن الدين لا بدّ أن نشذ به ونهذبه ونجعله يركب في قالب الحداثة أما الحداثة تبقى هي القالب والاطار، وهذا هو الاتجاه الغربي وهو ما نصطلح عليه بالحداثة الغربية.

الغرب الآن في تعامله مع الدين لم يرفض الدين، يعني لم يقل لا لله، ولا للقيامة ولا لعيسى ولا للكنيسة، وإنما قال يجب أن نهذب الكنيسة، يجب أن نهذب التوراة والإنجيل. هذا نسمية الحداثة الغربية، تعديل الدين وليس تعديل الحداثة.

وهناك مسلك ثانٍ أيضاً يدعو للمصالحة بين الدين والحداثة لكن من خلال تعديل الحداثة، من خلال تقديم قراءة جديدة للحداثة. فالثوابت الدينية تبقى، وإنما نحن نناقش فيما هي الحداثة، ونقدم قراءة جديدة للحداثة، بحيث لا تتضاد مع الدين، الحداثة ليست ضد الدين والمدنية ليست ضد الدين.

نقدم قراءة لما هي الحداثة، ولما هو التمدن ولما هي المدنية الحديثة، هذا وقد أشرنا إلى بعض آفاقه في محاضرة سابقة.

اليوم حديثنا في إشكالات الحداثة الغربية التي تدعو أيضاً للموائمة والمصالحة بين الدين والحداثة ولكن بطريقة تعديل الدين. والآن هذا هو الاتجاه السائد في الغرب واستسلمت له الكنيسة ورفعت له الرداء الأبيض.

إشكال الحداثة الغربية:

الحداثة الغربية لها إشكال مهم على الدين، الدين كإسلام أو الدين كمسيحية أو أية ديانة إلهية أخرى.

حديثنا اليوم عن إشكالات الحداثة الغربية، وأهم تلك الاشكالات هو (التضاد مع الذات) يقولون إن الإنسان في ضمن الفهم التقليدي للدين يعيش تضاداً وحرباً ومعتركاً مع الذات، الذات تدعوه لشيء لكنه هو وخضوعاً لطقوس وتقاليد دينية يعيش حياة مجازية، كمثل ذاك المسرحي الذي يؤدي دوراً معيناً يفرضه على نفسه ويحاول أن يجسّد شخصيته، لنفترض يؤدي مثلاً دور عنترة بن شداد، هو ليس بمستوى شجاعة عنترة بن شداد لكن يؤدي هذا الدور كمسرح لا أكثر، في الحقيقة يفرض على نفسه كثيراً من الشكليات دون أن تكون موجودة في الواقع.

الحداثة الغربية هكذا تقول إن الإنسان في ظل الدين يتقاطع مع ذاته ويقوم بأداء دور على حساب الذات وقناعاتها، لكن لأجل ارضاء المشاهدين، لأجل أن يرضى العالم الديني، ويرضى الأب والأم والمجتمع والمسجد. وكذا يقوم بأدوار هي غير داخلة في قلبه، كمن يصلي كرهاً ليس قربة إلى الله تعالى وإنما خوفاً من أبيه مثلاً، فإن مثل هذه الصلاة تتضاد مع الذات، هو في ذاته غير مؤمن بهذه الصلاة لكن يعيش معركة وهو مستسلم لهذه المعركة وليس منتصراً فيها.

الحداثة الغربية تقول نحن نعتقد بأصالة الإنسان، الإنسان هو الذي يجب أن يكون حاكماً على الواقع، وهو الذي يجب أن يكون مقياساً للقيم، يجب إخضاع الواقع والقيم والسلوكيات لإرادة الإنسان وليس إخضاع الإنسان والذات للواقعيات والتقاليد والموروثات والطقوس وما شاكل.

أصالة الإنسان وأصالة الذات تعني أن لا نتقاطع مع الذات بل نسير مع الذات، هي توجه السير فإذا أرادت الذات أن تمارس عملاً معيناً فالصحيح هو الانطلاق معها، وليس كبتها كما يقول الدين، وكما تقول التقاليد. وذاك تضاد ومعركة مع الذات وهذا خلاف أصالة الإنسان وأصالة الذات، الإنسان لديه أهواء وغرائز وشهوات ويعيش الإنسان في معركة لان هذا الأمر يؤدي إلى فقد السعادة.

ألسنا جميعاً نريد السعادة للإنسان، أية سعادة حين يعيش الإنسان في معركة مع ذاته، وتضاد مع ذاته؟ هذا هو البؤس.

إن طريق السعادة هو إطلاق باب الحريات بقيادة الذات.

الإنسان في ضوء الحداثة الغربية يقول: هذا أنا من أرادني أهلاً وسهلاً، لا أتأقلم مع الجيران والصديق والمعلم، بل أقول للمعلم أنا هكذا مؤمن بهذا الشيء

أو لست مؤمناً، أرغب في هذا ولا أرغب في ذاك، يعني مثلما نحن نتعامل مع الطعام والشراب فالإنسان عادة لا يفرض عليه الطعام والشراب، الأستاذ الذي يدرسه العلوم يقول له الطالب أنت أستاذي أنا أحترمك في العلوم لكن اسمح لي أن آكل ما اشتهي وأنت تأكل ما تشتهي ليس لك علاقة بي، أما أن يفرض عليّ طعاماً بحيث أتضاد وأتقاطع مع ذاتي، هذا الأمر يجعل الطعام عسير الهضم، هذا كتمثيل للفكرة.

يقال إذا أردنا أن نفرض التقاليد الدينية على الذات فإن هذا الدين سوف لا يهضم، وإن هذه الذات ستعيش بؤساً كذاك الذي يأكل الطعام مرغماً بدون اشتهاء ورغبة فانه سيكون عسير الهضم وربما سيرفضه بعد فترة. هكذا هو الدين.

إشكال الحداثة الغربية على الدين، أن الدين يولّد حالة التضاد مع الذات، بينما نحن نؤمن بأصالة الذات وأن طريق السعادة هو الاستجابة لدواعي الذات، وبالتالي يجب أن نقوم بعملية موائمة أيضاً مع الدين باعتبار أن الدين أيضاً يلبي حاجات فطرية لكن من خلال إجراء تعديل في الدين بحيث لا يبقى من الدين إلاّ تلك الأمور التي تستقبلها الذات، أما ما عدا ذلك فيجب أن نرفضه، ونبقى على جوهر الدين وهو عبارة عن التوحيد عبارة عن الإيمان بالآخرة، وانتظار الجنّة، أما غير ذلك فيجب أن نطرحه جانباً حتّى نعيش مصالحة مع الذات بدل أن نعيش معركة مع الذات.

هذا هو إشكال الحداثة الغربية.

وهنا ينتقلون إلى مفهوم جديد اسمه (الحياة الأصيلة) و(الحياة غير الأصيلة).

يقولون نحن نريد حياة أصيلة للإنسان.

الحياة الأصيلة للإنسان:

هناك مفكر غربي في علم النفس الاجتماعي اسمه (كارل راجرز) يقول الحياة الأصيلة هي تلك الحياة التي يتوائم فيها الإنسان مع ذاته، أما غيرها فهي حياة كبت وهي مجازية وليست حياة أصيلة، يعني لا يشعر الإنسان انه يتكامل وينتعش وإنما يمارس شكليات مفروضة عليه.

الحياة الأصيلة هي عبارة عن تلك الحياة التي يحقق فيها الإنسان الهدوء النفسي من خلال إشباع غرائز النفس، هذه هي الحياة الأصيلة، أما الحياة المجازية غير الأصيلة هي تلك الحياة التي يتقاطع فيها الإنسان مع ذاته وهذا ما يصنعه الدين كما في تصوّر الحداثة الغربية.

هذا هو أهم إشكال للحداثة الغربية.

نحن نقف عند مناقشة هذا الاشكال. وحديثنا عن التجديد الإسلامي الأصيل الذي كان سيدنا وشهيدنا الصدر رائداً له.

كيف نعالج إشكال التضاد مع الذات؟

الجواب: إن الإسلام يرى أن الحياة الأصيلة ليست من خلال التوافق مع الذات، وإنما الحياة الأصيلة هي تلك الحياة التي تنشأ من التوافق مع الحقيقة. فأصبح لدينا مفهومان: مفهوم التوافق مع الذات، ومفهوم التوافق مع الحقيقة، الإسلام والأديان تقول الأصالة ليس هي للذات وإنما الأصالة هي للحقيقة، ويجب أن تعدل الذات وتهذب وفقاً لمعطيات الحقيقة وليس تعديل الحقيقة لصالح الذات.

هذا الأمر هو الذي نقرؤه في فكرة التهذيب والتزكية ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

زَكَّاها﴾،[1] ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾،[2] ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾،[3] ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾،[4] و﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾.[5]

لاحظوا هنا جميعاً صبّ الذات بقالب الحقيقة وليس صبّ الحقيقة في قالب الذات، فإذا كانت الذات لا تشتهي حقيقة الحياة بعد الموت، فلا يمكن أن ننسى الآخرة من أجل أن نتوافق مع الذات.

الإسلام يقول إن السعادة والحياة الأصيلة هي من خلال التوافق مع الحقيقة، فإذا كانت الحقيقة تقتضي أن تكون وجلاً، والحقيقة تقتضي أن تكون مؤملاً، أو خائفاً أو شجاعاً أو عابداً، الحقيقة ماذا تقول فإن الذات يجب أن تنصاع للحقيقة ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ﴾**، ربكم هو الحقيقة.**

الرؤية الشاملة للكون هي الحقيقة في الإسلام، ويجب أن ننصاع لتلك الحقيقة، هذا مثل الشخص المدين بمئات الآلاف ولكن حتّى لا يتعذب نفسياً يقول عليَّ أن أنسى هذا الدَين لأنه يقلقني!

الإسلام ماذا يقول؟

الإسلام يقول: الحياة الأصيلة هي أن تستذكر الدَين وتعمل على الوفاء به، وتحاول أن ترضي صاحب الحق، وليس الهروب من الحق لارضاء النفس. فهذه ليست حياة أصيلة وإنما هذه هي الحياة الكاذبة المجازية، إنك تدير ظهرك للحقيقة يعني كحالة النعامة التي تدفن

---

(1) الشمس: ٩.
(2) المؤمنون: ١.
(3) الزمر: ٥٤.
(4) يس: ٦١.
(5) الزمر: ١٦.

رأسها في التراب كي لا يبطش بها الذئب، في الحقيقة الذئب وراءها وسوف يبطش بها مهما حاولت أن لا ترى الذئب وتدفن رأسها في التراب، هذه ليست حياة أصيلة وإنما هذه الحياة الكاذبة.

الإسلام يقول يجب أن تعيشوا حياة أصيلة وهي عبارة عن التوافق مع الحقيقة والواقع الكوني، وليس التوافق مع الذات على حساب ما هو الحق والواقع، طبعاً هذا بحث قرآني فلسفي عقائدي واسع، ومجمل أعمالنا وسلوكياتنا الدينية هي بهذا الاتجاه، اتجاه التوافق مع الحقيقة.

الإسلام يدعو إلى أن تجعل الذات في خدمة الحقيقة وليس الحقيقة في خدمة الذات.

الحداثة الغربية تقول إن كل شيء في خدمة الإنسان.

أمّا الإسلام فهو يقول إذا كان الله قد سخر الوجود للإنسان فإنه لا يجوز للإنسان أن يتمرد على الحق ويطغى على الحقيقة، بل يجب أن يكون كما يُريده الحق، ولا يستطيع أن يهرب من الواقع والحق، أو أن يفلت من واقع الربوبية، ومن واقع الحياة بعد الموت، والحساب والكتاب والحشر والنشر هذه واقعيات، يجب على الإنسان أن يوظف نفسه للانسجام مع هذه الواقعيات.

لاحظوا القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾.[١]

هذه هي المعيشة المجازية الوهمية، الحقيقة والحياة الأصيلة هي التي تكون بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.[٢]

---

(1) طه: ١٢٤.

(2) الرعد: ٢٨.

«بـذكرك عـاش قلبـي وبمناجاتـك بـرّدت ألـم الخـوف عنـي»[1] هـذه أفكـار تعّبـر فـي الحقيقـة عـن نظريـة رائعـة جـداً للإنـسان كيـف يتعامـل مـع الحق والحقيقـة، يقـول تعـالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[2] **تلـك هـي الحيـاة البائسة، الحيـاة المجازيـة، البعيـدة عـن ذكـر الرحمن، الذي يمثّل الحقيقة المطلقة الكبرى.**

طريق السعادة:

هنا تصل النظرية الدينية إلى القول أن الطريق إلى السعادة هو (التوافق مع الحقيقة) والذي يعني تهذيب الذات وفقاً لاستحقاقات الحقيقة، ولما تريده تلك الحقيقة، وهذا يعني الاعراض عن الدنيا، والاقبال على ما هي الحقيقة.

القـرآن الكـريم هـذه هـي رؤيتـه ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾.[3]

وفي آيـة أخـرى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾.[4]

يعنـي فـي الرؤيـة الإسـلاميّة، أن هـذه الـدنيا هـي دار ممـر ودار مجـاز، وإذا أردنـا أن نطلـق العنـان للـذات فإنهـا سـوف تبقـى عنـد هـذا الجـسر ولا تعبـر إلـى الجانـب الآخـر، سـوف تبقـى فـي هـذا المركـب بينمـا المركـب هـو في الحقيقة وسيلة ليوصلنا للهدف.

---

(1) مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام في سحر شهر رمضان، أنظر: مصباح المتهجد: ٥٨٢ – ٥٩٨.
(2) الزخرف: ٣٦.
(3) الحديد: ٢٠.
(4) العنكبوت: ٦٤.

الإنسان _ مثلاً _ هدفه حينما يركب السيارة أن يصل إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام أمّا إذا كان هدفه أن يركب السيارة وحينما يصل كربلاء لا ينزل، ويقول أنا هدفي هو الركوب في السيارة فإن هذا ضياع للتجربة والمسيرة.

الإسلام رؤيته أن طريق السعادة هو التوافق مع الحقيقة، والتوافق مع الحقيقة يعني التعامل مع الدنيا باستحقاقها واستحقاق الدنيا أنها دار ممر وأنها جسر للآخرة.

التعايش مع الدنيا:

الاعراض عن الدنيا كما تعرفون يأتي معاً إلى جانب التعايش معها، الاعراض عنها والتعايش معها، وهذا هو روعة الدين وفلسفة الدين، كما جاء في أحد النصوص الرائعة عن أئمّة الهدى عليهم السلام: «النظر بها وليس النظر إليها».

الدنيا مثل النظارات، فأصحاب النظارات ينظرون بالنظارة وليس للنظارة، أمّا لو ان ذاك الإنسان ينظر للنظارة فإنه سوف لا يرى شيئاً.

الدنيا نظارة والإنسان يجب أن ينظر بها ومن خلالها ولا ينظر إليها ولا يجعلها هي الهدف.

أعرض عن الدنيا لكن ليس بمعنى أن نخلع الدنيا ونلقيها جانباً، لأن النظارة نحن نحتاجها في المطالعة، لو أن الإنسان يقول هذه النظارة ألقيها جانباً إذن لا يستطيع أن يقرأ، الإسلام يقول أنت استخدم النظارة لكن ليس لها ولكن بها. وهذه الفلسفة الرائعة في الإسلام في مقابل الفلسفات الصوفية والرهبانية.

الاعراض عن الدنيا إلى جانب التعايش مع الدنيا.

أنا للتبرك أحببت أن أقرأ لكم هذه الرواية الموجودة في نهج البلاغة للإمام عليّ عليه السلام حينما دخل على العلاء بن زياد الحارثي يعوده

فلما رأى سعة داره قال: «مَا كُنْتَ تَصْنَعُ بِسِعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا وَأَنْتَ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ كُنْتَ أَحْوَجَ؟».

ثمّ قال عليه السلام: «بَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَتَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَتُطْلِعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطَالِعَهَا فَإِذاً أَنْتَ قَدْ بَلَغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ».

فقال له: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ.

قال: «وَمَا لَهُ؟».

قال: لَبِسَ الْعَبَاءَةَ وَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا.

قال عليه السلام: «عَلَيَّ بِهِ».

فلما جاء قال عليه السلام: «يَا عُدَيَّ _ عُديّ: تصغير عدو _ نَفْسِهِ لَقَدِ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ _ يعني تسلط عليك الشيطان _ أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَ وَلَدَكَ أَتَرَى اللَّهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ».

قال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَجُشُوبَةِ مَأْكَلِكَ.

قال عليه السلام: «وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ».

هذا هو الاعراض عن الدنيا إلى جانب التعايش معها طلباً للتوافق مع الحقيقة، وليس فرض الذات على الحقيقة، وتقليم أظفار الحقيقة.

هذه هي مسألة التعايش مع الواقع، ومع معترك الدنيا.

قصة إدريس عليه السلام:

هذا أذكره في قصة إدريس على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام وأنا أستفيد من هذه الالفاته، وأقول لكم يا اخوتي الطلبة الفضلاء حينما تذهبون للتبليغ لا تفوتكم الرواية والآية والقصة، ثلاثة أمور لا تفوتكم

وإلاّ فإن الناس سوف يملّون من الاستماع إليكم، لا بدّ أن تهيؤوا القصة، قصص الأنبياء وقصص تربوية وتربطوا الموضوع إلى جانب آية وإلى جانب رواية فيكون مجلسكم مجلساً مثرياً ومفيداً.

هنا تأتي قصة إدريس التربوية وتناسب مع ما عرضناه من النظرية الإسلاميّة يعني التوافق مع الحقيقة مع الاعراض عن الدنيا إلى جانب التعايش معها.

إدريس نبي من الأنبياء وقد ذكره الله تعالى بشأن جليل فقال: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾.[1]

قصة إدريس أنه كان في زمانه ملك جبار، وأنه ركب ذات يوم في بعض نزهة، فمر بأرض خضرة نضرة لعبد مؤمن.. فأعجبته، فسأل وزراءه لمن هذه الأرض؟ قالوا: لعبد من عبيد الملك، فدعا به فقال له: أمتعني بأرضك هذه، فقال: عيالي أحوج إليها منك، قال: فَسُمني بها اثمن لك، قال: لا أمتعك ولا أسمك، فغضب الملك عند ذلك... فقالت له زوجته: أيها الملك إنما يهتم به من لا يقدر على الانتقام، فإن كنت تكره أن تقتله بغير حجة فأنا أكفيك أمره وأصير أرضه بيديك بحجة.. فبعثت إلى قوم فأمرتهم أن يشهدوا عليه عند الملك أنه بريء من دين الملك، فشهدوا... فقتله واستخلص أرضه، فغضب الله تعالى للمؤمن عند ذلك، فأوحى الله إلى إدريس أن إئت عبدي هذا الجبار، فقل له: أما رضيت أن قتلت عبدي المؤمن ظلماً حتّى استخلصت أرضه.. أما وعزتي لأنتقمن له منك في الأجل، ولأسلبنك ملكك في العاجل ولأخربن مدينتك.. فأتاه إدريس عليه السلام برسالة ربه.. فقال الجبار: أخرج عني يا إدريس فلن تسبقني بنفسك.

---

(1) مريم: ٥٧.

وبعثت امرأة الجبار أربعين رجلاً ليقتلوا إدريس. فتنحى إدريس عن القرية من يومه ذاك ومعه نفر من أصحابه، فلما كان في السحر ناجى إدريس ربه فقال: يا رب إن لي إليك حاجة... أسألك أن لا تمطر السماء على أهل هذه القرية وما حولها، وما حوت عليه حتّى أسألك ذلك، قال الله ﷻ: يا إدريس إذاً تخرب القرية ويشتد جهد أهلها ويجوعون، قال إدريس: وإن خربت وجهدوا وجاعوا، قال الله ﷻ: فإني قد أعطيتك ما سألت ولن أمطر السماء عليهم حتّى تسألني ذلك... وشاع خبر إدريس في القرى بما سأل ربه تعالى... وسلب الله ﷻ عند ذلك ملك الجبار وقتله وأخرب مدينته وأطعم الكلاب لحم امرأته.. فمكثوا بذلك بعد خروج إدريس من القرية عشرين سنة لم تمطر السماء عليهم قطرة.. فجهد القوم واشتدت حالتهم وصاروا يمتارون الأطعمة من القرى من بعد، فلما جهدوا مشى بعضهم إلى بعض فقالوا: إن الذي نزل بنا بسؤال إدريس ربه.. وقد خفي إدريس عنّا، ولا علم لنا بموضعه، والله أرحم بنا منه، فأجمع أمرهم على أن يتوبوا إلى الله ﷻ ويدعوه ويفزعوا إليه، فقاموا على الرماد ولبسوا المسوح وحثوا على رؤوسهم التراب... فأوحى الله إلى إدريس: يا إدريس إن أهل قريتك قد عجّوا إليّ بالتوبة والاستغفار.. وأنا الله الرحمن الرحيم أقبل التوبة أعفوا عن السيئة وقد رحمتهم.. فسلني يا إدريس حتّى أغيثهم وأمطر السماء عليهم.

قال إدريس: اللهم إني لا أسألك ذلك.

قال الله ﷻ: ألم تسألني يا إدريس فأجبتك إلى ما سألت، وأنا أسألك أن تسألني، فَلِمَ لا تجب مسألتي؟

قال إدريس: اللهم إني لا أسألك.

فأوحى الله ﷻ إلى المَلَك _ الذي أمره أن يأتي إدريس بطعامه كل مساء _ أن احبس عن إدريس طعامه ولا تأته به، فلما أمسى إدريس في ليلة ذلك اليوم فلم يؤت بطعامه حزن وجاع فصبر، فلما كان في ليلة اليوم الثاني فلم يؤت بطعامه اشتد حزنه وجوعه، فلما كانت الليلة الثالثة اشتد جهده وجوعه وحزنه وقلّ صبره، فنادى ربه: يا رب حبست عني رزقي من قبل أن تقبض روحي، فأوحى الله ﷻ إليه: يا إدريس، جزعت أن حبست عنك طعامك ثلاثة أيام ولياليها، ولم تجزع ولم تذكر جوع أهل قريتك وجهدهم منذ عشرين سنة، ثمّ سألتك عن جهدهم ورحمتي إيّاهم أن تسألني أن أمطر السماء عليهم فلم تسألني، وبخلت عليهم بمسألتك إيّاي، فأدبتك بالجوع... فاطلب المعاش لنفسك فقد وكلتك في طلبه إلى حيلتك.

ونحن في قصص الأنبياء يجب أن نأخذ عبراً رائعة لأن الأنبياء هم نموذج الإنسان الكامل، ويتكاملون من خلال التربية الإلهية.

فهبط إدريس عليه السلام من موضعه إلى قرية يطلب أكلة من جوع، فلما دخل القرية نظر إلى دخان في بعض منازلها، فأقبل نحوه، وفيه عجوز كبيرة ترقق قرصين لها على مقلاة، فقال لها: أطعميني فإني مجهود من الجوع، فقالت: يا عبد الله ما تركت لنا دعوة إدريس فضلاً نطعمه أحداً، فاطلب المعاش من غير أهل هذه القرية، فقال لها: اطعميني ما أمسك به روحي وتحملني به رجلي إلى أن أطلب.

قالت: إنما هما قرصتان واحدة لي والأخرى لابني، فإن أطعمتك قوتي متُّ، وإن أطعمتك قوت ابني مات...

فقال لها: ان ابنك صغير يجزيه نصف قرص فيحيى به ويجزيني النصف الآخر، فأحيى به.. فأكلت المرأة قرصتها وكسرت الأخرى بين إدريس وبين ابنها، فلما رأى ابنها إدريس يأكل من قرصته اضطرب حتّى مات.

القصة هكذا تصور القضية، ربما يكون ذلك على سبيل الرمزية وهذه مسألة مراراً أشرت إليها، نحن حينما نقرأ قصص الأنبياء فإن فيها رموزاً كثيرة هي تقص لنا تاريخ عشرين سنة في رواية عبارة عن عشرة أسطر، يجب أن تعرفوا أنها ترمز إلى سجال وتجارب ومعترك وأحاديث طويلة هي تلخصها بعبارة أن هذا الطفل بكى حتّى مات.

قالت أمه: يا عبد الله قتلت ابني جزعاً على قوته.

قال لها إدريس: فأنا أحييه بإذن الله تعالى فلا تجزعي، ثمّ أخذ إدريس بعضدي الصبي، ثمّ قال: ايتها الروح الخارجة عن بدن هذا الغلام ارجعي إلى بدنه بإذن الله، وأنا إدريس النبي. فرجعت روح الغلام إليه بإذن الله.

فلما سمعت المرأة كلام إدريس وقوله: (أنا إدريس) ونظرت إلى ابنها قد عاش بعد الموت قالت: أشهد أنك إدريس النبي، وخرجت تنادي بأعلى صوتها في القرية: ابشروا بالفرج فقد دخل إدريس قريتكم، فاجتمع إليه أناس من أهل القرية فقالوا له: يا إدريس أما رحمتنا في هذه العشرين سنة.. فادع الله لنا أن يمطر السماء علينا... قال: لا، حتّى يأتيني جباركم هذا وجميع أهل قريتكم مشاة حفاة يسألوني ذلك، فبلغ الجبار قوله، فبعث أربعين رجلاً ليأتوه به، فأتوه... فدعا عليهم فماتوا.. فبعث الجبار خمسمائة رجل ليأتوه به... فقال لهم إدريس: أنظروا إلى مصارع أصحابكم، فقالوا له: يا إدريس قتلتنا بالجوع منذ عشرين سنة ثمّ تريد أن تدعو علينا بالموت، أما لك رحمة؟

فقال: ما أنا بذاهب إليه، وما أنا بسائل الله أن يمطر السماء عليكم حتّى يأتيني جباركم ماشياً حافياً وأهل قريتكم، فانطلقوا إلى الجبار فأخبروه بقول إدريس وسألوه أن يمضي معهم وجميع أهل قريتهم إلى إدريس مشاة حفاة، فأتوه حتّى وقفوا بين يديه خاضعين له، طالبين أن يسأل الله ﷻ لهم أن يمطر السماء عليهم، فقال لهم إدريس: أما الآن فنعم، فسأل الله ﷻ إدريس عند ذلك أن يمطر السماء عليهم وعلى قريتهم ونواحيها، فأظلتهم سحابة من السماء وأرعدت وأبرقت وهطلت عليهم من ساعتهم حتّى ظنوا أنه الغرق، فما رجعوا إلى منازلهم حتّى أهمتهم أنفسهم من الماء.[١]

ما هي الفكرة المستوحاة من هذه القصّة؟

الفكرة هي التعايش مع الدنيا، مع الناس، مع المجتمع، إلى جانب الاعراض عنها.

يعني نحن حينما نطلب الكمال ونعرض عن الدنيا يجب أن يكون ذلك إلى جانب التعايش معها وليس كاعراض الصوفيين والرهابنة وما شاكل ذلك.

هذه رؤية الإسلام عن الحياة الأصيلة مقابل الحياة المجازية، التي تحاول فرض الذات على الحقيقة. أمّا الحياة الأصيلة في رؤية الإسلام فهي عبارة عن فرض الحقيقة على الذات.

تطهير الذات:

وهنا سنصل إلى الحديث عن تطهير الذات وتزكيتها والارتباط بالله، لأن الله يمثل الحقيقة، نحن لنا ولي ويجب أن ننصاع له، ولا نطلق

(1) ملخص ما رواه الصدوق في: كمال الدين وتمام النعمة: ١٣٠.

العنان للذات بعيداً عن هذا الولي، بعيداً عن الله تعالى ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.(١)

مقامات الأولياء:

ختام هذا الحديث بودي أن أستبشر معكم فيما هي مقامات الأولياء الذين يعيشون الحياة الأصيلة ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.(٢) **«فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك، ولا تستقر النفوس إلاّ عند رؤياك».(٣)**

وهذا تتمة في نظرية الحياة الأصيلة في الإسلام وانه لا يمكن في الدنيا إطلاقا تحقيق الهدوء النفسي وإنما الهدوء النفسي يتحقق عند لقاء الله تعالى، هذا أيضاً بحث واسع قد نؤجله إلى محاضرة أخرى.

ان هذه الدنيا ليست معدة للهدوء النفسي، وإنما هذه الدنيا معترك صراع ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾(٤) **من يريد أن يبحث عن الهدوء النفسي مطلقاً يكون كالنعامة تدفن رأسها في التراب فراراً من الذئب والذئب وراءها، من يبحث عن الهدوء النفسي المطلق في الدنيا بعيداً عن استذكار الآخرة فإن الموت وراءه، ولكنه يحسب ويتصور أو يحاول أن يفرض على نفسه انه ليس ثمة شيء وراءه بينما وراءه الخطر «ان إمامكم عقبة كؤوداً».(٥)**

---

(1) الأعراف: ١٩٦.

(2) الرعد: ٢٨.

(3) من دعاء للإمام زين العابدين عليه السلام المعروف بمناجات الذاكرين، أنظر: الصحيفة السجادية: ٤١٩/ رقم ١٩٤/ أبطحي.

(4) الملك: ٢.

(5) نهج البلاغة ٢: ١٨٣/ خ ٢٠٤.

حينما يكون الإنسان قد خضع للحقيقة وحينما يكون الله تبارك وتعالى وليّه، هناك مجموعة مقامات وعده الله بها:

المقام الأوّل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] **هذه هي الحياة الأصيلة.**

المقام الثاني: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٢] **ما عدا ذلك قدم كذب وحياة مجازية ليست أصيلة، وَهمٌ وقشور، وإذا كان للمؤمنين قدم صدق عند ربهم سننتقل للمقام الثالث.**

المقام الثالث: ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾[٣] **يعني البقاء بالله والمؤمن سيكون باقياً بالله باقياً مع الله وحينئذٍ سننتقل إلى مقام رابع.**

المقام الرابع: أن يتصلّ المؤمن بوجه الله، لأن وجه الله وحده هو الباقي، والمؤمن باق حسب المقام الثالث إذن فهو وجه الله. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾،[٤] **وحينئذٍ إذا كان المؤمن عند ربه** ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾ **يعني المؤمن يتحول إلى وجه الله ويعيش في سبحات وجه الله.**

المقام الخامس: لاحظوا هذه الاستنتاجات القرآنية،[٥] وحينئذٍ سنصل إلى ﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾[٦] **إذا كان الإنسان المؤمن الذي وليه الله يعيش ويبقى بالله وفي وجه الله، حينئذٍ ستكون كل المعاني والأسماء الإلهية**

---

(1) يونس: ٦٢.
(2) يونس: ٢.
(3) النحل: ٩٦.
(4) القصص: ٨٨.
(5) راجع رسالة الولاية للعلامة الطباطبائي.
(6) الرحمن: ٧٨.

متمثلة فيه، فهذا الإنسان المؤمن يوم القيامة أيضاً سيكون ذا الجلال والاكرام وتسّخر له السموات والأرض ولعل هذا هو الذي يفسر لنا دخول ذلك المَلَك على المؤمن وهو في قصره وجنّته ومعه كتاب من رب العالمين يقول: «السلام من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت»،[١] يعني البقاء بالله وفي سبحات وجه الله وفي غمار أنوار الله تبارك وتعالى.

تلك هي الحياة الأصيلة الحقيقية ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.[٢]

أيها الاخوة المؤمنون والسادة الكرام: فكروا وتأملوا مراراً وتكراراً أن كل ما حولنا لهو ولعب، إننا نعيش في قشور يجب أن ننزل للعمق والباطن.

ما هي النية؟

ما هو الهدف؟

الله تبارك وتعالى يشهد سلوكنا هل يرضى عنا أو لا يرضى عنا؟

أين الوجل الذي عند أئمّتنا عليهم السلام؟ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.[٣]

أين بكاء أمير المؤمنين عليه السلام؟

أين بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله؟

كان صلى الله عليه وآله يبكي حتّى يغشى عليه فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال صلى الله عليه وآله: «أفلا أكون عبداً شكوراً».[٤]

---

(1) تفسير القرطبي ١٩: ١٤٤.

(2) العنكبوت: ٦٤.

(3) المؤمنون: ٦٠.

(4) الكافي ٢: ٩٥/ ح ٦.

أيها السادة الفضلاء نحن بحاجة أن ننزل إلى باطن هذه الحياة وليس إلى مظهر هذه الحياة، هذا الذي نعيشه هو مظهر في الحقيقة، الباطن سنلتقي به بعد أن ينكشف الغطاء ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] حينئذٍ نلتقي بذلك الباطن.

نسأل الله تبارك وتعالى الرضا عنا والعفو والتجاوز، أستغفر الله لي ولكم وأنا بحاجة إلى دعائكم.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) ق: ٢٢.

(١/ ربيع الثاني/ ١٤٢٦ هـ)

المحاضرة السادسة:

إشكاليات الحداثة على الإسلام

موضوعات المحاضرة:

١ _ معنى السمع والبصر الإلهي.
٢ _ رقابة الله على العباد.
٣ _ إشكالات الحداثة.
٤ _ كيفية التبليغ.
٥ _ شبهة مرحلية التشريع الإسلامي.
٦ _ الاجابة العلمية على الشبهة.
٧ _ الأخلاق الاجتماعيّة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[1]

نحاول أن نقف في بداية الحديث عند بعض المداليل القرآنية، والمسائل العقائدية. يقول المفسرون إن هذه الآية جمعت على اختصارها بين التشبيه والتنزيه.

وهذا الموضوع أعني التشبيه والتنزيه هو من الموضوعات الفكرية المهمة التي اضطرمت بها الساحة الإسلاميّة في القرون الماضية، ثمّ خفت آثاره حينما انتصرت مدرسة آل البيت عليهم السلام في الاعتدال بين التشبيه وبين التنزيه، بين التشبيه المطلق والتنزيه المطلق.

وقال علماؤنا العارفون: لا التشبيه هو الموقف الصحيح ولا التنزيه باطلاقه هو الموقف الصحيح، بل الموقف الصحيح هو الجمع بين التشبيه المحدود والتنزيه المحدود «أمر بين أمرين»، هذا ما جمعته الآية القرآنية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهذا تنزيه لله تبارك وتعالى عن كل مثل وشبيه لكن إلى جانب ذلك ضمَّت الآية القرآنية بعده التشبيه بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ حيث أن السمع والبصر هو نمط من الادراك يشبه ما هو موجود عند الإنسان، الله تبارك وتعالى أضفى على نفسه هذا الوصف قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الإنسان هو بصير والله بصير، الإنسان سميع والله سميع، هذا تشبيه إلى جانب ذلك التنزيه.

---

(1) الشورى: ١١.

معنى السمع و البصر الإلهي:

وهنا نقف عند هذه النقطة، ما معنى وصف الله تعالى بأنه سميع بصير؟

هنا أربعة تفاسير وفق معتقداتنا الكلامية الفلسفية:

التفسير الأوّل:

إن السمع والبصر حيث يضاف إلى الله تبارك وتعالى، فالمقصود هو الكناية عن العلم الإلهي، الله هو العليم وهذا العلم ينشق إلى مجموعة مفردات، فيكون خبرة وسمع وبصر ونظر وشهادة وما شاكل ذلك، فمفهوم السمع والبصر حينما ينسب إلى الله تبارك وتعالى فإنه لا يضيف صفة جديدة غير صفة العلم لذاته المقدسة، لكن هذه الصفة يمكن أن نحللها إلى مجموعة صفات نقول سميع، بصير، خبير وغير ذلك.

السميع قضية حسية، فكيف يوصف الله تعالى بأنه سميع وهكذا بصير؟ ودفعاً للتشبيه قالوا في التفسير الأوّل، إن السميع والبصير يعني العليم. فهو يعلم دون أن يكون له سمع مثلنا وبصر مثلنا، كلا وإنما المقصود هو جوهر السمع والبصر وهذا التفسير يعود إلى الغاء حقيقة السمع والبصر. وهذا التفسير يعتمد على نظرية التنزيه المطلق.

التفسير الثاني:

هو التفسير الذي يعتمد على نظرية التشبيه المطلق.

يقولون إن السميع والبصير بمعنى أنه سميع كسمعنا وبصير كبصرنا، وهذا تشبيه مطلق.

التفسير الثالث:

لا التفسير الأوّل صحيح، لأن السمع والبصر يعبّر عن حقيقة أخرى في مدلول الكلمة غير حقيقة العلم، ونحن يجب أن نتعاطى مع الدلالات القرآنية

باستحقاقها، الله سميع وبصير هذه حقيقة أخرى، القرآن يصف بها الله تبارك وتعالى، لماذا نفرغ هذه الحقيقة ونقول المقصود هو العليم؟ الغاء هذه الحقيقة وهذه المفردة اللغوية في القرآن الكريم بلا مبرّر، النص القرآني لا يقبل ذلك.

وهكذا التفسير الثاني غير صحيح أيضاً، حيث لايصلح أن يكون ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ كسمعنا وبصرنا، هذا تشبيه تعالى الله عنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

من هنا فإن التفسير الثالث هكذا يقول إن الله تبارك وتعالى سميع بصير بحقيقة السمع وبحقيقة البصر التي هي حقيقة أخرى غير حقيقة العلم، أن يبصر أو أن يسمع شيء آخر، هذه غير حقيقة انه عليم. نحن نعتقد وفق هذا التفسير الثالث، أن الله تعالى سميع وبصير وشاهد وناظر ولكن ليس بالشكل الذي لدينا، نحن ننظر من خلال العين، ونسمع من خلال الاذن، ولكن أليس يمكن للإنسان أن يتجاوز هذه الاذن وهذه العين، ألسنا في المنام نتجاوز الاذن والعين نرى ونسمع بدون استخدام لهذه الحواس.

إذن في الحقيقة أن جوهر السمع هو شيء آخر ما وراء حاسة السمع، إن تطبيقاته المادية في الدنيا بالنسبة لنا، جعلته عبر أُذن وعبر عَين لكن جوهره فوق هذه الأدوات التي عندنا، فمن الممكن أن يتحقق السمع والبصر دون هذه الأدوات، السمع والبصر هو عبارة عن إدراك لحقيقة وجودية هي الصوت والصورة.

لاحظوا يمكن أن تكون عليماً بشخص، لكن دون أن تراه، إن العلم بوجود شخص بالمنزل لا يعطي حقيقة أن تراه، حينما تراه تضيف لنفسك معلومة أخرى طوله وعرضه ولون البشرة وملابسه، هذه حقيقة أخرى وهكذا تعلم بوجود شخص في المنزل أو في الغرفة هذه غير قضية أن تسمع صوته، فقضية أن تسمع شيئاً هو أمر آخر إضافة إلى قضية العلم.

الله تبارك وتعالى له إدراك بكل حقيقة وجودية، الماديات لها حقيقة وجودية، الله يدركها، الصوت له حقيقة وجودية الله تعالى يدركه، الله تعالى يدرك الصوت وهذا يعني انه سميع، ويدرك المرئيات يعني انه بصير.

وهذا إدراك آخر إضافة إلى أصل الإدراك العام الذي نسميه العلم، هذا معنى أن الله تعالى سميع بصير، إذن هو يسمع لكن لا كسمعنا، ويبصر ولكن لا كبصرنا.

هذا هو التفسير الثالث الذي يجمع بين التشبيه والتنزيه.

التفسير الرابع:

أن الله تعالى سميع من خلال سمعنا وبصير من خلال بصرنا، حيث أن الإنسان هو ظل لله تبارك وتعالى.

هذا التفسير يحاول التخلص من التشبيه والتنزيه، ولكن في الحقيقة يرجع إلى نفي السمع والبصر عن الله تبارك وتعالى، وهذا مفهوم غير صحيح ولا يقبله النص القرآني.

الشيء الذي ينتهي إليه علماؤنا العارفون هو أن السمع والبصر وصف إضافي لله تبارك وتعالى غير وصف العلم، وهو يعني أن الله تعالى يدرك كل الحقائق الوجودية، فإذا كان الله تعالى يدرك السمع، إذن فهو يدرك هذه الحقيقة الوجودية، وهكذا إذا لم يكن الله تعالى بصيراً بمعنى البصر وباستحقاقات البصر، إذن فهو سوف يفقد إدراكاً لحقيقة وجودية، بينما الله تعالى محيط بكل شيء. كل حقيقة وجودية فإن الله تعالى مدركها، الصوت والصورة هذه حقائق لا بدّ أن الله تعالى يدركها وهذا هو السمع والبصر إضافة إلى العلم والحكمة والخبرة.

حينئذٍ سوف تسألون إذا كان الله محيطاً بكل الحقائق وهي

موجودة عنده جميعاً فهل نستطيع أن نقول إن الله تعالى جائع، أو مريض أو عطشان باعتبار أن هذه حقائق والله تعالى لا يفقد حقيقة من الحقائق.

هذا سؤال فلسفي، الجوع والمرض أليس هو حقيقة فكما تقول إن الله تعالى سميع لماذا لا تقول إن الله تعالى جائع؟

الجواب أن هذا الوصف غير صحيح، لأن الله تعالى هو جامع ومحيط لكل حقيقة وجودية وليس حقيقة عدمية والجوع والمرض وأمثالها هي حقائق عدميّة. وهنا سوف نصل لمفهوم الحقائق الوجودية والحقائق العدمية.

لاحظوا السمع كمال، والبصر كمال، والقوة كمال، لكن الجوع نقص والمرض نقص، النوم والعمى نقص، هي حقائق على الأرض، أنت جائع ومريض وفقير هذه حقيقة على الأرض، لكن هذه الحقيقة نسميها حقيقة ناشئة من اعدام، يعني ناشئة من نواقص عندنا ولأن الإنسان مركب ولأن الإنسان مادي ولأنه جسم سوف يصبح مريضاً وفقيراً وجائعاً وما شاكل ذلك. هذه صفات نقص يجل الله تبارك وتعالى عنها. فهي حقيقة لكن حقيقة عدمية وليست حقيقة وجودية ولذا كان الله ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾.(١)

تستطيع أن تصف الله بالوعي فتقول أن الله تعالى يعي كل الأشياء، لكن إذا كنت أنت غافلاً وكنت جاهلاً هل تقول إن الله غافل وجاهل، كلا لأن هذه الغفلة صفة نقص، وهي ناشئة من عدم، لأن الجهل يعني عدم العلم والغفلة تعني عدم اليقظة، هذه كلها أعدام في الحقيقة، والله تعالى هو الوجود المطلق وليس فيه شيء من العدم.

إذن الله تجتمع عنده الحقائق الوجودية أمّا الحقائق العدمية فالله تبارك وتعالى بعيد ومنزّه عن تلك الحقائق العدمية.

---

(1) البقرة: ٢٥٥.

وهذا هو جوهر البحث في صفات الجمال والجلال، إن صفات الجمال هي حقائق وجودية يوصف الله تعالى بها، أمّا صفات الجلال هي حقائق عدمية مثل النوم الذي يعني عدم اليقظة، ومثل الغفلة التي تعني عدم الانتباه، لاحظوا هذه حقائق عدمية، الله تبارك وتعالى ليس فيه عدم بل هو وجود مطلق.

رقابة الله على العباد:

هذه مقدمة البحث للتيمن والتبرك بالقرآن الكريم.

حينئذٍ هذا الأمر يحتاج إلى استشعار دائم أن الله تعالى سميع وانه بصير وانه شاهد «يا شاهد كل نجوى»، النجوى بين اثنين، الله تعالى شاهدها. الله تبارك وتعالى ليس فقط سميعاً وبصيراً وإنما يشهد شهوداً على ذلك الأمر السري.

نحن بحاجة إلى أن نستشعر هذه الصفات الإلهية، الله تعالى سميع بصير، هذا الصوت يسمعه الله تعالى، المشهد يراه الله تعالى، بل يشهده وهو حاضر فيه، سميع بصير، «يا شاهد كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى»، الله تعالى يشهد كل نجوى، يشهدها وليس فقط يعلم بها، بل يحضرها ويراقبها. وبالتالي لاحظوا كم نحن نعيش في القبضة الإلهية، عن يميننا وعن شمالنا ومن فوقنا وخلفنا ونحن تحت السيطرة الإلهية، وتحت المجهر الإلهي في نياتنا وفي سرائرنا كما هو في ظواهر أعمالنا. وحينئذٍ بقدر ما يعطي هذا المفهوم للإنسان خشوعاً، كذلك يعطيه أنساً خاصاً عجيباً، الله تعالى يسمع الصوت، الله تعالى شاهد معنا حاضر معنا «أنا جليس من ذكرني»[1] هذا شيء عظيم ويدعو إلى المزيد من الأنس ومزيد من الفناء في هذا المحبوب.

---

(1) الكافي ٢: ٤٩٦.

جاء في الحديث القدسي: «أنا جليس من ذكرني، ومطيع من أطاعني»،[١] نحن حين نذكر الله فإنه سوف يكون جليسنا، أين نحن واستحقاقنا حتّى يكون الله تعالى جليسنا؟ ولكن هذا من لطف الله تعالى أن يقول: «أنا جليس من ذكرني» بل الله يعطينا معلومة أخرى يقول: «ومطيع من أطاعني» هذه درجة ترقّي، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾[٢] استشعار هذه المعاني له تأثير عظيم على سير الإنسان وسلوكه سواء في سلوكه الشخصي، المنزلي، العلمي والسياسي.

هنا رواية جميلة تحضرني في هذا الشأن في تفسير قوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾[٣] إن الله تبارك وتعالى يقول: يا يوسف أنت سجنت نفسك بكلمة وليس أنا، أنت قلت: ربّ السجن أحبُّ اليّ، ولو كنت قلت: ربّ العافية أحبّ إليّ لم تدخل السجن، «أنا مطيع من أطاعني» لماذا قلت: ربّ السجن أحبّ إليّ؟ لو كان يوسف كما تقول الرواية قال: «ربّ العافية أحبّ إليّ مما يدعونني إليه» لكان الله تعالى يخلصه من كيد زليخا بالعافية وليس بالسجن لكن يوسف اختار هذه الحقيقة ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.[٤]

إشكالات الحداثة:

ننتقل للمقطع الثاني من الحديث، وأضعه تحت عنوان (إشكاليات الحداثة) وهذا بحث يرتبط بواقعنا المعاصر الساخن ومسألة كتابة الدستور، اليوم نقف على مشارف خطوة كبرى يخطوها العراق وهي كتابة الدستور، هناك أساسان يبنى عليهما العراق:

---

(1) أنظر: مستدرك الوسائل ٥: ٢٨٦.

(2) النساء: ٦.

(3) يوسف: ٣٣.

(4) البحار ١٢: ٢٤٧.

الأساس الأوّل: هو الانتخابات. وهو يعني الإرادة الشعبية وهذا هو الأساس الأوّل.

الأساس الثاني: الدستور هو الخطوة الثانية في الأهمية بعد أصل الانتخابات، ولهذا نحن اليوم _ بحمد الله تعالى _ بعد ما قطعنا خطوات في إنجاح الأساس الأوّل وبنائه وهو الانتخابات، حيث أصبح العراق مبنياً على رأي الشعب، وهذه قضية مهمة جداً تترك آثارها على مدى مئات السنين، إن العراق يبنى على أساس الانتخابات وليس على أساس التعيين، من أية جهة كانت، الآن نحن على مشارف الخطوة الثانية (كتابة الدستور) هذا الأساس الثاني إذا بني بشكل خطأ، فكل البناء الفوقي يكون خطأ وسرعان ما يقع.

الآن نحن بصدد تدوين الدستور الدائم للعراق يعني الخريطة الأساسية لهيكل العراق، نحن بصدد تفصيل ثوب للعراق، يجب أن يكون التفصيل دقيقاً صحيحاً وحينئذٍ يمكن أن يكون البناء والهيكل الفوقي صحيحاً، هذه خطوة في غاية الأهمية، ولا نعرف خطوة بعد الانتخابات بمستوى من الأهمية كتدوين الدستور.

وهنا تأتي قضية الإسلام والهوية الإسلاميّة، واعتبار الإسلام مصدر تشريع، ذكرنا في حديث سابق أن هناك اشكالين على حاكمية الإسلام أو على مصدرية الإسلام والتشريع:

الاشكال الأوّل:

تصادم الإسلام مع الحداثة، وقد ناقشناه في حديث سابق، اليوم نتناول إشكالاً ثانياً من إشكالات الحداثة.

الاشكال الثاني:

نسميه (مرحلية التشريع الديني) اعتماداً على مرحلية النص الديني

وهـذا سـوف أشـرحه لكـم، ولكـن بـودي أن أقـف عنـد روايـة شـريفة، كمـا تعلمون أيها السادة الفضلاء أن علينا مهمتين كطلاب علم وحوزة:

المهمة الأولى: معالجة الشبهات الحديثة، اليوم لا توجد شبهة ابن كمّونة التي ندرسها في الحوزة العلمية، توجد شبهات أخرى بحاجة إلى مناقشة، ولا توجد شبهات الدهريين في ذاك الزمان ولا توجد شبهات ابن أبي العوجاء التي نقرؤها في الاحتجاج، ولهذا لا يمكن اليوم أن نبقى عند الشبهات القديمة، اليوم لا بدّ من أن نعالج الشبهات الجديدة المطروحة.

المهمـة الثانيـة: تطـوير لغـة الأداء، لاحظـوا هنـاك خطـاب نـسميه خطابـاً علميـاً، وهـذا الخطـاب لا ينفـع النـاس، النـاس اليـوم ينفعهـا خطـاب إعلامـي، يعنـي أنـت اليـوم هـل تـستطيع أن تأخـذ كتـاب الرسـائل للـشيخ الأنـصاري أو كتـاب الكفايـة للـشيخ الآخونـد أو تأخـذ كتـاب شـرح البـاب الحادي عشر للعلامة وتتحدّث به على الناس؟ لا أحد يستفيد منه طبعاً.

لا بدّ أن يكون لنا خطاب إعلامي فضلاً عن الخطاب العلمي، لكن إلى جانبه الخطاب الإعلامي، حينئذ نستطيع أن نعالج شبهات الناس، أمّا إذا بقينا عند الشبهات القديمة وبقينا عند الخطاب الدرسي فإن الناس سوف يعرضون عنا، وسوف لا يستفيدون منا، ولهذا يجب أن نقوي في أنفسنا الاطلاع على الشبهات الحديثة أوّلاً، والقدرة على الخطاب الإعلامي ثانياً.

كيـف نـتكلم مـع النـاس بحيـث يرتبطـون بنـا «كلّمـوا النـاس علـى قـدر عقولهم»[1] فلو أنت كلمت الناس وفق لغة كتاب منظومة السبزواري ومنطق المظفر وشرح الباب الحادي عشر، فلا أحد من الناس يفهم منك شيئاً.

---

(1) تذكرة الفقهاء ١: ١٥٣.

سوف يسبقنا الأعداء في السيطرة على عقول الناس، ونكون كالمثل المعروف بين ذلك العالم الذي ذهب إلى عشيرة من العشائر ورأى شيخ العشيرة ان هذا العالم منافس قوي له، ولا بدّ أن يتخلص من هذا العالم، القصة معروفة عندكم لكن دلالتها جميلة ومهمة فقال: أيها الشيخ الجليل أكتب على الأرض كلمة (حيّة) فسارع العالم وكتب كلمة (حية) بخط لطيف ولكن أبناء العشيرة أُميون لا يعرفون الكتابة فلم يفهموا ما كتب العالم، فقال لهم شيخ العشيرة: تعرفون هذا العالم ماذا كتب؟ قالوا: لا، قال: اسمح لي أنا سوف أكتب حية، وبادر ورسم حية على الأرض، وقال لأبناء العشيرة أيهما حية هذه أم هذه؟ قالوا: هذه الحية التي أنت رسمتها، قال: إذن يا شيخ انصرف منا فأنا أعلم منك.

الآن نحن لا نواجه علماً في الساحة، بل نواجه جهلاً معلباً وتزيينات لطيفة، تبهر عقول الناس، نحن يجب أن يكون لدينا قدرة في الخطاب الإعلامي.

كيفية التبليغ:

أنا أقرأ هذه الرواية الجميلة التي يرويها عليّ بن إبراهيم القمي في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ﴾[1] **هذه الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام هكذا تقول: بعث الله تعالى رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية فجاءاهم بما لا يعرفون.**

فغلبوا عليهما وأخذوهما فحبسوهما في بيت الأصنام، فبعث الله تعالى ثالثاً فدخل المدينة فقال: ارشدوني إلى باب الملك، وقال: أنا رجل كنت أتعبد في فلاة من الأرض وقد أحببت أن أعبد إله الملك، فأبلغوا كلامه للملك فقال:

---

(1) يس: ١٣ و١٤.

ادخلوه في بيت الآلهة، فدخل فمكث مع صاحبيه سنة، فقال لهما: بهذا ننقل قوماً من دين إلى دين لا بالخرق (يعني لا بطريقة الخرقاء) أفلا رفقتما مع الناس ثمّ؟ قال لهما: لا تُقرّا بمعرفتي ثمّ بعد مدة أُدخل على الملك.

فقال له الملك: بلغني أنك كنت تعبد إلهي، فاسأل حاجتك، قال: ما لي حاجة أيها الملك.

لكن عندما كنت في المعبد رأيت رجلين في بيت الآلهة ما حالهما؟ قال الملك: رجلان أرادا أن يضلا الناس عن إلهي ويدعوان إلى إله سماوي.

فقال: أيها الملك مناظرة جميلة فإن يكن الحق لهما دخلنا في دينهما وإن يكن الحق لنا دخلا معنا في ديننا.

فبعث الملك إليهما فلما دخلا قال لهما صاحبهما: مالذي جئتما به من دين؟

قالا: جئنا ندعو إلى عبادة الله الذي خلق السموات والأرض.

فقال: إلهكما يقدر أن يشفي الأعمى؟

قالا: نعم.

قال: أيها الملك جئني بأعمى، جيء بأعمى، هؤلاء الاثنين خرّا ساجدين ودعيا الله تعالى فشفي الأعمى، هذا الرسول الثالث قال: حجة بحجة أيها الملك جئني بأعمى وأنا على إلهك فدعا واستجيب له وشفي هذا المريض فالتفت هذا الرسول للملك قائلاً أيها الملك حجة بحجة يعني حجتهم ليس بأقوى من حجتنا، الملك فرح.

فقال لهما: عليّ بمقعد، جيء بمبتلى بشلل ومقعد.

قال لهما: إلهكما يشفي هذا؟

قالا: نعم.

قال: إذن ادعوا له، دعيا له وخرا ساجدين، الله تعالى شافاه.

قال: أيها الملك ادع لي بمقعد آخر، جيء بمشلول آخر، فهذا أصبح يدعو ويدعو وشفي ذلك المقعد وقام يمشي، التفت وقال: أيها الملك حجة بحجة.

ثمّ قال: أيها الملك بقي شيء واحد إن فعلاه دخلت في دينهم، بلغني أن الملك كان له ابن واحد ومات، فإن أحياه إلههما دخلت معهما.

الملك قال: وأنا كذلك.

فقال لهما: الملك عنده ابن ميت ادعو إلهكما ليحييه، فخرا ساجدين ثمّ رفعا رأسيهما وقال: ابعث إلى قبر ابنك تجده قد قام.

الملك بعث إلى قبر ابنه فوجده قد خرج من القبر، فلما أوتي به للملك، قال: ما حالك يا بني؟

قال: كنت ميتاً فرأيت رجلين بين يدي ربي الساعة يسألانه أن يحييني فأحياني.

قال: يا بني فتعرفهما إذا رأيتهما.

قال: نعم.

فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمر عليه رجل رجل فيقول له أبوه أنظر فيقول: لا، ثمّ مر عليه أحدهما فقال: هذا أحدهما ثمّ مر به الثاني فقال: هذا الآخر.

فقال النبي الثالث: أما أنا فآمنت بإلهكما وعلمت أن ما جئتما به هو الحق.

فقال الملك: أنا آمنت بإلهكما وآمن أهل مملكته كلهم.[1]

هذه القصة على بساطتها لكن هي ذات دلالة. والإمام الباقر عليه السلام في

(1) تفسير القمي ٢: ٢١٢.

تفسير عليّ بن إبراهيم يذكرها في تفسير قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾[1] ومهما تكن القصة رمزية وفيها أمور تحتاج إلى تدقيق ولكن أصل الفكرة أنه كيف ندعو الناس إلى الإسلام وإلى الدين، ليس بالخرق والغلظة واللغة القديمة ومعالجة مشكلات انتهت، ولا وجود لها في الشارع، اليوم توجد مشكلات جديدة في الشارع نحن بحاجة إلى معالجتها.

مرحلية التشريع الإسلامي:

اليوم توجد شبهة في الشارع تطرحها المدنية الحديثة هي عبارة عن (مرحلية التشريع الإسلامي) ان التشريع الإسلامي مرحلي يناسب عهوداً مضت، أما الآن وقد دخلنا في القرن الخامس عشر للهجرة فإن الشريعة الإسلاميّة غير مناسبة.

التشريع الإسلامي كان مرحلياً تبعاً لمرحلية النص الديني.

يقولون إن النص الديني أصله القرآن وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكن هذا النص الديني جاء لزمن معين، وجاء لمجتمع معين كان يتعامل ويتحدّث باستحقاقات ذلك الزمن، فكيف تطبقونه على هذا الزمن؟ يقدم تشريعاً لكن هذا التشريع يلائم ذلك الزمن ويقدم أمثلة تلائم ذلك الزمن.

القرآن الكريم يقول: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[2] فلو كان القرآن الكريم نزل في أوربا هل يقول: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أم لا؟ الجواب: لا، لكنه حيث نزل في صحراء الحجاز، قال: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

---

(1) الكهف: ٣٢.

(2) الغاشية: ١٧.

القرآن يقول: ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ﴾[1] **الناس يومئذ يتصورون أن السماء عبارة عن سقف مرفوع، ولهذا فإن القرآن الكريم أصبح يتعامل معهم باستحقاقاتهم الذهنية** ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها﴾ **اليوم هل أن أحداً يقبل أن السماء عبارة عن غطاء وسقف مرفوع؟ لا نستطيع أن نقول ان القرآن خطأ، وأن القرآن يعتمد على نظريات خرافيّة، وإنما نقول ان القرآن يتعامل مع أولئك الناس باستحقاقاتهم الفكرية والاجتماعية، كما أنت تضرب أمثلة لابنك تلائم ادراكاته وليس بالضرورة أن المثال صحيح.**

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً﴾[2] **بينما لا أحد يتقبل أن السماوات سبع سقوف طباقاً. فكيف قال القرآن ذلك؟ هل أن القرآن يؤمن بنظرة الطباق؟ سبع سماوات عبارة طبقات مادية بعضها فوق بعض، كلا إذن لماذا استخدم القرآن هذا التعبير؟ الجواب: أن استخدام القرآن هذا التعبير جاء حسب استحقاقات الواقع الثقافي الموجود الذي كان يعتقد بهذه النظرية.**

القرآن الكريم يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[3] **هل الآن يوجد لدينا ما ملك يمين؟ هل يوجد جواري؟**

ما ملكت أيمانهم إشارة إلى واقع اجتماعي موجود يومئذٍ، جواري أنت تشتريهن هذا الواقع غير موجود الآن، يوجد واقع آخر الآن فكيف نتعامل معه؟ هل التشريع الإسلامي هو تشريع مطلق أو مرحلي؟

---

(1) الرحمن: ٧.

(2) الملك: ٣.

(3) المؤمنون: ٥ و٦.

هـؤلاء يقولـون وفـق اشـكال الحداثـة، أن التـشريع الإسـلامي تـشريع مرحلي. والنص أيضاً يجب أن نفهمه وفق استحقاقات ذلك الزمان.

وهكـذا حينمـا يتحـدّث القـرآن الكـريم ويقـول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.[1]

يومئـذ لا يوجـد علمـاء نفـس ولا مـصحات نفـسية ولـم يكـن فـي مواجهـة القتـل إلاّ القتـل، ولهـذا فإن القـرآن الكـريم قـال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أمّـا هـذا الزمـان فتطـور وأصـبح يمكـن تحقيـق الحيـاة ومواجهـة إراقـة الـدماء لـيس بالقـصاص وإنمـا بالمعالجـات النفـسية ومـا شـاكل، إذن لمـاذا نحـن نـصر علـى التـشريع القرآنـي، مـع أن التشريع القرآني جاء لمعالجة واقع معين.

هـذا كـلام الحداثـة الغربيـة ولـيس كلامنـا طبعـاً، وإنمـا الـذي أريـد أن أقوله إن هنا شبهات حديثة فكيف نعالج هذه الشبهات؟

أنـا أسـألكم لـو دخلـتم إلـى جامعـة فـي بغـداد، وطرحـوا مثـل هـذا الـسؤال والاشـكال، هـل تـستطيع أن تناقـشه وتنقـد نظريتـه بالاسـتدلال علـى حجيـة الظهـور القرآنـي الـذي درسـتموه فـي أصـول الفقـه؟ هـل يقبـل منـك هذا الكلام تقول حجية الظهور القرآني، كلا لا يقبل منك هذا الكلام.

إذن نحتـاج إلـى خطـاب إعلامـي جديـد ونحتـاج إلـى معالجـة لمثـل هذه الشبهات بلغة جديدة.

علـيَّ أن لا أكـون بـصدد معالجـة هـذه الـشبهات وإنمـا أسـتثير فـيكم يـا طـلاب الحـوزة العلميـة الهمـم لدراسـة هـذه الـشبهات ومعالجتهـا وطرحهـا

---

(1) البقرة: ١٧٩.

للناس ولا نبقى عند الشبهات القديمة التي فرغنا من ردّها بحمد الله وانتصرنا عليها.

الحوزة العلمية والعلماء انتصروا، لكن الآن توجد شبهات جديدة، أنا أعتقد نحن نحتاج إلى تجديد على مستوى الشبهات، وعلى مستوى المعالجة، ولهذا فقد رأيت أن أطرح عليكم هذا السؤال:

الاجابة العلمية:

ما هي الأجوبة العلمية لهذه الشبهة بحيث تستطيعون أن تقدموها للجيل الجديد؟

هناك خمس إجابات على هذه الشبهة، أنا أذكر عناوينها على طريقتنا في علم الأصول، وعلى طريقتنا في الحوزة، لكن حينما نطرحها للناس يجب أن نطرحها بلغة أخرى.

أوّلاً: إنها تصطدم بالضرورة الدينية والبداهة الدينية القائمة على أساس ثبات التشريع الإسلامي وعدم مرحليته. طبعاً هذه اللغة تحتاج إلى شرح وتوضيح للناس.

ثانياً: تصطدم مع الروايات المتواترة التي تنهى عن التفسير بالرأي، يعني حمل النصوص القرآنية على الرأي والاجتهادات الشخصية والذوقية بحسب الزمان والمكان. هذا الذي كان ينهى عنه أئمّتنا عليهم السلام.

ثالثاً: إن هذا الفهم لو فتحنا له المجال فأنه يؤدي إلى سقوط الشريعة والعقيدة بالكامل، يعني لا يبقى حجر على حجر، لو شككنا بالنص والتشريع القرآني باعتبار أنه جاء منسجماً مع مرحلة اجتماعية معينة إذن سوف لا يبقى حجر على حجر، وسوف لا يبقى أمامك أي تشريع لا تستطيع أن تجري عليه

القلم الأحمر، وتقول هذا أيضاً ينسجم مع ذلك الزمان لا الصلاة ولا الصوم، لا الربا ولا السرقة ولا الزنا ولا الرشوة كله لا يبقى، فهذا الباب سيؤدي إلى سقوط الشريعة بالكامل والعقيدة أيضاً. فكل المعتقدات يمكن مناقشتها على أساس هذا الرأي فكرة السموات السبع، بل فكرة الجنّة وفكرة النار والآخرة والقبر ومنكر ونكير، كلها سوف تسقط أمام فتح هذا الأفق في المناقشة وهذا لا يمكن قبوله فهو من الثوابت.

رابعاً: أنه في ضوء هذا التفكير لا يبقى مقياس لفهم النص، يعني أنت سوف تتعامل مع النص على طريقتك، لأنك تعيش في الجزيرة والآخر يعيش في الجبال، والثالث يعيش في السهول، وكل شخص يفسر بطريقته. يعني لا يوجد مقياس لفهم النص القرآني، وإذا لا يوجد مقياس فهو خلاف الحكمة. يعني الله تعالى يخاطب الناس دون أن يجعل لهم مقياساً في الفهم، هذا خلاف الحكمة الإلهية.

خامساً: لا توجد أي إشارة قرآنية على مرحلية النص إذا كانت النصوص القرآنية تنسجم مع أبناء ذلك الزمان فقط وليس لها اطلاق وليس لها استمرارية إذن لا بدّ من إشارة قرآنية إلى ذلك ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما﴾[1] لماذا لم يقل: السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما إلى أن تكشفوا أساليب أخرى في التربية؟ كلها جاءت مطلقات.

هذه مجموعة مناقشات، لكن هذه المناقشات في وسطنا الحوزوي، نحتاج إلى فكها بلغة معاصرة حتّى يفهمها الناس، أنا أكتفي بهذا المقدار.

---

(1) المائدة: ٣٨.

الأخلاق الاجتماعيّة:

أقرأ لكم هذا الحديث الشريف الذي يروى عن جابر، عن رسول الله ﷺ: «ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلاّ لاطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام».[(1)]

الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم خليلاً لثلاث صفات: اطعام الطعام، وهو عبارة عن الخلق الاجتماعي، لاحظوا كم هو مهم في الإسلام، والقضية الثانية «الصلاة بالليل والناس نيام» وهذه يجب أن تكون من خصائص طلاب الحوزة الدينية، والقضية الثالثة هي إفشاء السلام، وهي إشارة إلى هدف عظيم من أهداف الأنبياء وهو إفشاء السلام، والدفاع عن حقوق الإنسانية.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) علل الشرائع ١: ٣٥/ باب ٣١/ ح ٤، عنه البحار ١٢: ٤.

(٣/ رجب المرجب/ ١٤٢٦هـ)

المحاضرة السابعة:

المراقبة خطوة في السلوك نحو الله

موضوعات المحاضرة:

١ _ خطوات في السلوك نحو الله.
٢ _ حقيقة العبودية.
٣ _ طريقان للوصول إلى الله.
٤ _ اشتراك الحوزة في العمل السياسي.
٥ _ شروط الدخول في العمل السياسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

«إلهي خَابَ الْوَافِدُونَ عَلَى غَيْرِكَ، وَخَسِرَ الْمُتَعَرِّضُونَ إلا لَكَ، وَضَاعَ الْمُلِمُّونَ إلاّ بِكَ، وَأَجْدَبَ الْمُنْتَجِعُونَ إلا مَنِ انْتَجَعَ فَضْلَكَ، بَابُكَ مَفْتُوحٌ لِلرَّاغِبِينَ، وَخَيْرُكَ مَبْذُولٌ لِلطَّالِبِينَ، وَفَضْلُكَ مُبَاحٌ لِلسَّائِلِينَ، وَنَيْلُكَ مُتَاحٌ لِلْآمِلِينَ، وَرِزْقُكَ مَبْسُوطٌ لِمَنْ عَصَاكَ، وَحِلْمُكَ مُعْتَرِضٌ لِمَنْ نَاوَاكَ. عَادَتُكَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيئِينَ، وَسَبِيلُكَ الْإِبْقَاءُ عَلَى الْمُعْتَدِينَ. اللَّهُمَّ فَاهْدِنِي هُدَى الْمُهْتَدِينَ، وَارْزُقْنِي اجْتِهَادَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَلا تَجْعَلْنِي مِنَ الْغَافِلِينَ الْمُبْعَدِينَ، وَاغْفِرْ لِي يَوْمَ الدِّينِ». [1]

نحن في مطلع شهر رجب المرجب وفي ذكرى شهادة إمامنا الهادي عليه وعلى آبائه آلاف التحية والسلام. يوقت هذا اللقاء أيضاً في ذكرى شهادة رجل من رجال العلم والسياسة والتقوى شهيدنا شهيد المحراب آية الله السيد الحكيم 1.

خطوات في السلوك نحو الله:

في هذا اللقاء الدوري الشهري كان عليّ في بداية اللقاء أن أقف مع اخواني الأعزاء طلاّب الحوزة الدينية وسالكي طريق العلم وتزكية النفس، وطريق هداية الناس، أن أقف معهم قليلاً مع بعض الآفاق والأبعاد الروحية والدينية والتربوية.

---

(1) مفاتيح الجنان: أعمال شهر رجب/ دعاء الإمام الصادق عليه السلام.

العلماء السالكون من أهل المعرفة يقولون إن أحد أهم الخطوات في السلوك إلى الله تعالى وتزكية النفس والوصول إلى مقام الولاية ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[1]

أحد الخطوات المهمة في السلوك هي خطوة المراقبة، وهي واحدة من مجموعة خطوات، بدءاً من خطوة التفكر، ثمّ خطوة العزم، ثمّ خطوة المشارطة، ثمّ خطوة المراقبة، ثمّ خطوة المحاسبة، ثمّ خطوة التذكر، أصول هذه الخطوات مأخوذة من كلمات الأئمّة الأطهار وآيات القرآن الكريم طبعاً، لكن عنونها علماء السلوك والمعرفة بهذه العناوين.

المراقبة خطوة في السلوك:

المراقبة من الخطوات المهمة للوصول إلى مقام الولاية، مراقبة النفس ومراقبة العمل والنية باستمرار. هذا الأمر على وضوحه لكنه يحتاج إلى تذكير، نحن بدون مراقبة قد نمشي طويلاً ويمضي بنا عمر طويل، ولكن في منتصف الطريق قد نجد أننا قد ضعفنا وقد تركنا الأهداف، والنيات قد تغيرت، وتحولنا إلى ناس من أهل الدنيا بلباس الدين. وهذا أعظم خطر يصيب رجال الدين، أعظم خطر أن يبقى الإطار واللباس الديني والعناوين العامة محفوظة ولكن فارغة المحتوى.

حقيقة العبودية:

الإمام الصادق عليه السلام حينما دخل عليه عنوان البصري وهو أحد طالبي العلوم الدينية في حديث مفصل جميل وسأله عنوان البصري عن مسائل.

---

(1) يونس: ٦٢.

فقال له عليه السلام: «ليس العلم بكثرة التعلم، إنما هو نور يقع في قلب من يريد الله أن يهديه، فاذا أردت العلم فاطلب أوّلاً في نفسك حقيقة العبودية».[1]

فـإذا أردت العلـم فأطلـب فـي نفـسك أوّلاً حقيقـة العبوديـة قبـل أن تــدرس قطــر النــدى وشــرح ابــن عقيــل، ومنهــاج الــصالحين والمــسائل المنتخبـة، ومـع تلـك الدراسـة إلـى أن تقطـع المكاسـب والرسـائل وحتّـى تـصل إلـى البحـث الخـارج فـي كـل ذلـك الطريـق أطلـب فـي نفـسك أوّلاً حقيقـة العبوديـة. هـل انـك عبـد مـتمحض العبوديـة لله تعـالى، أو أن لـك ادعـاءات الربوبيـة؟ ادعـاءات الربوبيـة قـد تكـون بـشكل فرعـوني ظـاهر وقـد تكون بشكل آخر خفي لكن الواقع هو نفس الواقع.

فرعون يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾[2] **بشكل صريح، أحياناً أنا طالب العلوم الدينية أيضاً أقول أنا ربكم الأعلى، حينما يركبني الغرور والتكبر والتعالي على الناس والثقة بالنفس بدل الثقة بالله، ثمّ الاعتماد على الذكاء والاعتماد على العناوين والاعتبارات فهذا ترجمة أخرى لمقولة:** ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ **هو ظاهرة فرعونية طاغوتية لكن تنشأ عند هذا الطالب الصغير وعند ذاك وذاك.**

أطلب في نفسك أوّلاً حقيقة العبودية.

أنا اليوم كنت أريد أن أُذكّر نفسي وأقف مع اخواني في هذا الأمر خاصة بعد انقطاع هذا الاجتماع لأكثر من شهرين.

كم نحن مَحَّصنا نياتنا وكانت العبودية لله هي محور حركتنا فيما نريد وما لا نريد، وفيما نحب وفيما نكره، وفيما نغضب وفيما نتقدم، وفيما نحجم وفيما نقول وفيما نسكت، كم كانت العبودية هي محور حركتنا؟

---

(1) منية المريد: ١٤٨.

(2) النازعات: ٢٤.

أيها السادة الكرام الشيطان لنا بالمرصاد، الشيطان هو عدونا الأوّل الذي يقطع علينا السلوك إلى الله تعالى، الشيطان يقف لكي يقطع علينا الطريق، فكم نراقب أنفسنا ورصد هذا العدو وتحايلاته علينا هنا وهناك؟ هذا يحتاج إلى مراقبة.

العلم أحد الحجب:

لهذا فإن علماء المعرفة والسلوك يقولون إن العلم هو نفسه أحد الحجب، يعني أحد الفواصل والحواجز بيننا وبين الله تعالى.

قد تقول كيف ذلك؟ أليس العلم هو طريق المعرفة؟

نعم هو طريق الوصول إلى الله، وهو في نفس الوقت حجاب بين الإنسان وبين الله تعالى. وتفسير ذلك هو ما نقرؤه في علومنا الأصولية الحوزوية أن العلم مرة يؤخذ على سبيل الطريقية، ومرة يؤخذ على سبيل الموضوعية، إذا أخذنا العلم على سبيل الموضوعية أصبح حاجباً بيننا وبين الله. وإذا أخذناه على سبيل الطريقية أصبح خطوة نحو الله تعالى، العلم آلة نركبها إذا كان هدفي الوصول إلى المزور الحقيقي والمزار، هذا العلم يوصلني، لكنني إذا نسيت المزار والمزور وصار هدفي هو هذه الآلة التي أركبها، إذن سوف لن أصل إلى ذلك المزار.

ولهذا فإن إمامنا الحسين عليه السلام في جملة ذهبية رائعة لا تخرج إلاّ من قلب نوراني مليء بحب الله تعالى، يقول في دعائه المعروف بدعاء عرفة: «إلهي ترددي في الآثار يوجب لي بُعد المزار»[1] يعني وأنا أبحث عنك يا إلهي من خلال الدلائل والآثار، لكن هذه الدلائل توجب لي بُعد اللقاء المباشر بك لأنها

---

(1) البحار ٩٥: ٢٢٥.

هي نفسها سوف تكون فواصل، كذاك الذي يقرأ القرآن الكريم ويكون شغله الشاغل الجوانب الأدبية والبلاغية، وكيفية الاعراب ويغفل عن الجوهر.

العلم قد يوجب لنا بعد المزار حينما نقنع بالعلم الظاهر ولا نهدف إلى الوصول إلى العلم الباطن.

العلم علمان: علم الظاهر وعلم الباطن، موسى عليه السلام حينما قال لرفيقه الخضر: ﴿عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[1] **أي علم كان عند الخضر غير العلم الذي كان عند موسى؟**

يظهر أن موسى كان عنده علم الظاهر أمّا الخضر كان عنده علم الباطن، وموسى بمقتضى تكامله يبحث عما هو أعمق من الظاهر، الأنبياء لا يشبعون من انتهال العلم، حتّى لو كان نبياً ولكنه يذهب وراء المرشد ووراء الناصح، ﴿قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾.[2] ﴿قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾.[3]

هذا أدب المتعلم بين يدي الأستاذ ﴿صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾.

إذن هناك علم الباطن وهناك علم الظاهر، في الحقيقة أن علومنا هي مجرد قشور، فذاك النبي موسى رغم ما عنده من العلم ومع ذلك فهو يبحث عن علم أعمق أمّا الذي هو عندنا فهو مجرد قشور مسطَّرة فحسب. وهي ليست شيئاً في سوق الأولياء وأهل المعرفة.

إذا كان الإمام الحسين عليه السلام يقول: «إلهي من كانت محاسنه مساوي فكيف لا تكون مساويه مساوي، ومن كانت حقائقه دعاوي

(1) الكهف: ٦٦.
(2) الكهف: ٧٠.
(3) الكهف: ٦٩.

فكيف لا تكون دعاويه دعاوي»[1] ان محاسننا هي مساوي، يجب أن نخجل من محاسننا فضلاً عن سيئاتنا، يعني ان هذه الصلاة التي نصليها يجب أن يخجل طالب العلم من صلاته، أرجو أن لا أكون في موضع واعظ غير متعظ إنما أبدأ بنفسي، حينما نصلي وننتهي نفكر هل تقدمنا خطوة للإمام أو لم نتقدم؟ «الصلاة معراج المؤمن»[2] إذن هذه صلاتنا يجب أن نخجل منها حينما لا نعرج فيها إلى الله تعالى، يجب أن نعتذر إلى الله تعالى منها، ولولا أنه أمرنا بها كان علينا أن نجعلها في صحيفة السيئات وليس في صحيفة الحسنات. وقس على ذلك سائر الأعمال، المنبر الذي نرتقيه والدرس الذي ندرسه، الموعظة التي نعطيها. المراقبة مطلوبة، الأعمال التي أقوم بها هل أنا مخلص لله تعالى فيها أو فيها شائبة الأنانيات، فيها شائبة الجسارة على الله والجرأة على الله تعالى.

مراتب الطهارة:

العلماء يذكرون أن مراتب الطهارة والتطهر والتزكية أربع:

١ _ الطهارة من الأحداث والأنجاس المادية وهذه هي مرتبة عوام الناس.

٢ _ الطهارة من المعاصي وهذه هي مرتبة المؤمنين من العوام.

٣ _ تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية فيما بينك وبين الناس، أو فيما بينك وبين الله تعالى، وهذه هي مرتبة الخواص وهي أقل ما يجب أن يصل إليه طالب العلوم الدينيّة، «اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب له ما

(1) صحيفة الحسين: ٢١٢.

(2) البحار ٨١: ٢٥٥.

تحب لها وأكره له ما تكره لها»،[1] هذا المقياس هل هو موجود عندنا؟ إذا كان غير موجود عندنا فمعناه أن الأنانية موجودة، ومعناه أن العبودية لله ليست مستحكمة في قلوبنا، معناه يوجد لدينا ادعاء الربوبية والفوقية على الآخرين.

طالب العلوم الدينيّة يجب أن يكون مثل قطرة الماء فانية في البحر، بحيث لا ترى لها تميزاً وعنواناً على غيرها من القطرات، لكننا الآن نريد أن يكون لنا اسم وعنوان ورسم وهذا هو بداية الشرك.

رحمة الله على أستاذنا الشهيد السيد محمّد باقر الصدر 1 كان يقول: اني كتبت فلسفتنا وعرضته في البداية أن يطبع باسم جماعة العلماء لكن جماعة العلماء رأوا أن الأفضل أن يطبع باسمي الشخصي، وطبع باسم محمّد باقر الصدر وأصبح له شهرة كبيرة واليوم هو الكتاب رقم واحد في العالم الإسلامي، يقول رضوان الله عليه: كنت أفكر مع نفسي وتأخذني حالة البكاء انه أنا لو كنت أدري هذا الكتاب سيكون له مثل هذه الشهرة هل كنت مستعداً أن أعطيه ليطبع باسم جماعة العلماء، أو كنت سوف أحرص على أن يطبع باسمي، هذا التردد في إني مستعد أن أكون فانياً أو لا، هذا التردد يجعلني في حالة بكاء، لماذا أنا لا أجد نفسي سخياً، وإذا كان العمل لله إذن سواء صدر باسم محمّد باقر الصدر أو باسم جماعة العلماء فلا فرق، إذن لماذا أفكر في العناوين الشخصية؟

هذه أمثلة يجب أن تصبح عندنا مقياساً نقتدي به.

٤ _ طهارة السر من الأغيار، يعني لا شيء سوى الله تعالى في قلب الإنسان وهذه هي مرتبة أخص الخواص.

---

(1) عيون الحكم والمواعظ: ٧٧.

الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيها:

«ما أنعم الله على عبد أجل من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره»[١]

أن يخلص قلبه لله فقط، طهارة السر والباطن من الغير.

نحن المطلوب منا أن نصل إلى هذه المرتبة الرابعة، كم نحتاج إلى مراقبة ومحاسبة في كل يوم وساعة وفي كل عمل وموقف، هل هذه الخطوة التي نخطوها تقدمنا بها للأمام أم ذهبت ادراج الرياح؟ هذه الخطوة من العمر، ولا تعود، هل تقدمنا في هذا السفر نحو الله تعالى أم لا؟

الإمام الهادي عليه السلام ونحن في ذكرى شهادته في القصة المعروفة المروية: أن الحاكم العبّاسي حينما وضعه في خان الصعاليك ودخل عليه ابن سعيد ووجده في هذا الخان المزري غير اللائق بالشخصية قال له:

سيدي أرادوا اطفاء نورك حتّى أنزلوك في خان الصعاليك.

فقال له: «يا بن سعيد أنت هنا فانظر ماذا ترى؟».

يقول: فنظرت إلى أعلى، فإذا أنهار وأشجار وحور وجنات وخيرات.

فقال عليه السلام: «لسنا في خان الصعاليك يا بن سعيد، حيثما كنا فهذا لنا عتيد».[٢]

حينما قرأت هذه الرواية قلت أدعو نفسي وأدعوكم للتأمل في هذه الرواية، الإمام الهادي عليه السلام ماذا صنع حتّى أصبح يرى ما يرى، وأصبحت هذه المقامات معه عتيدة؟ هل هذا نتخذه درساً لنا أم أن طالب العلم يبقى يفكر بالأنا، ويفكر براتبه وما شاكل ذلك إذن أصبح طالب تجارة وليس طالب علم، التاجر يفكر ماذا ربح وخسر، أمّا طالب

(1) بحار الأنوار ٦٧: ٢١١؛ مستدرك الوسائل ١: ١٠١/ ح ٨/٩١.

(2) أنظر: بصائر الدرجات: ٤٢٦.

العلم يفكر ماذا أعطى، إذا أعطى فقد ربح، وإذا ادخر لنفسه فقد خسر، تماماً القضية بالعكس بين طالب العلم وطالب التجارة، لكن ألا تجدون أن تفكيرنا في عموم الحالات مثل تفكير ذاك التاجر؟ وكأننا نتفضل على الناس والأمّة والدين، إذا كان راتبنا قليلاً أو بيتنا صغيراً فكأننا متفضلين على الناس! والحقيقة اننا إذا كنا نطلب رضا الله تعالى فالفضل لله، وإذا كنا نطلب هداية الناس فالفضل للناس الذين يهتدون على يدنا، أو يسألوننا أسئلة، نحن لولا هؤلاء الناس كيف نكون معلمين، ما أدرانا اننا ندخل الجنّة أسرع من هؤلاء الناس؟ بمجرد أن يظن الإنسان وخاصة طالب العلم انه يدخل الجنّة قبل ذاك العامي الذي يصلي خلفه فإنه يكون قد أخطأ، وسفينته قد غرقت بل هذا لا يصل إلى شيء بمجرد أن يتصور أنه أفضل من هؤلاء الناس.

أهمية المراقبة:

نرجع إلى مسألة المراقبة فهذا شهر رجب ومن مميزاته انه شهر الدعاء وشهر المراقبة وشهر التربية، الأدعية الواردة في هذا الشهر هي مدرسة عظيمة.

«إلهي خاب الوافدون على غيرك وخسر المتعرضون إلاّ لك».

كل الدنيا لو تعرضنا لها لخسرنا.

«وضاع الملمّون إلاّ بك» الملمّون المحيطون بشئ هؤلاء ضاعوا إذا كان غير الله يلمّون به.

«وأجدب المنتجعون إلاّ من انتجع فضلك»[1] ذاك الذي يريد أن

---

(1) من دعاء للإمام زين العابدين عليه السلام في يوم عيد الفطر إذا انصرف من صلاته قام قائماً ثمّ استقبل القبلة، وفي يوم الجمعة.. أنظر: الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٣٧/ رقم ٤٦.

يرتوي في منتجع في مكان عذب إذا كان ينتجع في غير منتجع فضل الله فقد أجدب، سوف لا يحصل على شيء.

«بابك مفتوح للراغبين وفضلك مباح للسائلين ونيلك متاح للآملين، اللهم فاهدني هدى المهتدين وارزقني اجتهاد المجتهدين ولا تجعلني من الغافلين المبعدين».

أحذّر نفسي وأحذركم من الغفلة والابعاد والاقصاء عن الله، أي أن الله تعالى يطردنا، ويقول أنتم غافلون مثل باقي الناس المهتمين بالدنيا أنتم أيضاً مهتمون بالدنيا.

الله تعالى يقول إذا كنتم غافلين فأنا أبعدكم عن حضيرتي ومحبتي، هؤلاء العلماء الذين كان العلم عندهم طريقاً إلى الدنيا.

يقول الحديث القدسي: «إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أسلبهم حلاوة محبتي»[1] قطرة الدمع في نصف الليل تذهب عنهم، هذه علامة أن الله طردنا، وأن هؤلاء العلماء هم مثل علماء النحو والكيمياء والرياضيات فما قيمتها في طريق المعرفة؟

قد نكون مع علمنا ومع صلاتنا لكن ربما نكون مبعدين عن رحمة الله تعالى لا سمح الله.

نبي الله سليمان حينما دخل على وادي النمل وقالت نملة: ﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها﴾[2] تعالوا نتأمل سليمان من أين عرف كلام الحيوان؟ لم يدرس عند أستاذ،

---

(1) تحف العقول: ٣٩٧.

(2) النمل: ١٨ و١٩.

أحياناً نقرأ في رواياتنا أن النبي ﷺ والأئمّة الأطهار يعرفون كل اللغات يكلمون الرومي بروميته والفارسي بفارسيته وهم لم يدرسوا، ما الذي حدث؟

الذي حدث أن نوراً أصبح في قلوبهم، يعني أشعة أضاءت كل الظلمات أمامهم، أي لا توجد ظلمات أمامهم، أمّا نحن فما هو رصيدنا؟ وكم هو؟ في جانب السير والسلوك إلى الله تعالى كم ربحنا وحصلنا مما حصل عليه الأنبياء والأئمّة؟ الحقيقة ان بضاعتنا مزجاة لا نستطيع أن نتقدم بها، لدينا معلومات بسيطة شكلية، إذن في المراقبة يجب أن يراقب الإنسان اخلاص النية، وما هو هدفه في طلب العلم.

طريقان للوصول إلى الله:

هناك طريقان كلاهما صحيح للوصول إلى الله تعالى:

الطريق الأوّل: هو العبادة.

الطريق الثاني: هو العمل.

قد يقول قائل: إذن علينا أن ننصرف عن المحيط الاجتماعي للتعبد كشأن العباد والزهاد والمتصوفة، هذا المسلك خطأ.

الرواية تقول: «ما اتخذ الله إبراهيم خليلاً إلا لاطعام الطعام وإفشاء السلام وصلاته بالليل والناس نيام».[١]

يعني لا بدّ من عمل اجتماعي، العمل الاجتماعي قد يكون باطعام الطعام، أو هداية الناس ومختلف اشكال الحضور الاجتماعي.

إذا كان الأنبياء قدوة لنا فإن السلوك إلى الله يتقدم بخطين، خط العبادة وخط العمل.

---

(1) علل الشرائع ١: ٣٥/ باب ٣٠/ ح ٤؛ مستدرك الوسائل ١٦: ٢٤٤/ ح ١٩٧٤٢/٦.

الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام:

«خصلتان ليس فوقهما شيء: الإيمان بالله ونفع الاخوان».[1]

نفع الاخوان هو بنفس مستوى الإيمان بالله، أهل المعرفة السالكون يقولون ان تقديم خدمة للعباد، هو مثل العبادات الأخرى في مستوى الايصال إلى الله تعالى.

العلماء يقولون طالب العلم إذا لم يصل إلى الله عن طريق المعرفة فأنه يمكن ان يصل عن طريق خدمة الناس، نحن علومنا في الحقيقة بضاعة مزجاة لا نصل بها إلى شيء فتعالوا لخدمة الناس ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[2] إذا خدمنا الناس حينئذ نكون قد سلكنا إلى الله تعالى.

لاحظوا الإمام زين العابدين عليه السلام حينما يقوم في منتصف الليل ويضع الجراب على ظهره، ويوزع الصدقات على الناس، هل كان الإمام زين العابدين عليه السلام يعمل ذلك مذاقياً ومزاجياً، أو هذا هو طريق السلوك إلى الله تعالى ويجب أن نتعلم نحن ذلك.

طالب العلم هكذا يجب أن يكون في التواضع، في خدمة الناس، في الحضور مع الناس، وهذا نص الرواية: «خصلتان ليس فوقهما شيء: الإيمان بالله، ونفع الاخوان».[3]

روي أن رجلاً من بني إسرائيل اجتهد أربعين ليلة، ثمّ دعا فلم يستجب له، فأتى عيسى بن مريم عليه السلام يشكو اليه ما هو فيه ويسأله الدعاء له، فتطهر عيسى عليه السلام وصلّى ركعتين ثم دعا الله عزّ وجلّ، فأوحى الله

---

(1) تحف العقول: ٤٨٩.

(2) المائدة: ٣٢.

(3) تحف العقول: ٤٨٩؛ بحار الأنوار ٧٥: ٣٧٤.

عَجَلَّ إليه: يا عيسى، إن عبدي أتاني من غير الباب الذي أوتى منه، انه دعاني وفي قلبه شك منك... فالتفت إليه عيسى عَلَيْكِ فقال: تدعو ربك وأنت في شك من نبيّه؟ فقال: يا روح الله.. فادع الله أن يذهب به عني، قال: فدعا له عيسى عَلَيْكِ، فتاب الله عليه وقبل منه...[1]

الله يريد قلباً سليماً زكياً ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[2]

نحن بعد الموت لا يبقى عندنا شي، لا يبقى كتاب ولا أموال ولا بيت ولا أولاد، ولا زوجة، ولا يبقى حجة الإسلام والمسلمين، هذه العناوين التي يجب أن نخاف منها أكثر مما نحبها، نبقى نحن وهذا القلب، إذا كان سليماً نفوز، وإذا كان ملوثاً لا نفوز. لا شيء يبقى عندنا، كل ما نجمعه هنا في الدنيا من عناوين كله يزول، القلب هو الذي يبقى، إذا تصدّقت بتمرة بقلب سليم هذه أفضل مما لو تصدقت بجبل من ذهب بقلب غير سليم. نسأل الله سلامة قلوبنا وأن يعيننا في هذا الشهر شهر رجب على تربية أنفسنا ومراقبتها.

اشتراك الحوزة في العمل السياسي:

ننتقل إلى فقرة أخيرة في حديثنا وهي مسألة اشتراك الحوزة في العمل السياسي كيف ننظر إلى هذا الموضوع؟

الحوزة العلمية والمرجعية الدينية اشتركت في العمل السياسي وحققت نجاحاً كبيراً.

---

(1) أنظر: بحار الأنوار ١٤: ٢٧٨.

(2) الشعراء: ٨٨ و٨٩.

شيعة أهل البيت والعراقيون حققوا أهدافاً جيدة بشكل عام، اليوم هناك صيحات باتجاه عدم دخول الحوزة في الشأن السياسي.

هذا الرأي مرة ينطلق من داخل الحوزة ومرة ينطلق من خارج الحوزة، من داخل الحوزة هناك رأي يقول لا لدخول الحوزة في الشأن السياسي.

وهناك من خارج دائرة الحوزة رأي يقول لا لدخول الحوزة والمرجعية في الشأن السياسي. هذا الأمر على أنه مكرر لكن يحتاج إلى نضج ومراقبة حقيقية، ولا ندخل في انفعالات إذا كنا قد أخطأنا فلنراجع، لأن الاعتراف بالخطأ فضيلة.

وإذا كان موقفنا صحيحاً فلنستمر على ما هو صحيح، ولا نتصلب لموقف دون مراقبة.

أدلة رفض المشاركة السياسية:

هناك رأي من داخل الحوزة يقول ان اشتراك الحوزة في العمل السياسي هو عمل غير صحيح، هذا الرأي قدَّم ثلاثة أدلة:

١ ـ إن هذه المشاركة في العمل السياسي تؤثر على قدسية الحوزة، حينما يتحول طالب العلم وإمام الجماعة والمرجع الديني إلى رجل سياسي، فإن قدسيته ستزول. وإذا زالت القدسية فهذه خسارة، نحن محتاجون إلى أن تبقى قدسية الحوزة حتّى يبقى تأثيرها في القلوب.

٢ ـ إن المشاركة السياسية تجعل الحوزة رهينة التجربة السياسية فإذا نجحت التجربة السياسية نجحت الحوزة وإذا أخفقت التجربة سقطت الحوزة، وسوف تنهار المؤسسة الدينية كلها كما انهارت مثلاً الكنيسة.

٣ ــ إن المشاركة السياسية لطالب العلم تؤثر على الجانب الذاتي لطالب العلم، أليس طالب العلم هدفه تزكية النفس وإعمار قلبه وإصلاح ذاته.

المشاركة السياسية مثل المشاركة الرياضية والتجارية تؤثر على طالب العلم وتفقده صفاءه وإخلاصه ونقاءه الذاتي.

هذه هي أدلة الرفض للمشاركة السياسية.

وفي مقابل هذه الأدلة لدينا جوابان، جواب حلّي وجواب نقضي، لكننا سوف نكتفي بالجواب النقضي.

الجواب النقضي هو أن الأنبياء والأئمّة الأطهار شاركوا مشاركة سياسية، وإذا كانوا أسوة لنا فأمام حضورهم السياسي تسقط كل الأدلة سواءاً عرفنا كيف نجيب عليها جواباً حلياً أو لم نعرف.

بالتالي إذا كانت المشاركة السياسية تؤثر على الجانب الذاتي لدى الإنسان فلماذا شارك الأئمّة الأطهار عليهم السلام مشاركة سياسية حتّى تسلموا زمام الحكم؟ الأنبياء قُتلوا في هذا الطريق ولولا مشاركتهم السياسية لما قتلوا، لو أن موسى وعيسى وهارون لم يتدخلوا في الشأن السياسي لم يقتلهم الفراعنه والجبابرة، بل كانوا يعطونهم حقهم في الحكومة، إذن الابتعاد عن المشاركة السياسيّة ليس هو منهج الأنبياء عليهم السلام ومعنى ذلك أن المشاركة لا تؤثر لا على الجانب الذاتي ولا على الجانب القدسي، بل بالعكس نحن نفهم من الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام أن الطريق إلى الله تعالى هو في خدمة العباد، والسياسة تعني خدمة العباد، وإنقاذهم من الجهالة وحيرة الضلالة.

أمّا الصوت الذي يأتي من خارج الحوزة فهناك تصريحات لمسؤولين ولشخصيات سياسية تقول: إننا نطلب من الحوزة العلمية والمرجعية الدينية أن لا تشارك في العملية السياسية المقبلة، لقد شاركوا

فيما مضى، ونرجوهم الآن أن لا يشاركوا فليكتفوا بدعوة الناس إلى الانتخابات ويتركوا هذه المزرعة لمن هبّ ودبّ من الذئاب والثعابين والثعالب، إن عمل المراجع والحوزة العلمية فقط أن يفتحوا باب المزرعة للناس ليقوم الناس أنفسهم بتطهيرها وغرسها كيفما شاؤوا.

هذا رأي مطروح الآن، الأحزاب العلمانية تطرحه بشكل صريح وتقول إن من الخطأ مشاركة الحوزة والمساجد في العملية السياسية. طبعاً في مظهر القضية يقولون نحن نريد أن تحتفظ الحوزة بقدسيتها وأبوّتها للجميع.

الحقيقة ان هذا الكلام غير صحيح.

الحوزة هي أعرف بآليات تدخلها في الشأن السياسي، أين تتدخل ومتى يؤثر ذلك على قدسيتها وأبوتها، أمّا أن يأتي شخص ويقول أنا أقبّل يد المراجع، لكن المراجع أخطؤوا في المشاركة السياسية وأنا المرجعية يجب أن تحتفظ بقدسيتها، يقول أنا خادم المرجعية ولكن أنا أنصح المرجعية أن لا تتدخل بالشأن السياسي، هذا كلام غريب! وإذا كنت تعترف بقدسيتها وهي قد رأت أن تدخل في العملية السياسية، إذن يجب عليك أن تؤيدها ويجب عليك أن تعتذر عن هذا الموقف.

على كل حال، في الحقيقة نحن نعتقد أن اخراج الحوزة العلمية والمرجعية من العملية السياسية هو خلاف مبدأ المشاركة السياسية، ألسنا نقول المشاركة السياسية للجميع، إن إقصاء الحوزة العلمية وإقصاء المسجد واقصاء هذه الشريحة خلاف مبدأ المشاركة السياسية.

وإذا كانوا يتحدّثون بلغة الديمقراطية فإن هذا خلاف الديمقراطية. إن هذه المؤسسة اسمها المؤسسة الدينية، اسمها الحوزة العلمية، هذه المؤسسة أليس لها الحق أن تقول كلمتها في العراق، كيف

أصبحت غريبة الآن!؟ هذا في الحقيقة إقصاء شريحة مهمة، وهذا خلاف المبادئ الديمقراطية التي ينتمي إليها هؤلاء، نحن نقول المشاركة السياسية للجميع. وكل واحد أعرف بالتدخل وآلياته، الأستاذ كيف يتدخل؟ العامل كيف يتدخل؟ والحوزة كيف تتدخل؟ الأحزاب السياسية كيف تتدخل؟

ان هؤلاء الذين يدعون إلى عدم تدخل المرجعية الدينية والحوزة العلمية في الشأن السياسي، يخافون من استثمار الثقل الديني في انجاح العملية السياسية، لأن الحوزة لها ثقل ديني وامتداد اجتماعي، فلذلك يطرحون شعار لا لتدخل الحوزة والمرجعية في الموقف السياسي حتّى تبقى الساحة فارغة أمامهم، يريدون أن تبقى أمّة كاملة مرمى للسهام والغزو الثقافي والاتجاهات العلمانية. هذه الأمّة تبقى بدون حامي هدف.

ولكن القرآن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] عمل الحوزة هو حماية الناس من الضلال ولا يجوز لأحد من خارج الحوزة أن يفرض أفكاراً ومنهجاً بعنوان الناصح والمدافع عن القدسية، هذه خدعة في الحقيقة لأجل الاستفراد بالناس.

نعم نحن نعتقد أن هناك شروطاً في دخول طالب الحوزة في العمل السياسي.

شروط الدخول في العمل السياسي:

هناك ثلاثة شروط للدخول في العمل السياسي من قبل طلاب الحوزة العلمية:

---

(1) الرعد: ٧.

١ _ عدم الاستغراق في العمل السياسي، بحيث يتحول طالب العلم إلى سياسي محترف طول الوقت.

طالب الحوزة يجب أن يشترك في العمل السياسي لكن لا يستهلك في العمل السياسي، يجب أن يبقى هو المرشد والواعظ والمربي والمذكر بالله وبالآخرة ومحي القلوب المريضة.

٢ _ الابتعاد عن الفئوية والانفتاح على الجميع في الوقت الذي تدخل الحوزة والمرجعية في العمل السياسي، لكن يجب أن تفتح نفسها إلى الجميع، لكل الجماعات والأحزاب. الحوزة العلمية هي خيمة للجميع، لمن يريد أن يستظل بها، أمّا الذي لا يريد أن يستظل بظلها فهو خارج عنها.

اليوم يقولون إن الحوزة فئوية وقد دعمت قائمة سياسية معينة، كلا.. في الحقيقة نحن نعتقد أن الحوزة لم تعتمد قائمة معينة، ولكن هذه القائمة _ الائتلاف العراقي الموحّد _ هي التي احتمت بالحوزة والمرجعية واستظلت بظلها، وأمّا القوائم الأخرى كان لهم رأي معاكس فهم لا يريدون الدخول تحت ظل الحوزة والمرجعية، وهم أحرار بالطبع في اختيارهم، ولهذا دخل السني والشيعي والكردي وأحزاب علمانية دخلوا في ظل المرجعية. هذا يؤكد أن الحوزة والمرجعية الدينية هي أب للجميع.

٣ _ حالة الرقابة والنصح يجب أن تكون محفوظة لدينا، يعني اننا حتّى إذا قبلنا بتوجهات السياسة يجب أن لا نذوب فيها، بل تبقى لنا حالة الرقابة، العالم الديني والمرجع وطالب العلم وإمام الجماعة أين ما كان ينظر إلى هذه الحكومة أو إلى هذا الوزير أو رئيس الوزراء أو المؤسسات الحكومية إن كانت صالحة يبارك لهم وإن كانت غير صالحة ينصحهم ويرشدهم ويتحدّث إلى الجمهور عن الواقع، لا يصح أن يقول هذه قائمتنا وكل ما يصدر منها هو جيد.

هـذا خطـأ، حينئـذ سـوف نـصغر ونخـسر الجمهـور ونخونـه، ونخـون الله ورسـوله، ولهـذا فـإن المرجـع الـديني وطالـب العلـم يجـب أن يكونـوا فـي حالـة الرقابـة والنـصح، وهـذا سيـساعد علـى المحافظـة علـى قدسـية الحـوزة وأهـدافها ونحـن نرجـو فـي العمليـة المقبلـة والتجربـة الـسياسية أن يكـون للحـوزة والمرجعيـة دور ومـشاركة فعالـة، كمـا هـي الآن الحـوزة العلميـة والمرجعيـة سـاهرة علـى هـذا الأمـر حتّـى نـنجح فـي التجربـة المقبلـة. ونحـن نعتقد اننا نجحنا في التجربة الأولى وغير نادمين عليها.

الحـوزة العلميـة والمرجعيـة سـتدرس المرحلـة المقبلـة وتختـار الموقف المناسب ولا يملى عليها شرط.

في التجربة الأولى اخترنا طريقة الدائرة المغلقة لكل العراق، أمّا الآن فإن المرجعية الدينية وقائمة الائتلاف اختارت منهج الدوائر المتعددة هذا لا يعني أن الأوّل كان غير صحيح بل لكل مرحلة موقف جديد.

نسأل الله أن ينصرنا على أنفسنا ويجعل قلوبنا عامرة بذكره.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١/ شعبان المبارك/ ١٤٢٦ هـ)

المحاضرة الثامنة:

الإسلام ومبادئ الديمقراطية

موضوعات المحاضرة:

١ _ الحجاب بين الخالق والمخلوق.

٢ _ كيف نمارس الديمقراطية.

٣ _ الواقع السياسي والأزمات الثلاث.

بسم الله الرحمن الرحيم

«إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الانْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ، فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ، وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ... إِلَهِي وَأَلْحِقْنِي بِنُورِ عِزِّكَ الْأَبْهَجِ فَأَكُونَ لَكَ عَارِفا، وَعَنْ سِوَاكَ مُنْحَرِفا، وَمِنْكَ خَائِفا مُرَاقِبا».(1)

نحن اليوم في الأوّل من شهر شعبان المبارك شهر رسول الله ﷺ وهذا المقطع من الدعاء الذي قرأته عليكم هو من مناجاة أمير المؤمنين المعروفة بالمناجاة الشعبانية والتي كان أئمّتنا الأطهار يلتزمون بها لأهميتها وعظمتها، وهذا الملتقى كما قلت في أحاديث سابقة ليس هو محاضرة وإنما هو تداول، في هذا الملتقى الشريف في الوقت الشريف وفي المكان الشريف حضرني أن أتحدّث في محاور ثلاثة:

المحور الأوّل:

حديث ديني نستلهمه من مناجاة أمير المؤمنين في شهر شعبان، عن الحجُبُ بين الله والإنسان.

المحور الثاني:

حديث علمي مقارن عن الإسلام ومبادئ الديمقراطية.

المحور الثالث:

حديث سياسي معاصر، عن الواقع العراقي الراهن.

---

(1) الإقبال ٣: ٢٩٩.

الحجاب بين الخالق و المخلوق:

أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الانْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ».

فهنا ثلاثة أمور مترتبة:

الانقطاع إلى الله.

يؤدي إلى نور أبصار القلوب.

يؤدي إلى انكشاف الحجب وزوالها.

ثمّ الوصول إلى الله تبارك وتعالى وهو قوله عليه السلام: «وَأَلْحِقْنِي بِنُورِ عِزِّكَ الْأَبْهَجِ» هذه ثلاثة أمور مترتبة، نحن سوف نتحدّث موجزاً بإذن الله تعالى عن هذه الأمور، لكن نبدأ أوّلاً بالحديث عن الحُجُب، وكيف يمكن اختراقها بنور أبصار القلوب، وكيف تشرق أبصار القلوب من خلال الانقطاع؟

إذن لنبدأ من فكرة الحجب ثمّ نصل إلى القلوب المضيئة ثمّ نعرف أن الانقطاع هو الطريق إلى ذلك.

الواقع أن هذه الحقائق هي في غاية العظمة. نحن لا نعرف إلاّ معانيها اللغوية، أمّا حقيقة كمال الانقطاع وحقيقة «أنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك» وحقيقة الحُجُب فيما بيننا وبين الله. فنحن لا نعرف معناها الحقيقي، ما نعرفه هو عبارة عن المعاني اللفظية، ومع ذلك فإن أئمّتنا عليهم السلام قدّموا لنا هذه المائدة العظيمة المليئة بالغذاء الإلهي لنجلس عليها ونتعلم ونمدّ أبصارنا إليها.

والحقيقة أن لديَّ رغبة متطاولة أن نقف نحن _ طلاب الحوزة الدينية _ أياماً وشهوراً في دراسة هذه المعاني، فنكون من العارفين «فأكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً ومنك خائفاً ولك مراقباً يا ذا الجلال الإكرام».

هذه المناجاة الشعبانية تحتاج إلى عشرات الدروس المعرفية التربوية والفلسفية. وإن من الحيف والظلم أن طالب العلوم الدينية لا يستثمر شهر شعبان على الأقل في الاستغراق في معاني المناجاة «وقد جرَت مقاديرك عليّ يا سيدي فيما يكون مني إلى آخر عمري، وبيدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي ونفعي وضري...، إلهي قد جُرت على نفسي في النظر لها فلها الويل إن لم تغفر لها»[1] هذا إمامنا هكذا يقول فماذا نقول نحن؟

ثمّ يعرج بنا في الدرس العرفاني ويقول: «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك...».

الحُجُب بين الله والإنسان:

الحُجُب مفهوم وحقيقة تدل عليها النصوص القرآنية والروايات الشريفة بما لا يقبل الشك، كما لدينا مفهوم وحقيقة العرش والكرسي واللوح المحفوظ. وهذه حقائق نحن لا نعرف إلاّ معانيها اللفظية، هناك حقيقة أخرى اسمها حقيقة الحجب بين الخلق وبين الخالق، القرآن الكريم يؤكدها حين يقول: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2] إذن هناك غطاء لا يسمح للإنسان في هذه الدنيا بمشاهدة الحقائق الكبرى، التعبير القرآني هو غطاء، والتعبير في الروايات الشريفة الحجاب والحُجُب، والمعنى واحد.

الله تبارك وتعالى لا يحتجب عنه شيء من خلقه، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

---

(1) الإقبال: ٢٩٦.

(2) ق: ٢٢.

﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ﴾.[1]
﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾.[2]
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.[3]

إذن لا يوجد حجاب فيما بين الله والخلق، لكن من طرف المخلوق هناك حجاب بين المخلوق والخالق، ولهذا فإن الكافرين يوم القيامة يقولون: ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾[4] **أي أننا في الدنيا لم يكن لدينا سمع ولا بصر، وفي الآخرة أصبحنا نبصر ونسمع،** ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ﴾.[5]

ما هو الحجاب بين المخلوق والخالق؟

إن الفهم الإسلامي لطبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق تستبطن وجود حقيقتين:

الأولى: هي وجود الحجاب بين المخلوق والخالق.

الثانية: أن هناك عملية شهود قائمة غير منقطعة، وهذا الحجاب لا يمنع عنها، هناك حجاب لكن رغم وجود هذا الحجاب فهناك شهود أيضاً، الإنسان وكل الموجودات هي شاهدة. والله تعالى مشهود لها لا عياناً ولا بالشهود البصري المادي، بل بالشهود الحقيقي، أي أن كل إنسان هو يشهد خالقه دائماً وأبداً في عين جهله وغفلته ورغم وجود الحجاب وانسداله، ولهذا نقرأ في الدعاء «يا خير

(1) سبأ: ٣.
(2) فصلت: ٥٤.
(3) ق: ١٦.
(4) السجدة: ١٢.
(5) الملك: ١٠ و١١.

شاهد ومشهود»[١] إذن الله تعالى مشهود وهو أوضح وأجلى مشهود في نفس الوقت الذي يوجد عنه حجاب.

هذا أمر يحتاج إلى تفسير.

الإمام الحسين عليه السلام يحلّق في هذا المعنى في معنى شهود الخلق لله تعالى بنحو الشهود الدائم، حينما يتحدّث في دعاء عرفة ويقول: «عميت عين لا تراك عليها رقيباً...، وخسرت صفقة عبدٍ لم تجعل له من حبك نصيباً».[٢]

ويقول: «كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدل عليك».[٣]

لاحظوا إذن لا يوجد غياب ولا محجوبية، هناك حجاب في عين الشهود، إذن الله تعالى غير غائب رغم أن هناك حجاباً بين الخلق وبين الله تعالى كما تقول الروايات الشريفة: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة»[٤] ورسول الله صلى الله عليه وآله حينما عُرج به إلى السماء كما في الرواية حينما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السرادقات والحجب قال: «ولولا تلك الحجب لهتك نور العرش كل شيء».[٥]

هذه مفاهيم جدير بنا أن نقف عندها، وهنا يأتي العلماء والعرفاء ويقولون إن هذا الأمر ليس له إلاّ تفسير واحد وهو ما يقوله الإمام الكاظم عليه السلام: «ليس

---

(1) البحار ٩١: ٣٩٦.
(2) البحار ٩٥: ٢٢٦.
(3) البحار ٩٥: ٢٢٥.
(4) البحار ٧٣: ٣١.
(5) تفسير القمي ٢: ١١.

بينه وبين خَلقِه حِجابٌ غير خلقه»[1] يعني الخلق أنفسهم هم الحجاب، أي أنا وأنت نحن الحجاب بيننا وبين الله تعالى، وهذا يحتاج إلى شرح فلسفي ومعرفي واسع، وسوف أُعطيكم موجز الفكرة.

شرح وتوضيح:

إن بيننا وبين غيرنا من الحيوانات مثلاً اشتراك في الجنس، الذي هو عبارة عن القاسم المشترك فيما بين الإنسان وبين بقية الكائنات الحية، وأنت حينما تسقط خصوصية هذا النوع، وهذا النوع وهذا النوع، وتزيل هذه الصفات، فسوف تصل إلى جنس اسمه (الحيوان)، وهكذا أفراد الإنسان حينما تسقط عنها صفاتها الشخصية من اللون والطول والعرض وما شاكل، وتسقط منك أنت هذه الصفات الشخصية فسوف يبقى بين مجموع أفراد الإنسان خيط مشترك وهو الحقيقة الإنسانية، فنحن ننتهي إلى شيء واحد، إذا أسقطنا هذه القيود والحواجز والموانع والألوان فسوف يظهر الجوهر الذي هو الإنسانية التي بيني وبينك مشتركة، وبعدها حقيقة الحيوانية، وبعدها حقيقة المادية التي تجمع بين الحيوان والنبات وسائر الأجسام المادية، إن هذه الحقائق (الإنسانية)، (الحيوانية)، (المادية)، نحن لا نشاهدها ولا نلمسها ولكنا نعرفها ونشهدها ونفهما فهماً شهودياً، يعني أنا وأنت نشترك بخيط واحد اسمه الإنسانية هي موجودة عندك وعندي وهي التي تجمعنا وسوف نصير إليها ونكتشفها حينما نتجرد عن وضعنا وتعيننا المادي. هذه الحقيقة إذا أدركناها نصعد إلى أعلى ونقول إن هذه الموجودات كلها المادية وغير المادية الروحية والعقلية والإنس والجن والملائكة يوجد شيء مشترك فيما بينهم إذا أسقطت حدودهم الشخصية

(1) توحيد الصدوق: ١٧٩.

والنوعية والجنسية من الجنس الأدنى حتّى تصعد إلى الجنس الأعلى تجد شيئاً مشتركاً موجوداً في الإنسان وموجوداً في الحيوان والملائكة والجن والسماء والأرض والشجر وفي كل المخلوقات، شيئاً مشتركاً في جميعها تستطيع أن تجعله خبراً لمبتدأ فتقول الإنسان موجود، الحيوان موجود، الجن موجود، الملائكة موجودة، باقي الأجناس ما هو المشترك بينها؟ الوجود، هنا شيء يجمع بين المخلوقات كلها اسمه الوجود، وحينئذ لو أسقطت جميع الألوان والشكليات وهو ما يسميه الفلاسفة التعيّنات بمعنى أنا وجود قد تشكَّل، مطلق وقد تعين، مثل الغمام حينما يتشكل على شكل قطرات مطر، الغمام هو غاز وهو سحاب، لكن قد تعين وأصبح هذه القطرة وهذه القطرة، هناك شيء يجمعها، ونحن يجمعنا شيء، كل المخلوقات شيء واحد وهو أصلها وجوهرها وبدون ذلك لا تضحى شيئاً، مثلاً أنت لو سحبت الوجود عنك لا يبقى منك شيء. الملائكة والسماء والأرض لو سلبت منها الوجود لا يبقى منها شيء، إذن حقيقة هذه المسميات هي الوجود ولا يوجد شيء آخر، ما بقي هي حدود وتقطيعات، أي هي تقسيمات ذاك الوجود الواسع العريض الذي تقسَّم وأصبح أنا وأنت... نبات وحيوان، هو شيء واحد وذاك الشيء الواحد جامعها جميعاً، وموجود فيها جميعاً، الوجود موجود فيك أكثر من وجودك أنت فيك، مثلاً أنت زيد بن أرقم، الوجود موجود في زيد أكثر من وجود زيدية زيد بن أرقم. وهو كونه ابن أرقم وكونه زيداً. فأنت إذا سلبته الوجود لا يبقى زيد.

هذا المعنى يفتح لنا أفقاً واسعاً وهو أن الوجودات المتعينة ليست هي شيء آخر غير الله تبارك وتعالى، ولو كانت شيئاً آخر بالمعنى الفلسفي واللغوي للآخر وللغير، لكان هذا شركاً، لو قلت أنا غير الله ولي وجود مستقل عن الله، أي أنت شيء وهناك شيء آخر اسمه الله تعالى لكان هذا شركاً.

القرآن يقول: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ إذن ما أنا وما أنت وما باقي الوجودات؟

هي عبارة عن تشكلات وتعينات وتقطيعات لذاك الوجود البسيط الذي يغمرها هنا وهنا، هي مغمورة في ذاك الوجود البسيط، ولهذا كان الله تعالى أقرب إليكم من حبل الوريد، وهو أعلم بكم من أنفسكم.

هذا المفهوم وهذه الصفحة إذا تجاوزناها تكشف لنا صفحة أخرى هي صفحة الحجاب بين الخلق والخالق، إذا كان الله موجوداً فينا جميعاً بل هو أصلنا بل هو يغمرنا وهو نحن، بنمط من أنماط التشكل ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[١] ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢] و﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[٣] أنتم تشكلات وألوان مثل ألوان قوس قزح، لا حقيقة لها وإنما هي انعكاسات للرؤية. نحن حينما نفكّك الإنسان نجده لا شيء إلاّ الوجود، هذه العباءة المطلية باللون الأحمر أو الأزرق، أتركها تحت الشمس عدة أيام فإن اللون سوف يتبخر ويبقى النسيج فقط، إذن اللون هو شيء عارض، هكذا الإنسان والموجودات.

مشكلة الإنسان انه حينما يلتفت إلى ذاته، ويقول أنا جوعي وعطشي ونسبي وطولي وعرضي، هو يتحدّث بالاطار وبالحاشية وليس بالمتن، يتحدّث في الشكل والقشر وليس في المحتوى واللب، المحتوى والجوهر والأصل هو الوجود، أنا وجود تشكل بهذه الألوان، لكن نحن ننسى الوجود ونبحث عن الألوان، هذه مشكلة الإنسان وهذا هو الحجاب.

---

(1) النجم: ٤٣ و٤٤.

(2) البقرة: ١١٥.

(3) الحديد: ٣.

أنت الآن تعرف من صاحبك الذي أمامك معالم وجهه وابتسامته ونطقه وطوله، وتريد أن تكتشف جوهره، وتريد أن تعرف أن روحه فعلاً منفعلة أو مسرورة، عصبي أو مرتاح، وديع أو شرير، أنت تريد أن تعرف هذه القضايا، لكن كيف تعبر إلى هذه القضايا التي هي مستورة بالبدن، الحجاب هو هذا البدن، لكن في نفس الوقت الذي هو حجاب، هو يقرأ لك ذاك، حينما تبتسم أو تبكي يعرف شخصيتك ما هي، فالبدن في الوقت الذي هو حجاب بينك وبين روح صديقك وجوهره هذا البدن الذي هو حجاب هو في نفس الوقت مرآة وهو جسر للعبور إلى الجوهر الحقيقي لصديقك.

الله تبارك وتعالى محجوب عن خلقه بهذه الحجب والأُطر التي هي تعينات وهمية وعدمية. ولا يوجد شيء غير الوجود، ما عدا الوجود عدم، هذه الاعدام هي التي ننشغل بها فتنسينا وتحجبنا عن رؤية الجوهر وهو الله تبارك وتعالى.

والإنسان إن استطاع أن يسلك ويعبر ويتقدم هذه الشكليات فإنه سيصل ويقترب حتّى يكون قاب قوسين أو أدنى دنواً واقتراباً من العليّ الأعلى. يعني يكاد يلتحم بالجوهر وهذا ما يكون يوم القيامة ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾[1] وهناك يكون الالتحام مع الحقيقة ومع الوجود حيث لا يبقى عدم، كله وجود، نحن في عالم الشهادة (٩٩%) منا كله اعدام والباقي (١%) هو الوجود، وهو حقيقة الإنسانية الموجودة فينا، والتي ترجع إلى حقيقة الوجود المبثوث

---

(1) الفجر: ٢٧ و٢٨.

فينا.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

«لا حجاب بينه وبين خلقه غير خلقه».[١]

فإذا استطاع الإنسان أن يكسر هذه القيود ويعبر نفسه والأنا والرغبة والشهوة والراحة، دائماً يبحث عن الجوهر الحقيقي الذي في قلبه، وهو الله تبارك وتعالى، «وقلب المؤمن عرش الرحمن»،[٢] سوف يصل إلى الله تبارك تعالى، هذا الوصول يمكن أن يحققه الإنسان في الدنيا من خلال الانقطاع، لكن يوم القيامة يتحقق للجميع من خلال سقوط هذه الاعدام وانتهائها ﴿فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٣] هناك ترى الحقيقة التي كنت أنت فيها وعليها، حقيقة الوجود الذي ترسخ فيك في الدنيا، وذاك الوجود في الدنيا إن كنت قد آمنت كان نورانياً، وإن كنت كفرت كان ذاك الوجود نيرانياً، والإنسان حصيلة دنياه اما الجنّة وامّا النار لا يوجد شيء آخر، حصيلة نفس علاقته مع الوجود، اما نور أو ظلمات، لاحظوا هذه هي فكرة الحجب.

الروايات تقول ان هناك سبعين ألف حجاب، وقد وقف العلماء لتفسير هذه الحجب، وفسّروها أنها عبارة عن مراتب النفس الإنسانية، كل التفاتة إنسانية للذات هي حجاب عن الله تعالى، وكل انقطاع وكسر لهذا الحجاب هو خطوة نحو اللقاء مع الله تعالى، حتّى نصل إلى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اني ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وبعده

(1) التوحيد: ٣٠٨/ باب حديث ذعلب/ ح٢.

(2) أنظر: البحار ٥٥: ٣٩/ ٦١.

(3) ق: ٢٢.

وفيه»[1] ان سبعين ألف حجاب هي عبارة عن مراتب النفس وتدرجها نحو الحقيقة بعداً أو اقتراباً وهي عبارة عن تعينات الوجود لأنك أنت وجود متعين، اليوم بشكل وغداً بشكل آخر ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2] أنت وجود، وأنت ظل وانعكاس لله تعالى وتتجدد وتتشكل، الله تعالى كل يوم في شأن، الله تعالى كل يوم فيك في شأن، يوم تقترب ويوم تبتعد ويوم تصوم وتقترب، ان الحُجب هي عبارة عن هذه التعيّنات.

كيف نعبر هذه الحجب ونتجاوزها؟

عبور الحجب:

هنا نحتاج إلى أبصار وعدسات. هذه العدسات هي عدسات القلوب وأبصار القلوب، القلب عنده بصر وقد يكون القلب أعمى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾[3] الآية القرآنية يسمعها المؤمن، ويسمعها الكافر في نفس الوقت، لكن الكافر يوم القيامة كأنه لم يسمعها بينما المؤمن قد سمعها يقول: ﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً﴾[4] أما الكافر يوم القيامة فإنه يقول: ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا﴾[5] أمّا في الدنيا لم نكن نبصر ولم نكن نسمع.

الإسلام يقول ان الانقطاع أي العبور على هذه الحدود والقيود

---

(1) شرح أصول الكافي ٥: ٤٢٧؛ تفسير الميزان ٨: ٢٦٣.
(2) الرحمن: ٢٩.
(3) الأعراف: ١٧٩.
(4) آل عمران: ١٩٣.
(5) السجدة: ١٢.

والأنانيات، هو سبيل الوصول إلى الجوهر.

هذا هو الطريق.

الإمام الباقر عليه السلام يقول: «لا يكون العبد عابداً لله حق عبادته حتّى ينقطع عن الخلق كلهم، فحينئذ يقول هذا خالص لي فيقبله».[١]

ونقرأ أيضاً في الأدعية الرجبية «وانك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك»[٢] وحينئذ سيجتمع الشهود في عين الغفلة، قد يمر أمامك إنسان وأنت تراه لكن يسألك هل رأيتني؟ تقول لم أرك.

كيف نمارس الديمقراطية؟

حديثنا اليوم عن الديمقراطية، وحيث تعمل لجنة اعداد الدستور لصياغة دستور عراقي يعتمد الإسلام من ناحية والديمقراطية من ناحية ثانية. سوف أُلخّص لكم ما هي مبادئ الديمقراطية وأشير إلى ما هو الموقف منها.

الديمقراطية تعتمد على أربعة مبادئ فيما يقوله منظرو الديمقراطية:

المبدأ الأوّل: السيادة للشعب.

المبدأ الثاني: المساواة السياسية.

المبدأ الثالث: الشورى الشعبية.

المبدأ الرابع: اعتماد مبدأ الأغلبية.

هذه المبادئ استعرضناها في كتابنا (المذهب السياسي في الإسلام).

---

(1) الحبار ٦٧: ١١١.

(2) مصباح المتهجد: ١٦٢.

لننظر اين يصطدم الإسلام مع هذه المبادئ الأربعة؟

ثمّ ما هو العلاج الذي سوف نعطيه عنوان الفرق بين الشريعة والقانون؟ وتُحل معضلة التصادم حينما نعرف ما هو الفرق ما بين الشريعة والقانون. ونحن الآن بصدد تثبيت قانون وليس تثبيت شريعة.

المبدأ الأوّل:

السيادة الشعبية تعني ان الشعب هو مصدر السلطات ولا توجد سلطة فوق سلطة الشعب، ولا قانون ولا شريعة ولا مبادئ ولا أي شيء فوق سلطة الشعب، وهذا يعني ان فرض شريعة إلهية على الشعب هو خلاف مبدأ الديمقراطية التي تقول أن الشعب هو مصدر السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية.

المبدأ الثاني:

المساواة السياسية التي تعتمد على الحرية المطلقة.

الحقوق السياسية للجميع، والجميع يتساوون في استحقاقهم للعملية السياسية، وإذا كانت المساواة السياسية للجميع، إذن لا يحق للدولة أن تتبنى ديناً معيناً، حيث يجب أن يكون الإسلام والمسيحية والإيمان الكفر سواسية. إذن لا تستطيع أن تقول الإسلام هو دين الدولة، أو النصرانية هي دين الدولة، أو التوحيد هو دين الدولة، يجب أن تكون الدولة بلا دين. هذا وفق مبادئ الديمقراطية، وفق مبدأ المساواة السياسية، إذا قلت: إن الدولة تتبنى ديناً ولو التوحيد مقابل الكفر إذن الدولة صارت متحيزة. وهذا خلاف المساواة السياسية، وهكذا تسعى الديمقراطية أن لا تتبنى الدولة ديناً بل تسعى لأن توجد تعددية في الأديان، توجد تعددية حتّى لا تكون غلبة دين على دين، تجعل الجميع بمستوى واحد كمّاً وكيفاً، بينما في الإسلام فإن الدولة يجب ان تبتنى الدين الإسلامي ولا تقف على الحياد رغم حرية باقي الأديان.

المبدأ الثالث:

الشورى الشعبية وهو يعني ان الشعب هو الذي يحدد السياسات العامة للبلاد، الصلح أو الحرب أو ما شاكل ذلك. فالشعب هو الذي يحدد السياسات العامة. لذلك في الدول الغربية الآن ليس رئيس الجمهورية يقرر السياسات العامة.

المبدأ الرابع:

اعتماد مبدأ الأغلبية، عند الاختلاف في وجهات النظر.

الإسلام يرى ان المقياس هو حقانية المواقف وتطابقها مع معايير الحق والباطل وليس الأكثرية، الأكثرية مثلاً إذا دعوا إلى الشذوذ الجنسي أو دعوا إلى الاباحية، أو دعوا إلى مجموعة من الأمور تصطدم مع الحق من وجهة نظر الإسلام، هنا الأغلبية ليست هي المقياس، وفي نفس الوقت وعلى مستوى القانون فإن الإسلام يقبل بالأغلبية ورسول الله أيضاً كان يستشير وكان يخضع لأغلبية القوم من المهاجرين والأنصار.

في الحقيقة هنا قد يُرى وجود تصادم بين مبادئ الديمقراطية ومبادئ الإسلام. وهذا بحث واسع قد نؤجله ولكن أضع يدكم على مفهوم هو الفرق بين القانون والشريعة هنالك شيء اسمه شريعة وهنالك شيء اسمه قانون.

ولتوضيح الفرق بين الشريعة والقانون.

الشريعة الإسلاميّة تقول نفقة الأولاد والزوجة واجبة على الزوج وعلى الأب، هذا شريعة، لكن إذا جئت أنت وابنك وأراد أن يعمل العمل الفلاني وزوجتك أرادت أن تصبح موظفة وتقول: أنا موافق لكن بشرط أن الميزانية نقسمها بيننا بالنصف، أوافق أن تصبحي موظفة لكن نضع قانوناً جديداً لبنائنا العائلي.

يعنـي انـك لـو أذنـت لزوجتـك أن تعمـل عمـلاً معينـاً فهـذا لـيس خلاف الشريعة هذا اسمه قانون اتفقنا عليه.

في الإسلام حق الطلاق بيد الزوج لكن هذه الزوجة قد تشترط قبل العقد أن يكون الطلاق بيدها أيضاً، مثل ما هو بيد زوجها شرطاً ضمن العقد، هذا لا يخالف الشريعة، هذا قانون والمؤمنون عند شروطهم.

هنالك فرق بين ما هو شريعة وما هو القانون؟

الـشريعة تقـول أمـوراً كثيـرة لكنـك حتّـى تتوافـق مـع محيطـك الاجتماعي قد تقنن قانوناً.

فشريعة الإسلام لها رأي، ولكن حين تعيش في ظروف مختلفة ومتعددة الأطراف، فأنت تستطيع أن تؤجل مادة في الشريعة. تؤجل تطبيقها حتّى تكون نمط مجتمع لا اسميه المجتمع الإسلامي المطلق إنما اسميه مجتمعاً مشتركاً مجتمعاً متعدداً ونحن نعيش الآن في مجتمع متعدد.

نحـن الآن بـصدد كتابـة قـانون للعـراق، ولـسنا بـصدد كتابـة شـريعة. هـذا القـانون يـشترط أن لا يكـون مـضاداً للإسـلام، ولكـن لا يـشترط أن يكـون طبـق الإسـلام مئـة بالمئـة حيـث يمكـن أن نؤجـل بعـض القـوانين الإسلاميّة حسب قانون «المؤمنون عند شروطهم».

على سبيل المثال فإن القانون في الجمهورية الإسلاميّة الإيرانية قد أقرَّ أموراً كثيرة هي في القانون وليست في الشريعة. فمثلاً لا يحق لك أن تتزوج زوجة ثانية إلاّ بشرط أن ترضى الزوجة الأولى وهذا غير موجود في الشريعة.

ومثـال آخـر لتوضـيح الفكـرة حينمـا تكـاثف عـدد الـسكان فـي ايـران وأصبحوا يريدون تقليص عدد السكان _ تحديد النسل _.

فـسنّوا قانونـاً هـو أن لا يـسمح بـأكثر مـن طفلـين للـزوج والزوجـة،

فهذا الشيء ليس ضد الشريعة ولا هو من الشريعة، هذا شيء يتصالح مع الشريعة اسمه قانون، يعني أن الدولة تقول أنا لا أمنع أن يكون لك أكثر من ولدين ولكن الدولة لا تعطيك بطاقة تموينية ولا جنسية، ولا يدخلون مدرسة ولا ولادة مستشفى ولا طباً مجانياً، فالدولة تقول من حقي هذا، وأنت لك أن يكون لك خمسة أطفال لكن الدولة لا تعطيك الخدمات، وهذا هو معنى لا يجوز قانونياً لا يقول لا يجوز شرعياً حيث يوجد فرق بين الشرع والقانون.

نحن أيها الاخوة يجب أن نميّز بين ما هو القانون وما هي الشريعة.

ففي القرآن لا توجد السلطة التشريعية ولا السلطة القضائية والتنفيذية، لا يوجد هكذا أشياء. هي عبارة عن توافقات هذا كله غير موجود في الشريعة لكن كونه غير موجود لا يعني أن الشريعة ضده.

هذا هو الفرق بين الشريعة والقانون، نحن في الحقيقة باتجاه تحقيق ديمقراطية على الطريقة الأقرب للإسلام، ولا نقول على الطريقة الإسلاميّة. فإن نفس هذا القانون يثبت المادة الأولى ان الإسلام هو الدين الرسمي للبلاد. وهذا خلاف الديمقراطية أصلاً. أوّل مادة في الدستور هي خلاف الديمقراطية فكيف يقولون بعد سطرين لا يجوز سن قانون يخالف مبادئ الديمقراطية؟ يعني هم يريدون أو على الأقل نحن يجب أن نطرح هذا الأمر.

انهم يريدون ديمقراطية ليست على الطريقة الغربية، وإنما ديمقراطية تنسجم مع اعتبار أن الإسلام هو الدين الرسمي للبلاد، ونسجل معه أن الهوية الثقافية للبلاد تنسجم مع ضرورة احترام الشعائر الحسينية وما شاكل ذلك.

فنحن نستطيع أن نقول أن هناك إمكانية تصالح وتقارب ونحن بصدد تثبيت قانون وليس تثبيت شريعة.

الواقع السياسي والأزمات الثلاث:

أختم الحديث مضطراً _ لضيق الوقت _ لكن أذكركم بالواقع السياسي الراهن في العراق.

هناك ثلاث أزمات:

الأزمة الأولى:

أزمة الموقف العربي، فالدول العربية ما تزال قد أدارت للعراقيين ظهرها وقلبت لهم ظهر المجن، وموقفها سلبي مع مسار العملية السياسية في العراق.

الأزمة الثانية:

السنة العرب في داخل العراق ما زالوا يعملون معنا على سبيل الاحتياط والشك حيث يتقدمون خطوة ويرجعون خطوتين ويحنون إلى الأيام السالفة.

الأزمة الثالثة:

أصدقاء البعث، الذين يحنون إلى أمّهم، فالبعث هو أمّهم التي غذتهم عشرات السنين، والتي ربا جلدهم ولحمهم وعظمهم بأموال البعث ودماء الشعب.

نحن أمام هذه الأزمات جاء الموقف الأمريكي الذي يريد أن يضغط باتجاه الوصول لنتائج سريعة في أحسن الفروض، بشكل محاولات ضغوط على السُنة يدعوهم للقبول بالعملية السياسية، وعلى الشيعة أن يتنازلوا في مسألة حزب البعث والفيدرالية والإسلام. تنازلات معينة، وكانت الأحداث التي شهدناها في الحقيقة أصداءاً لتلك الضغوط، هذا الحريق الذي نشب في العراق والذي شاء الله

أن يطفئه، وأنا هنا أذكر قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[1] أوقدوا ناراً للضغط على المسار المتقدم السريع لشيعة العراق، هناك طلبوا منّا ان نتراجع عن عدة قضايا، اشعلوا ناراً للحرب حتّى نتراجع، وراء هذا الأمر أيادي أوقدت ناراً لايقاع الفتنة في الوسط الشيعي، توجد شبكات تخطيط بمجرد أن حدث في النجف شيء تجد أن كل العراق قد احترق، وكأن هناك مجموعة معبئة قد هيأت نفسها وأعدت واستعدت للهجوم على منظمة بدر والمجلس الأعلى ومؤسسة شهيد المحراب، في غضون عدة ساعات، هذا تخطيط للايقاع بأبناء البيت الواحد، وهناك قوات من وراء الحدود تريد أن تضغط وأشعلت القضية، وشاء الله تعالى بلطفه أن أطفئت النار، هذا معنى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ واستمرت المسيرة ونجحنا ونجحت العملية السياسية وأنتم تعرفون أن ما حدث عشية تقديم الدستور للتصديق عليه، حدث مثله قبل سنة ونصف عشية الانتخابات، كلما نريد أن نصل النهاية تحدث مشاغلة، هذه المشاغلة ليست من هؤلاء المساكين بل هي من أيادي معادية للشعب العراقي.

ولكننا بحمد الله تعالى سرعان ما تجاوزناها وعبرناها وانتقلنا إلى خطوة لاحقة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) المائدة: ٦٤.

(٢/ ذي الحجة/ ١٤٢٦ هـ)

المحاضرة التاسعة:

موقع المؤسسة الدينية

في الشأن السياسي

موضوعات المحاضرة:

١ _ موقع المؤسسة الدينية في الشأن السياسي.

٢ _ رؤية الليبرالية.

٣ _ رؤية الإسلام.

٤ _ المؤسسة الدينية لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام.

٥ _ درجات الإيمان.

٦ _ قصة العلاّمة الشوشتري.

٧ _ ذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

٨ _ واقعنا السياسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانُوا مُجْرِمِينَ * وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾.(1)

هـذه الآيـة نفتتح بهـا الحـديث عـن موقـع المؤسـسة الدينيـة فـي الدولـة وفي الشأن السياسي.

اليـوم أحـد المحـاور المهمـة للجـدل بـين الليبراليـة الحديثـة مـن طـرف، والإسلام من طرف آخر، هو موقع المؤسسة الدينية _ والتي تعني باصطلاحنا الحوزة العلمية _ في الدولة وفي إدارة البلاد وفي الشأن السياسي. ونحن اليوم إذ نعيش انفتاحاً جديداً ضخماً في العراق نواجه هذا الجدل.

فـي البدايـة نحـن نعـيش هـذه الأيـام ذكـرى وفـاة الإمـام الجـواد عليه السلام وأجـواء العـشرة الأولـى مـن ذي الحجـة وأجـواء الحـج والحجـيج وضـيافة الـرحمن، ثـمّ أجـواء عيـد الأضـحى، هـذه أجـواء دينيـة، كمـا نعـيش أجـواءاً سياسـية مهمـة يـشهدها العـراق. نـسأل الله تعـالى أن يجعلنـا مـن المـستفيدين من الأجواء الدينية وذكريات الأئمّة الأطهار والمناسبات الدينية.

موقع المؤسسة الدينية في الشأن السياسي:

المحور الذي نبدأ به الحديث هو موقع المؤسسة الدينية.

---

(1) هود: ١١٦ و١١٧.

وفي الإشارة لموقع الحوزة العلمية ودورها عادةً يستشهد المتحدّثون من رجال الحوزة العلمية بقوله تعالى: ﴿وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(1) **فهذه الآية مهمة جداً في بيان موقع الحوزة العلمية، وضرورة ارتباط الأمّة بالفقهاء، وضرورة تصدي مجموعة من الناس للتفقه في الدين، ثمّ العودة إلى الناس لأداء دورهم الرسالي.**

ومن الآيات التي يمكن الاستفادة منها في هذا الشأن أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ﴾.(2)

﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾: **يعني أصحاب الفضل، القرآن يقول كما يشير لذلك بعض المفسرين فلولا كانت الأمم السابقة التي هلكت، بمعنى هلاّ كان فيهم أولو بقية.. وبمعنى آخر انه لو كان في القرون السابقة مجموعة من أهل الفضل يتصدون للاصلاح والنهي عن الفساد لما هلكوا، وهكذا يكون مدلول الآية هو ضرورة وجود طليعة ترشد الأمّة وتهديها وبدون ذلك فإن مصير الأمّة إلى الهلاك. مما يعني ضرورة تصدي المؤسسة الدينية للشؤون الاجتماعية والسياسيّة.**

حديثنا هذا ليس حديثاً تفسيرياً، وإنما هو حديث الجدل بين الليبرالية في أحد محاور جدلها وبين الإسلام.

رؤية الليبرالية:

الليبرالية سجّلت على المؤسسة الدينية إشكالين وانتهت إلى القول

---

(1) التوبة: ١٢٢.

(2) هود: ١١٦.

بضرورة إبعاد المؤسسة الدينية عن إدارة البلاد، ورغم أن الليبرالية سجّلت هذين الاشكالين على المؤسسة الدينية المسيحية (الكنيسة) إلاّ أننا شهدنا سراية هذين الاشكالين لعالمنا الإسلامي حيث بدأ بعض الباحثين ينحو نفس المنحى، ويتجه نفس الاتجاه داعياً إلى ضرورة إبعاد المؤسسة الدينية عن الشأن السياسي في العالم الإسلامي، ثمّ في الوسط الشيعي بالذات بعد أن حققت المؤسسة الدينية في الوسط الشيعي نجاحاً كبيراً في المجال السياسي.

القضية بدأت من الغرب في مواجهة الكنيسة منذ القرن السابع عشر والثامن عشر حيث تمّت هزيمة الكنيسة ونجاح الليبرالية، هذا الأمر بدأ يسري إلى عالمنا الإسلامي وأصبحنا نشهد من يقول بالنظرية الليبرالية تجاه المؤسسة الدينية الإسلاميّة ويدعو إلى عزل هذه المؤسسة عن الشأن السياسي بشكل عام وعن إدارة البلاد بشكل خاص.

ونحاول الآن عرض هذين الإشكالين بشكل موجز ومبسّط ومناقشتهما:

الإشكال الأوّل: إشكال في المنهج.

الإشكال الثاني: إشكال في النظرية.

الإشكال في المنهج:

يقول هذا الإشكال إن المؤسسة الدينية أخفقت في مواكبة العصر ومماشاة الحياة، إذن يجب أن تعزل هذه المؤسسة في مراكز خاصة، وفي جانب من جوانب المجتمع، ودون أن يكون لها شأن في تسيير الحياة في البلاد، والتأثير على مجرى الأمور الاجتماعية والسياسية.

في ليلة أمس شاهدت من يتحدث عبر أحد الفضائيات وهو شاب مثقف سعودي خارج على المؤسسة الدينية السعودية يتحدّث بحديث ربما فيه الكثير

من الصحة يقول: (إن مؤسستنا الدينية _ وهو يتحدّث عن الحوزة الدينية الوهابية _ لغتهم هي لغة الموت وليس الحياة، يتحدّثون بلغة الهجاء والتجريح والطعن بالناس، ويجلدون الشعب بسياط كلماتهم القاسية واتهامهم بالعصيان والفسق والشرك، والناس لم تكن لتتحمل هذه اللغة).

هذا هو الإشكال الأوّل على المؤسسة الدينية انها تتحدّث بلغة الموت وليس بلغة الحياة، لغة الحديث عن الموت وما بعد الموت فلا توجد لغة حياة، لا يوجد حديث في تحديد المسؤوليات التي يعيشها الإنسان ومعالجة همومه ومصالحه ومشاكله، والناس أبناء هذه الحياة ويريدون من ينفتح عليهم من منطلق همومهم الحياتية وليس فقط هموم ما بعد الموت. فالناس يريدون دواءاً لدائهم، ومعالجة واقعهم.

هذا تصوير معاصر لبعض المؤسسات الدينية التي أخذت نسقاً ومنهجاً غير صحيح، وليس كما جاء به الإسلام، وبالتالي ولدت ردة فعل من هذا القبيل.

إن هذه المؤسسة الدينية التي تتهم الناس بالكفر والضلال والفسق والفجور والبدعة، وانهم عصاة وأتباع الشياطين لأدنى مخالفة، هذه لغة ليست كفوءة بأن تحكم البلاد ولا أن تُسيّر العباد. فاللغة التي تحاسب الإنسان على ملبسه وسيارته ليست لغة مؤهلة لتحكم البلاد، بل هي لغة محاكم التفتيش التي عاشتها الكنيسة، محاكم التفتيش وإعدامات وإحراق بالنار لتهمة الخلل في العقيدة.

اليوم المؤسسة الدينية الوهابية بشكل خاص، والسلفية بشكل عام، وبعض المدارس المتحجرة خلقت ضدها إشكالية في المنهج. هذه الإشكالية هي التي دعت إلى نفرة الناس من المؤسسة الدينية، وهذا إشكال معاصر ومُعاش وله قسط كبير من الواقعية.

الإشكال في النظرية:

ثمّ تطور الإشكال من المنهج إلى إشكال في النظرية، رغم أن أصل القضية هو رد فعل على ممارسات وتخلفات سلوكية، ولكنه تحول إلى إشكال على مستوى النظرية، فأصبحت الليبرالية تقدم نظرية تقول إن المؤسسة الدينية لها احترامها الخاص كثقافة من الثقافات، لكن يجب إبعادها عن المؤسسة السياسية، وهذا الأمر بحثوا عن أصوله النظرية في الفكر الإسلامي، وقالوا إذا دخلنا في عمق الفكر الإسلامي سنجد ما يدل عليه، وما يمكن اعتماده كشواهد وأرقام على أن المؤسسة الدينية يجب أن تعيش بعيداً عن الشأن السياسي.

من قبيل قوله تعالى: ﴿ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾.[3]

هذه كلها تستخدم كشواهد وأرقام على أن الأنبياء وهم على رأس المؤسسة الدينية مهمتهم البلاغ والوعظ والإرشاد، وأما إدارة البلاد فهي متروكة لغيرهم، أمّا حكومة رسول الله ﷺ والحروب التي خاضها ﷺ فإنها لم تكن هدفاً مقصوداً، فالرسول ﷺ لم يكن يهدف إلى إقامة حكومة وحاكمية وإنما لعدم وجود البديل الأفضل فقد انساق إليها النبي انسياقاً قهرياً.

هذا هو الإشكال في النظرية والتشكيك في موقع المؤسسة الدينية حتّى من وجهة نظر إسلاميّة.

---

(1) المائدة: ٩٩.

(2) الشورى: ٤٨.

(3) الرعد: ٧.

وهناك من يكتب ويُنظّر لهذا الموضوع في العالم الإسلامي العربي وغيره.

رؤية الإسلام:

هل أن المؤسسة الدينية دورها هو الوعظ والإرشاد فقط أم لها دور أكبر؟

الإسلام يرى أن هذه المؤسسة الدينية موقعها هو (الولاية) وهذا الموقع يلخّص مهمات هذه المؤسسة الدينية في ثلاثة عناوين:

هداية الأمّة، وحماية الأمّة، وخدمة الأمّة.

فهذه الأمور الثلاثة يلخصها القرآن الكريم تحت عنوان الولاية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] **فالنظرية الإسلاميّة هي (نظرية الولاية) وبقطع النظر عن تفعيل هذه الولاية ومن هم بالضبط أصحاب هذه الولاية. لكن أصل النظرية هي أن المؤسسة الدينية والتي يقف الأنبياء وأئمّة الهدى عليهم السلام على رأسها ليس دورها هو دور الكتّاب والمؤلفين والواعظين ومجرد الوعظ والإرشاد، وإنما لها دور أعمق من ذلك. هو دور ولاية أمر الأمّة والشهادة عليها بما يستحقه هذا العنوان.**

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.[2]

وهذه النظرية قد تحتاج إلى مزيد من الاستدلال والاستشهاد

---

(1) المائدة: ٥٥.

(2) البقرة: ١٤٣.

والبحث والتفصيل وربما نتناولها في محاضرات لاحقة. لكن حديثنا بالدرجة الأولى في هذه المحاضرة هو عن الإشكال المنهجي.

لماذا تولدت صيحات ونظريات تدعو إلى عزل المؤسسة الدينية وحجبها وإنزال ستر بينها وبين الأمّة وإبعادها عن إدارة البلاد وسياسة العباد؟

لماذا هذا الإشكال؟

هل هو إشكال مفتعل أم له جذور وأسباب؟

الحقيقة أن له أسباباً وعوامل نابعة من عمق هذه المؤسسة الدينية، فالممارسات الخاطئة في بعض أوساط هذه المؤسسة، وخاصةً السلفية منها والمتحجرة جعلت الناس يتبرمون ويهربون من المؤسسة الدينية ورجالها وبرامجها وفعالياتها، ولم يكن ذلك بفعل الهجمة الثقافية الموجودة ضدنا، بل حتّى قبل هذه الهجمة الثقافية كان هناك تبرّم لدى سطوح واسعة من الناس، وهروب من المؤسسة الدينية خاصةً في نموذجها الوهّابي ثمّ السلفي بشكل عام والمتحجّر بشكل أعم.

المؤسسة الدينية لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام:

الحقيقة أن المدرسة الإسلاميّة الأصيلة والمتمثلة بمنهج أهل البيت عليهم السلام بعيدة عن هذا الإشكال المنهجي.

هذا الإشكال نشأ من التحريف في المنهج، والابتعاد عن المدرسة الأصيلة الإسلاميّة المتمثلة بآل البيت عليهم السلام.

هذه المدرسة الأصيلة تتعامل مع الإنسان على أساسين:

الأساس الأوّل: النظرة الايجابية.

الأساس الثاني: روح الحنان والعطف.

نحن بوصفنا أعضاء في هذه المؤسسة الدينية كيف نتعامل مع الآخر، حتّى لا تتولّد الإشكالية المنهجية وتتطور فيما بعد إلى إشكالية نظرية؟

الإسلام ماذا يرى وكيف يتعامل مع الآخر؟

مدرسة أهل البيت عليهم السلام نجحت في التعامل مع الوسط العام للمجتمع وانفتحت عليه برحابة صدر وقبول واحتضان، فيما أخفقت مدارس أخرى في هذا المجال.

كيف حافظت المؤسسة الدينية عند أهل البيت على ارتباطها الوثيق مع الجماهير فيما لم تحافظ المؤسسة الدينية الأخرى على مثل هذا الإرتباط؟

لا يعرف العالم الإسلامي اليوم ارتباطاً أقوى من مستوى ارتباط جمهور أتباع أهل البيت بمرجعيتهم الدينية، حيث حالة الفداء والتفاني والتبرك والتيمّن والتقديس، بينما لا نجد مثل هذه الحالة في المؤسسات الدينية الأخرى.

لقد أصبحت المؤسسة الدينية في الوسط الشيعي تؤثر على المسارات السياسية الكبرى، فكيف حدث هذا؟

لأن مدرسة أهل البيت حافظت على المنهج الإسلامي الصحيح في مجال تقييم الجمهور وكيفية التعامل مع عامة الناس.

إن لدينا مئات النصوص ومعها مئات من الممارسة السلوكية التي قدّمها الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام لأسس التعامل مع الآخرين وكيفية النظر إليهم.

وأنا لا أستطيع في هذه المحاضرة إلاّ أن أشير إلى نماذج منها لمحض الإشارة والتذكير.

الحديث عن رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سروراً»[1] فهذا مفهوم رائع جداً لا تمتلكه المدنية الحديثة والليبرالية. ونحن نأسف أن الكثير من هذه المفاهيم منسية في بعض المؤسسات الدينية ذات اللغة التكفيرية للآخر والتجريح بالناس.

مثل ذلك حديث: «شيعتنا منّا خُلقوا من فاضل طينتنا».[2]

ومثله حديث: «والله ما بعدنا غيركم، وإنكم معنا في السنام الأعلى، فتنافسوا في الدرجات».[3]

ومثل ذلك النص القرآني القائل: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.[4]

أو حديث: «إنّ الإيمان عشر درجات»[5] هذه الأحاديث الثابتة بالتواتر الإجمالي.

درجات الإيمان:

ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الإيمان على عشر درجات فلا يقول صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتّى ينتهي إلى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك درجة فارفعه إليك برفق ولا تحملنّ عليه ما لا يطيق فتكسره فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره».[6]

(1) الكافي ٢: ١٦٤/ باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم.../ ح ٦.
(2) بحار الأنوار ٥٣: ٣٠٣.
(3) المحاسن ١: ١٤٢/ ٣٨، عنه البحار ٦٥: ٢٧.
(4) الفرقان: ٧٠.
(5) الكافي ٢: ٤٥/ ح ٢؛ الخصال: ٤٤٧/ ح ٤٨.
(6) أصول الكافي/ الكليني ١: باب درجات الإيمان.

فحين نستعرض هذه المنظومة الفكرية الرائعة فسوف نعرف كيف نتعامل مع الآخر؟ فهل نتعامل بلغة التسقيط والهجاء والشتائم وجلد هؤلاء الناس، أو نتعامل بلغة «كلكم معنا في الجنّة فتسابقوا في الدرجات»؟ حينئذٍ ينتعش هذا الإنسان السامع حينما نتعامل معه على اعتبار انه من الناجين وانه من عباد الرحمن وإلاّ فسوف يهرب منّا إذا تعاملنا معه بطريقة أخرى.

هذه هي لغة الخطاب القرآني:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[1]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.[2]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.[3]

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[4] **وغير ذلك.**

في الرواية التي رويت عن رسول الله ﷺ في قصة شكاية بُريدة الأسلمي من الإمام عليّ عليه السلام في حديث طويل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[5] **قال ﷺ إن الله سبحانه وتعالى يبعث أقواماً يوم القيامة، تمتلئ موازينهم بالسيئات، فيقال لهم هذه السيئات فأين الحسنات.**

فيقولون ربنا لا نعرف لنا حسنات، فقد كنا في الدنيا عصاة.

فإذا النداء من قبل الله عز وجل إن لم تعرفوا لأنفسكم حسنات فإني أعرفها لكم.

---

(1) المؤمنون: ١.
(2) آل عمران: ١١٠.
(3) البينة: ٧.
(4) هود: ١١٤.
(5) الأحزاب: ٥٧.

ثمّ يقال لأحدهم خذ بيد أبيك وأمك واخوانك وأخواتك وقرابتك وخاصتك ومعارفك فادخلهم الجنّة.

فيقول أهل المحشر أما الذنوب فعرفناها فما كانت حسناتهم؟

فيقول الله ﷻ: «يا عبادي أن أحدهم مشى ببقية دَين عليه لأخيه فقال له: خذها فإني أحبك بحبك لعليّ بن أبي طالب ولك من مالي ما شئت فشكر الله تعالى لهما وأوجب لهما ولوالديهما الجنّة».(١)

هذه الظاهرة من المحبة والتعاطي الايجابي مع الآخر، نجدها في عامة الناس مما يعني أن الجذر لدى هؤلاء الناس هو جذر نقي، جذر الولاء لله ولرسول الله وآل بيته الأطهار عليهم السلام.

نعم ربما هناك إصابات وجروح في مجمل بنيانهم النفسي، لكن جذرهم الروحي نقي.

ونحن نجد هذه الحالة من الإيثار لدى الأكثرية الساحقة ممن نسميهم عوام الناس، فهؤلاء هم بالحقيقة شيعة أهل البيت عليهم السلام، لماذا نستكثر أن يكون هؤلاء من أهل الجنّة؟ لماذا أضع نفسي من الناجين وهذا الشاب الجالس أمامي أوبّخه وأمزّق أوصاله؟ من قال أنا أفضل منه؟ ربما تكون معلوماتي أكثر منه، لكن لا أدري هل أنا أفضل منه عند الله تعالى؟

وهكذا يجب أن نتعامل مع الأمّة والجمهور، وأن لا نتعامل معهم بالهجاء وجلد الناس، بل بالعكس فتح الصدر لهم، هؤلاء الناس الذين رأيناهم في العراق وفي غير العراق حين انتصروا لنداء الدين والوطن ألا

(1) أنظر: البرهان في تفسير القرآن: تفسير الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

يستحقون الشكر والتقدير بقطع النظر عن وجود بعض الأخطاء والمعاصي لديهم، أليس هؤلاء هم الذين ربما يبدل الله سيئاتهم حسنات؟

قصة العلامة الشوشتري:

العلامة الشوشتري صاحب كتاب (الخصائص الحسينية) كان واعظاً أخلاقياً مربّياً رائعاً، دُعي يوماً ما إلى محفل وعظ جماهيري واسع واحتشد الناس، ولمّا وصل إلى ذاك المحفل، ولم يكن هناك سيارات في ذلك الوقت وإنما كانوا يتنقلون على الدواب، نزل من دابته ثمّ جاء إلى المحفل وارتقى المنبر، وبعد البسملة بدأ بالبكاء، فبكى الناس مع بكائه وأجهش المجلس بالبكاء، ثمّ بعد أن أنهى قسطاً من البكاء، قال: أتدرون لماذا بكيت؟ قالوا: لا؟ قال: بكيت لأني لما وصلت إلى هذا المحفل وربطت زمام دابتي، شعرت كأنها إلتفتت إليّ بلسان حالها، وقالت: يا شيخنا الشوشتري لقد كنتَ أمانةً على ظهري وأنا أوصلتك سالماً إلى هذا المكان، إياك إياك أن تهمل الأمانة التي على ظهرك ولا توصلها سالمة إلى الناس. ثمّ أجهش بالبكاء وبكى الناس ونزل من على المنبر.

لقد كانت هذه محاضرة وموعظة منطلقة من رؤية أخلاقية لنقد النفس قبل الآخر، ونقد الذات قبل نقد الآخرين، بخلاف نظرية تكفير الآخرين والفتوى بحلية قتلهم، كما وصلت اليه الوهابية والمدارس السلفية، بينما نجد مدرسة أهل البيت تتعامل بشكل آخر، تتعامل بما هو المنهج الإسلامي الصحيح، تستقبل الآخرين برؤية ايجابية، وبروح الحنان على الناس، وليس روح الحاكمية على الناس والكراهية لهم،

«الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيت سروراً»[1] هذه هي روح الحنان، فحتى إذا لم يكن لي رؤية إيجابية عن هذا الشخص لكن يجب أن أتعامل معه بروح الحنان. فهذا عبد من عباد الله. وأنا مسؤول عن إنقاذه من الجهل والضلال، فطالب العلم ورجل الدين مسؤول عن إنقاذ الغرقى من بحر الجهل، ويجب أن يتعامل مع الغريق بروح الحنان لأجل إنقاذه وليس بروح العداء له. هذه هي رؤية وتعامل المؤسسة الدينية الشيعية التي بقيت ناجحة إلى اليوم، بينما وجدنا مؤسسات دينية أخرى قد أخفقت، إن النجاح هنا والإخفاق هناك له خلفية سلوكية، وخلفية نظرية، ونحن يجب أن نعرف الأصول الصحيحة التي ربّانا عليها الإسلام ونبي الإسلام والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

ذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام:

هذه أيام ذكرى ميلاد السيد المسيح حيث اليوم هو اليوم الثالث من الشهر الأوّل لسنة ٢٠٠٦ للميلاد، لقد كان السيد المسيح إنساناً عظيماً.

الرواية التي يرويها الشيخ الكليني[2] أن عيسى عليه السلام قال لحواريه يوماً: لي إليكم حاجة.

قالوا: يا نبي الله ما حاجتك؟

قال: تقضونها لي؟

قالوا: نعم.

---

(1) الكافي ٢: ١٦٤/ ح ٦.

(2) أصول الكافي ١: ٣٧.

قال: مدّوا أرجلكم فأغسلها لكم!

مدّوا أرجلهم فغسلها لهم.

إستغربوا من هذا الموقف، نبي الله، روح الله وكلمته يقوم بهذا العمل.

قال: إنما قمت بهذا العمل حتّى أعلمكم كيف تتعاملون مع الناس.

لقد كان عيسى رجلاً عظيماً وسوف أذكر لكم عظمته وعظمة رسول الله ﷺ ثمّ المقارنة بين العظمتين.

إن أكثر من ثلثي العالم يرتبط بعيسى عليه السلام دينياً وروحياً، إذن هو إنسان عظيم، استطاع أن ينجح بحيث بقي ذكره إلى اليوم، فضلاً عن أن الإسلام يمجده، قدرة التأثير لديه منذ مئات السنين مستمرة. لكن عيسى عليه السلام مع ما يمتلك من قدرة في التأثير على مرّ القرون بحيث يمسك بيديه قلوب ملايين الناس. فإن نبينا ﷺ أعظم منه.

الفرق بين نبينا وبين عيسى عليه السلام أن عيسى عليه السلام كانت قدرته في التأثير على أمّته ولحد الآن، هي بمستوى الإرتباط الإجمالي. أن هناك رب ونحن نرتبط بالرب، وانهارت المؤسسة والشريعة التي جاء بها ولم يبق شيء منها، الآن لم يبق من المؤسسة المسيحية ولا الفكر المسيحي على الأرض، ولا في مجال الإدارة والسياسة، وإنما العالم الغربي المسيحي يُدار الآن من قِبَل أناس ليس لهم علاقة بالدين، أو بالاحرى لا يأخذون مواقفهم وأدوارهم من الدين، وفي الوقت الذي نجد أن نبينا ﷺ وهو الذي أبقى ذكر الأنبياء وأحيى تعاليمهم ورسالاتهم كانت قدرته في التأثير بمستوى أن أمّته ما تزال قائمة، ومؤسسته ما تزال تتمتع بالدور القيادي، والمدرسة كاملة ولم تسقط، ولعل إلى ذلك جاءت

الإشارة في الدعاء «وباركت لحبيبك محمّد ﷺ في أمّته وعترته وذريته».[1]

حينما نتحدّث عن شخص عيسى عليه السلام وشخص نبينا ﷺ نجد أن ملياراً وربع المليار إنسان يرتبطون برسول الله ﷺ، هو صلوات الله عليه رجل بُعث في الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً يرتبطون به إرتباطاً بحيث يفتدونه بكل شيء، هذه الأمّة الإسلاميّة مستعدة أن تفتدي رسول الله ﷺ ودينه ورسالته وقرآنه بكل شيء حين تحين الساعة المطلوبة.

واقعنا السياسي:

ننتقل بحديثنا إلى واقعنا السياسي موجزاً بعد النجاح الذي حققته الإرادة العراقية في الانتخابات الأخيرة في ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٥ وكان نجاحاً رائعاً تاريخياً، وبعد هذا النجاح أصبحنا نواجه تآمراً على الإرادة العراقية، حيث الدعوة لإعادة الانتخابات، واتهام الانتخابات بالتزوير، والعمل على إسقاط شرعيتها، وهذه الدعوة تصدر من أناس ومن مجموعات هي بالأصل لا تؤمن بشرعية هذه الأنتخابات، وهي مخالفة لها بالأصل، ومن الأوّل حيث كانت هذه المجموعات تخالف الانتخابات. ولكن اضطرت أن تعمل بها، عسى أن تحصل على شيء في الحكم، ولما أخفقوا أصبحوا يمارسون عملية التآمر، ولما أخفقوا في عملية التآمر، عادوا إلى لغة الإرهاب، بحيث نلاحظ أن العراق منذ شهر كان الوضع فيه هادئاً وبدون إرهاب، وبعد فشل هؤلاء في الانتخابات، وفشلهم في التآمر على

(1) مصباح المتهجد: ٤١٩/ الفقرة منقولة من دعاء السمات.

الانتخابات، عادت مجموعاتهم مرة أخرى لتمارس الإرهاب، حيث تم قتل الأبرياء من العراقيين في معظم المناطق بسبب انتمائهم إلى مذهب آل البيت عليهم السلام أو التحاقهم بمؤسسات الدولة مثل الشرطة والحرس.

ما هو الموقف؟

إن موقفنا في مواجهة هذا الواقع يتمثل في أمرين:

أوّلاً: التواصي بالصبر والتواصي بالحق.

ثانياً: الاستمرار بالعملية السياسية.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(٢/ صفر الخير/ ١٤٢٧ هـ)

المحاضرة العاشرة:

الدين والشريعة

ثوابت ومتحركات

موضوعات المحاضرة:

١ _ مستويات الإيمان.
٢ _ صفة رسول الله ﷺ .
٣ _ لمحة من حياة السيد الخوئي 1.
٤ _ ما هو الجديد العالمي؟
٥ _ النهوض بالحوزة العلمية.
٦ _ إشكال الحداثة على المؤسسة الدينية نظرياً.
٧ _ عناصر النجاح في المؤسسة الدينية.

بسم الله الرحمن الرحيم

«إِلَهِي حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ، وَاسْلُكْ بِي مَسْلَكَ أَهْلِ الْجَذْبِ».(١)

«إِلَهِي إِنْ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ».(٢)

«عَلِمْتُ بِاخْتِلافِ الْآثَارِ وَتَنَقُّلاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ».(٣)

«إِلَهِي تَرَدُّدِي فِي الْآثَارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزَارِ فَاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ... إِلَهِي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْآثَارِ فَأَرْجِعْنِي إِلَيْكَ بِكِسْوَةِ الْأَنْوَارِ وَهِدَايَةِ الاسْتِبْصَارِ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاعْتِمَادِ عَلَيْهَا».(٤)

أيها السادة الكرام يا من تُعقد عليهم آمال المذهب والطائفة والعراق.

اليوم حيث نعيش ذكريين، ذكرى شهادة الإمام الحسن الزكي المظلوم وذكرى رحلة واحدٍ من زعماء الطائفة آية الله العظمى السيد الخوئي 1.

لا بدّ أن أتحدّث شيئاً عن الإمام الحسن عليه السلام وعن السيد الخوئي 1 ولكن يبقى هذا الحديث واللقاء الشهري هو لقاء بصدد تقديم بحثٍ

---

(1) مقاطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة؛ كلمات الإمام الحسين: ٨٠٤.

(2) البحار ٩٥: ٢٢٥.

(3) السابق.

(4) البحار ٩٥: ٢٢٦.

معرفي أوّلاً، وبصدد تقديم بحثٍ علمي نظري ثانياً، إضافة إلى النظر في مستجدات الأحداث في الواقع السياسي.

ولهذا فإن لدي اليوم ثلاثة محاور في الحديث:

المحور الأوّل: حديث معرفي.

المحور الثاني: حديث علمي.

المحور الثالث: حديث سياسي.

مستويات الإيمان:

الإيمان يمكن تصنيفه إلى ثلاثة مستويات:

المستوى الأوّل: الإيمان العلمي.

المستوى الثاني: الإيمان المعرفي أو العرفاني.

المستوى الثالث: الإيمان العشقي أو الوجداني.

الإيمان العلمي هو الإيمان القائم على أساس الاستدلال. يؤمن الإنسان بالله تبارك وتعالى باعتباره خالقاً بدليل النظم، ودليل الممكن والواجب، وما شاكل ذلك من الأدلة. هذا نسميه الإيمان العلمي. وفي هذا الإيمان يشترك الفلاسفة مع غيرهم من المؤمنين بالله تعالى. وهو إيمان قائم على أساس استدلال عقلي. هذا ممكن أن نسميه الإيمان العلمي أو الإيمان العقلي، لكن الإسلام ينتقل بنا إلى المستوى الثاني من الإيمان.

المستوى الثاني من الإيمان هو إيمان العارفين، إيمان العرفاء غير إيمان العلماء والفلاسفة «اللهم عرّفني نفسك فإنك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف رسولك»[1] هنا شيء آخر غير العلم بالله تبارك وتعالى، غير ما يثبت لدى

(1) مصباح المتهجد: ٤١١.

الفلاسفة من أن لهذا الكون خالقاً، هنا يأتي قول «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[١] هذا غير العلم والإيمان العلمي، هنا مرتبة أعلى هي المعرفة بالله تبارك وتعالى «السلام على محال معرفة الله»[٢] محال معرفة الله هم الأنبياء وأهل بيت النبوة، وليسوا هم أصحاب الاستدلالات العلمية العقلية كسائر الفلاسفة.

معرفة الله التي تقترن مع الخوف من الله، والرجاء الذي يتشرب به روح الإنسان وبدن الإنسان «من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا»[٣] هذا شيء آخر، ولهذا لا تقول هذه النصوص «من علِم بالله» وإنما تقول «من عرف الله» المعرفة غير العلم، وهذه أحد المعطيات القرآنية. أن المعرفة غير العلم، هذا هو المستوى الثاني من الإيمان.

المستوى الثالث من الإيمان هو المستوى الأعظم وهو إيمان المحبين، إيمان العاشقين، إيمان أولئك الذين يتحول المعتقد عندهم من علم في العقول إلى معرفة بالنفس، إلى تشرب بالوجدان وذوبان وانهيار وصعق في ذات الله، هذا شيء آخر هذا هو إيمان العاشقين المجذوبين، ولهذا فإن الإمام الحسين عليه السلام وهو سيد أهل المعرفة والجذب الإلهي، يقول: «إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسلك أهل الجذب».

وفي دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في المناجاة الشعبانية يقول:
«إلهي وألهمني وَلَهاً بذكرك إلى ذكرك».[٤]

---

(1) شرح مئة كلمة: ٥٧.
(2) مقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة.
(3) الكافي ٢: ٦٨.
(4) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٨.

وكذلك في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام:

«وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صَفَّيت لهم المشارب وبلغتهم الرغائب».[1]

هذا الإيمان يسمى إيمان العاشقين، إيمان المحبين، إيمان الذين لا يرون لكل الدنيا وزناً في مقابل الحب لله تبارك وتعالى.

الطرق إلى مستويات الإيمان:

ما هي الطرق والأساليب للوصول لهذه المستويات من الإيمان؟

الإيمان العلمي العقلي طريقه هو الاستدلال ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾[2] **هذا هو طريق الاستدلال** ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3] **هذا استدلال علمي وكذلك قوله تعالى:** ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[4] **هذا استدلال علمي أيضاً حصيلته هو إيمان الفلاسفة واعتقادهم أن لهذا الكون خالقاً.**

ننتقل إلى إيمان العارفين وليس إيمان الفلاسفة، إيمان العرفاء وليس إيمان العقلاء، هذا الإيمان بالمستوى الثاني الطريق إليه هو التأمل والانقطاع.

الانقطاع إلى الله تبارك وتعالى الخلوة مع الله، بدون انقطاع عن مشاغل الدنيا بكل مستوياتها لا يمكن أن يتحقق هذا المستوى من

---

(1) الصحيفة السجادية: ٤١٢.

(2) الأنعام: ٧٧.

(3) الأنعام: ٧٨.

(4) الغاشية: ١٧.

الإيمان «إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك».[١]

التأمل والانقطاع هو الطريق للمستوى الثاني من الإيمان، والروايات تدفع بهذا الاتجاه «تفكّر ساعة خير من عبادة سنة»[٢] والصلاة اليومية هي عبارة عن فترة انقطاع.

الطريق للمستوى الثالث من الإيمان وهو إيمان الحب وإيمان العشق وإيمان الذوبان في ذات الله، الطريق إلى ذلك هو المعايشة مع الله وتطهير القلب من الأغيار، انك تعيش مع هذا الأنيس وتطلّق ما عداه، تعيش معه في الليل والنهار، في أطراف الليل وآناء النهار، المعايشة وتطهير القلب من الأغيار، هذا القلب الصغير في الحجم لكن يا سبحان الله يستوعب آلاف آلاف الأغيار، هذا القلب الصغير لابن آدم يستوعب دنيا بسعتها، الأموال والأهواء والأنانيات والعناوين والحب الكاذب وما شاكل ذلك، هذا القلب يجب أن يطهر من الأغيار ولا يكون فيه إلاّ الله تبارك وتعالى «يا خير مؤنس وأنيس، يا خير صاحب وجليس»[٣] هذا القلب يجب أن يُطرد عنه الغير، إذا طُرد عنه الغير صار مجذوباً، هذا القلب يجب أن يرتبط بحبل وتقطع عنه الحبال الأخرى، حينئذٍ يكون مجذوباً، حينئذٍ يأتي معنى «واسلك بي مسلك أهل الجذب» هذا هو غير مسألة من يدرس كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب الاسفار للملا صدرا

---

(1) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٩.

(2) مستدرك الوسائل ١١: ١٨٣.

(3) بحار الأنوار ٩١: ٣٩٦.

هذا مسلك أهل الجذب، هذا يعني دعاء عرفة، يعني مناجاة الذاكرين، مناجاة العارفين، مناجاة المحبين، مناجاة الخائفين، مناجاة المعتصمين، مناجاة أمير المؤمنين، هذا شيء آخر لا يحققه لا شفاء ابن سينا ولا كتب الفارابي، هذا شيء آخر «أسلك بي مسلك أهل الجذب»، «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار» الله تبارك وتعالى قال أيها العباد أنظروا إلى الآثار واعتبروا بها، لكن هنا خطر شديد أن ننسلخ عن الحب والجذب ونتحول إلى فلاسفة وعالمين بالله تبارك وتعالى، ولكن غير محبين وغير عارفين. وذلك حينما نغرق في الآثار ونعيش مع الدليل وننسى من هو المدلول عليه، كمثل الإنسان يملك مالاً لكن لا يصرف هذا المال لخدمة نفسه وعياله وإنما ليكنز المال، هذا خطر، وكمن يملك سيارة والهدف منها أن ينتقل من مكان إلى آخر لكن هو لا يحركها خوفاً عليها ويبقى فقط يعشق النظر إليها ويتأمل فيها، ولهذا فإن الدعاء يقول: «إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني منها بكسوة الأنوار مصون السر عن النظر إليها مرفوع الهمة عن الاعتماد عليها» يعني أنظر إليها على سبيل الطريقية وليس على سبيل الموضوعية، كما نسميه في دروسنا الحوزوية، ننظر للنجوم، ننظر للسماوات، يكون لنا علاقات اجتماعية، يكون لنا شأن مع المجتمع، يكون لنا درس وبحث في الحوزة، يكون لنا شغل سياسي، يكون لنا بحث علمي، يكون لنا تأليف، لكن كل ذلك بشرط أن يكون على سبيل الطريق إلى الله تعالى، «مصون السر عن النظر إليها» ولهذا كان الدعاء يقول: «ولتطهير قلبي من أوساخ الغفلة عنك»[١] ونذكر هذا الكلام

---

(1) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٨.

في جمع من السادة الفضلاء، وليس الغرض هو أن نقدم بحثاً علمياً، وإنما الغرض أن نخوض تجربة ذاتية مع أئمّتنا عليهم السلام وماذا يريدون منّا.

صفة رسول الله صلى الله عليه وآله:

الإمام الحسن عليه السلام ونحن في ذكرى شهادته واجعلها هي النور الذي استلهمناه من الإمام الحسن عليه السلام في هذا الاجتماع.

الإمام الحسن يروي رواية في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليس له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل الصمت».[1]

تعالوا أنا وأنتم نتأمل لماذا كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكر، فيمَ يفكر؟ ولماذا متواصل الأحزان؟ إذا كان على الدنيا فالدنيا فانية، لا بدّ أن هناك شيئاً أعظم، أن هذا النبي سيد البشر وسيد الخلق لكن هو متواصل الأحزان.

أيها الاخوة أيها السادة أيها الفضلاء ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[2] رسول الله أسوة لنا، رسول الله قدوة لنا، نحن طلاب مدرسة رسول الله، الحوزة العلمية هي مدرسة الأئمّة الأطهار، رسول الله متواصل الأحزان، كم أن هذا الوصف انعكس علينا في حياتنا؟ دائم الفكر، طويل الصمت، لا يتكلم إلاّ في حاجة، دائم الفكر ليس له راحة في سراءها أو في ضراءها، القلب متعلق في معشوق آخر، كمن ينتظر اللقاء مع معشوقه، حينئذٍ تمر عليه

(1) مجمع الزوائد ٨: ٢٧٣.
(2) الزمر: ٣٠.

أمــور ولا يعبــأ بهــا، لديــه انتظــار أعظــم، بــل كلمــا يطــول بــه الزمــان كلمــا يــزداد غمــاً وهمــاً، لأنــه يبحــث عــن شــيء آخــر غيــر هــذه المفردات التي أمامه.

الــسؤال كــم انعكــس علينــا هــذا الوصــف ونحــن طــلاب العلــوم الدينية؟ كم هو حزننا؟ كم هو فكرنا؟ كم هو صمتنا؟

رســول الله ﷺ كــان يغمــى عليــه مــن شــدة البكــاء «كــان يبكــي حتّــى يغمى عليه».

رواية أخرى تقول: «كان يبكي حتّى يبتل مصلاّه».[1]

تعالوا نسأل ماذا فعل رسول الله؟

لماذا هذا البكاء؟

لماذا نحن لا توجد عندنا هذه الحالة؟

هل اننا نعرف أكثر مما يعرف؟

هــل عملنــا أحــسن ممــا عمــل؟ أم أن الجهــل هــو المحــيط بنــا؟ أم أن القلــوب المليئــة بالأغيــار والأوســاخ، أوســاخ الغفلــة هــي التــي تحجــب عنــا ذاك الحال «أسلك بي مسلك أهل الجذب».

تعــالوا نعيــد النظــر فــي أنفــسنا، هــل نحــن مــن أهــل العــشق؟ هــل نحــن مــن أهــل الحــب؟ أم نحــن أوراق تحــتفظ بمــسائل علميــة ومــا شاكل ذلك لا أكثر.

طالــب العلــوم الدينيــة يجــب أن يراجــع هــذه المــسألة آلاف المــرات أكثـر ممـا يراجـع المـسألة العلميـة والبحـث العلمـي فـي كـل صباح وفـي كـل

(1) حلية الأبرار ١: ٣٤٦.

مساء، رسول الله يبكي حتّى يغمى عليه وحتّى يبتل مصلاّه فلما سُئل عن ذلك قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».[١]

أنا عندي محبوب، عندي مُنعم، أليس يجب أن أتصل به؟ وأرتبط به؟ «أفلا أكون عبداً شكوراً» هذا الأمر وهو ارتباط أهل الجذب وعلاقة المجذوبين والمحبين والعاشقين لله تبارك وتعالى، هذا الأمر هو الذي حفظ الدين وحفظ التشيع، حينما يكون لدى الأديان مثل هذه الأنوار، وعندما يكون لدى المذهب والتشيع مثل هؤلاء الأولياء حينئذٍ يأتي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾[٢] ليس ذلك بالعلم ولا بالكتب والتأليفات ولا بالمطابع ولا بالمنابر، كل ذلك صحيح، ولكن الأصل هو الارتباط بالشمس، هذا الشعاع إذا انقطع عن الشمس ينتهي بلحظة، الأصل هو الارتباط بالشمس، الأصل هو ارتباط علمائنا ومراجعنا الذين حفظوا المذهب بالارتباط بالله تعالى.

وهنا أصل إلى أستاذنا آية الله العظمى السيد الخوئي 1.

لمحة من حياة السيد الخوئي 1:

السيد الخوئي رضوان الله عليه، أذكر لكم شيئين عنه في طيّ الحديث للاعتبار، ولكي نعرف كيف حُفظ المذهب والدين؟

كان لديه همٌّ كبير، الهم الكبير هو أن يحافظ على الحوزة العلمية في

---

(1) حلية الأبرار ١: ٣٣.

(2) التوبة: ٣٢.

النجف الأشرف، كان يعطي هذا الهم، الهم رقم واحد عنده أن لا تنهار الحوزة العلمية، وأن يعمل جاهداً أن لا تموت، ولا تنتهي هذه الحوزة، كان يرى ذلك هو الرسالة التي يمكن أن يؤديها ويحملها للجيل الآتي عسى الله أن يفتح للجيل الآتي، كان ذلك مقولته: (أنا لا أريد أن تنتهي الحوزة العلمية في عهدي) بل يجب أن تبقى حتّى يأتي جيل ثانٍ هو يتحمل المسؤولية. وهذا الإنسان وهو من الناحية العلمية لا يبارى ولا يجارى وهو أستاذ المجتهدين بالاجماع، هو زعيم الحوزة العلمية بالاتفاق، عشرات الفقهاء والمجتهدين من مراجع الطائفة هم تلاميذه، أنا لا أتحدث هنا عن هذا البعد العلمي، وهو حقيق بالحديث، لكن أنا أذكر ما يرتبط بحديثنا عن العلاقة مع الله والإيمان بالله على مستوى الجذب والحب والعشق، أذكر اني وربما يكون ذلك في عام ١٩٧٧ _ ١٩٧٨ للميلاد وأنا كنت في شارع الكوفة أنتظر سيارة لكي أحضر إلى جامع الخضراء لتلقي درس الفقه على يد السيد الخوئي 1 أنا واقف على الشارع وإذا بسيارة السيد الخوئي قد مرّت من أمامي قادماً من الكوفة ولما رآني أوقف السيارة وركبت معه في السيارة من أمام الجامعة الدينية، الفاصلة بين الكوفة ومسجد الخضراء لا يزيد على عشرة دقائق ويومئذٍ الطرق غير مزدحمة، لكن هذا الإنسان وهو بعمر يناهز الثمانين أو دون ذلك وهو يأتي لتقديم بحث علمي في الفقه، _ كان يجلس في مقدمة السيارة الشهيد السيد محمّد تقي الجلالي وفي الكرسي الخلفي كان السيد الخوئي جالساً وأنا جلست إلى يساره _ كان السيد الخوئي في هذه الدقائق العشر يستفيد منها في حفظ القرآن، وأنا يومئذٍ شاب لاحظت أن السيد محمّد تقي الجلالي يمسك القرآن الجزء الثلاثين والسيد الخوئي يقرأ سورة الشمس، سورة الضحى، سورة الليل، والسيد محمّد تقي الجلالي يراقب حفظه للسور القرآنية ويصحح له القراءة إن كان هناك خطأ أو نسيان.

السيد الخوئي عالم وفقيه ومرجع لكن يريد أن يحفظ القرآن وهو بعمر الثمانين عاماً.

هذا غير العلم، هذا ارتباط مع كتاب الله، لماذا يحفظ القرآن وهو بهذا العمر؟ ماذا بقي من الأيام ومن العمر؟

يومئذٍ كنت عادة بعد الدرس أمضي معه إلى البيت وأنا في عنفوان الشباب، ومناقشات الشباب العلمية وكان يحتضننا بالمناقشة، كنت أجلس معه أيضاً في البيت وأطرح بعض الأسئلة هو يراني شاباً شغوفاً في الدرس، ممكن أن يعطيني من علمه، كان يفتح صدره إليّ، ذكر لي شيئاً أنا أختص بروايته.

قال: أنا سألت الله تعالى ثلاث مسائل أعطاني اثنتين منها وأنا منتظر الثالثة.

قال: سألت الله تعالى أن أكون أستاذاً في الحوزة فأعطاني ذلك.

وسألت الله تعالى أن أكون كاتباً ومؤلفاً فأعطاني ذلك.

سألت الله أن يختم لي بالشهادة.

إن ما حدث معه رضوان الله عليه هو في الظن المتاخم لليقين عندي هو شهادة، حيث لم تكن وفاته حالة عادية، وأنتم أعرف حيث كنتم هنا، وحيث لم تكن مسألة عادية بل كانت انتقاماً من علماء الإسلام ومراجع الدين، انتقاماً وملاحقة لهم تحت كل حَجَر ومدَر.

بعد انتفاضة شعبان كيف استطاع هذا الإنسان أن يحقق شيئاً لهذا الشعب، ثمّ يكون بمستوى خطر على النظام يومئذٍ، مهما كان ذاك المستوى، النظام يريد أن يستأصل أي مستوى من مستويات الخطر عليه، ولهذا كانت عملية رحلة آية الله السيد الخوئي هي عملية مدبّرة من قبل السلطة يومئذٍ، كيف قُطع عنه الكهرباء؟ والهاتف؟ ثمّ رؤيَ مُلقىً في

ساحة بيته؟! وهذه الحالة تكررت مع عدد من الفقهاء والمراجع هنا في النجف الأشرف، المذهب والشيعة يحتسبون ذلك عند الله تبارك وتعالى، مظلومية هؤلاء هي مظلومية الأئمّة الأطهار عليهم السلام ماذا فعلوا بهؤلاء؟ يريدون الحفاظ على الدين والمذهب؟ وحتّى انهم لم يخوضوا لا عملاً عسكرياً ولا عملاً ثورياً ولا عملاً مسلّحاً ولا عملاً سياسياً، لكن أعداء أهل البيت يخافون من الإمام زين العابدين في دعائه، يخافون من الإمام موسى بن جعفر في سجنه، حتّى وإن لم يفعل شيئاً، يعرفون أن هنا يكمن الخطر، هنا مصدر توعية الشعوب ونهضة الشعوب، يوماً ما سيُكسر السدّ، وهؤلاء موجودون، إذن سيتحقق سيل.

كان الهدف لدى السيد الخوئي 1 هو الحفاظ على الحوزة العلمية والآن نحن نعيش في شيء هو أشبه بالمعجزة ببركة جهود هؤلاء الأولياء، الحوزة العلمية هنا في النجف الأشرف والتشيع في العراق أمكن المحافظة عليه برعاية الله تبارك وتعالى بإذن من الله وبفضل من الله تبارك وتعالى، ولكن كانت هناك جهود وصبر وتضحيات.

ما أريد أن أؤكده لكم أيها الاخوة الكرام ما هو أعظم من الجهود وهو الارتباط بالله تبارك وتعالى، جهودنا جداً بسيطة، وما قيمة جهودنا البشرية؟ فهي لا شيء، لكن الارتباط بالله هو الشيء العظيم، قد يكون المصباح صغيراً في حجمه لكن إذا كان مرتبطاً بطاقة عظيمة فسيكون المصباح متوهجاً بشكل كبير مهما كان صغيراً، ما أريد أن أقوله لكم والعالم الآن ينتظركم وينتظرنا، ما أريد أن أقوله هو مسألة الارتباط بالله، ارتباط أهل الجذب وأهل الحب.

ما هو الجديد العالمي؟

هنا انتقل للمحور الثاني في الحديث.

ما هو الجديد العالمي؟ وما هو الجديد العراقي؟

الجديد العراقي والجديد العالمي هو الانفتاح على مذهب أهل البيت، هذا المذهب المظلوم، الانفتاح على هذا المذهب فكرياً وسياسياً، أنظار العالم اليوم تتجه إلى هذا المذهب، إلى رجال هذا المذهب، إلى حوزات هذا المذهب، إلى سلوكيات هذا المذهب، إلى حنجرة هذا المذهب، العالم اليوم ينتظرون ما أنتم صانعون فكرياً وسياسياً، اليوم العالم أعلن يأسه وغسل يديه من الأديان والمذاهب الأخرى، وهناك بصيص أمل واحد للعالم هو مذهب أهل البيت، فالعالم يغرق في أمواج متلاطمة وهم ينتظرون المنقذ، المنقذ هو شيء اسمه الشيعة، شيء اسمه التشيع، شيء اسمه مدرسة جديدة هنا منطلقة من النجف الأشرف، من باب مدينة علم النبي، مدرسة جديدة غير الأزهر وغير الزيتونة وغير مكّة المكرمة وغير المدينة المنورة، شيء جديد مدرسة اسمها ومدرسة أهل البيت، شعب اسمه شيعة أهل البيت.

أنا طبعاً هنا لا أريد أن أسدل رداءاً وستاراً على تجربة كبيرة لشيعة أهل البيت وعظيمة جداً هي تجربة الجمهورية الإسلاميّة الإيرانية، وتجربة علماء الطائفة هناك الذين قادوا تجربة رائدة في العالم كانت وما تزال معاصرة، لكن شاء الله تبارك وتعالى أن السد الذي طوقت به تلك التجربة ينكسر هنا، من هذه المنطقة، السد انكسر هنا والسيل أصبح يتدفق من باب مدينة علم النبي، هو ماء واحد، هو بحر واحد، هو سيل واحد، لكن مشيئة الله تعالى أن العراق يكون هو الباب الذي يشع منه هذا النور.

الجديد العالمي، والجديد العراقي هو الانفتاح على أهل البيت، أصبحت المقالات والأقلام والسياسيون والمفكرون وقادة العالم يتحدّثون عن الشيعة، وعن المرجعية، مؤتمرات تُعقد في الأردن، وتُعقد في مكّة المكرمة عن مراجعة الفكر الإسلامي وضرورة تصحيحه والاقتراب به إلى الاعتدال والنضج كما هو الموجود لدى مذهب الشيعة.

قبل شهور عُقد مؤتمر في مكّة المكرمة لاعادة صياغات الفكر الإسلامي، يعني ثبت عندهم أن صياغاتهم هي صياغات منحرفة.

بدأوا يعيدون الصياغات واكتشفوا أن الإسلام هو غير الإسلام الذي كانوا يعلّمونه للناس، يوجد شيء آخر يجب أن يعلموه للناس، مؤتمرات أصبحت تُعقد، تتحدّث عن الوسطية في الإسلام، أنا لست الآن بصدد الحديث عن الوسطية ومراجعة صياغات الفكر الإسلامي، لكن أريد أن أشير إلى مسألة هي التوجه العالمي والإسلامي إلى لغة جديدة، مدرسة جديدة، فكر جديد، يمثله شيعة أهل البيت.

صحيفة اللوموند الفرنسية تتحدّث عن أنه لا منقذ للعالم الإسلامي إلاّ عبر فكر الشيعة، ثمّ تثني فتذكر الفكر السُني المعتدل ونموذجه تجربة تركياً أما الفكر السُني الموجود في العالم العربي فاغسلوا أيديكم منه. هذه صحيفة اللوموند هكذا تتحدّث وليس ذلك حديثي، طبعاً هم لا يتحدّثون ولا يفكرون في نجاة المسلمين وإنما يتحدّثون عن كيفية المعايشة مع المسلمين، لا بدّ أن يسود في هذا العالم الإسلامي فكر الشيعة.

هذه الآن هزّة كبرى تحت الأرض تهتز بها الشعوب المسلمة وتهتز بها المدارس الفكرية والمرجعيات الفكرية الكبرى، الآن يوجد زلزال تحت الأرض يعيش هنا، وهذا الزلزال هو زلزال شيعة أهل البيت.

النهوض بالحوزة العلمية:

مع مثل هذا الانتظار إذن تقع علينا مسؤولية النهوض بالحوزة العلمية، مع مثل هذا الانتظار العالمي فإن مسؤولية النهوض تقع على عاتقكم، على عاتقنا، نحن الذين ننتسب للحوزة العلمية بحمد الله فإن لدينا عناصر نهوض متوفرة في هذه الحوزة العلمية بما يستحق الواقع الجديد العالمي والواقع الجديد العراقي، والأرقام كثيرة.

عناصر النهوض:

لدينا عناصر نهوض خمسة:

العنصر الأوّل: قوة الفكر وقوة المذهب، فنحن لسنا في فراغ، ولا نحن نتسكع في مدارس القياس والمصالح المرسلة والرأي وما شاكل ذلك، نحن لدينا مدرسة عميقة بالفكر والعطاء «علّمني رسول الله ألف باب يفتح لي من كل باب ألف باب»[1] لدينا قوة مذهب هذا هو عنصر النهوض الأوّل.

العنصر الثاني: هو المرجعية، نحن نمتلك عنصراً قوياً ومؤثراً وموجوداً في هذه الأزقّة البسيطة في النجف الأشرف في بيوت الشيعة الفقيرة، عنصر قوة، العالم يتطلع إلى عنصر القوة الذي يمتلكه الشيعة ما هو هذا العنصر الجديد؟ وأنا لا أريد أن أتحدّث عن مرجع واحد لا، لدينا بحمد الله واحد واثنان وثلاثة وأربعة وعلى طول التاريخ لدينا عنصر القوة هو عنصر المرجعية.

العنصر الثالث: ثمّ لدينا العنصر الثالث للنهوض بواقع الحوزة العلمية وهو حيوية الشعب والكفاءات الموجودة في هذا الشعب، فشعبنا ليس شعب ما وراء البحار، هذا الشعب ليس شعباً في أمريكا اللاتينية،

---

(1) مناقب آل أبي طالب ١: ٣١٥.

هذا الشعب متجذر في الإسلام، ومليء بالحيوية والعطاء، لدينا إذن عنصر نهوض ثالث ويتحرك بسرعة وسنسرد لكم أرقاماً سريعة جداً، هذا هو عنصر النهوض الثالث.

العنصر الرابع: عندنا عنصر النهوض الرابع وهو الموقع الاستراتيجي للنجف الأشرف، لهذه المدينة، هذا موقع استراتيجي عظيم، النجف مأوى أفئدة المؤمنين في العالم.

العنصر الخامس: عنصر النهوض الخامس هو الاستقطاب، النجف حينما يُكسر عنها الحصار لها قدرة استقطاب لمئات الآلاف من كل العالم يأتون ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] هذا هو عنصر النهوض الخامس.

عندنا خمسة عناصر تُهيئنا للنهوض السريع جداً بالحوزة العلمية وبما يتلاءم مع استحقاقات المرحلة.

لاحظوا كيف تجمعت عناصر النهوض بإرادة الله وبلطف الله تبارك وتعالى، بحيث نحن في غضون سنتين ونصف وفي ظل حروب ومحاصرة وقطع كهرباء، وإرهاب وتقلبات سياسية عجيبة، وحيث لا إمكانات، لكن الآن وباستعراض سريع لدينا أكثر من أربعين مؤسسة ومعهد ثقافي فتح فقط في مدينة النجف الأشرف، لقد استحدثت المعاهد والمؤسسات الدينية والمراكز الثقافية في غضون سنتين ونصف وليس ذلك زمناً طويلاً، وفي مثل هذه الظروف، لدينا فقط في مركز محافظة النجف أكثر من (٥٠) مجلة وجريدة ونشرة تصدر، نحن في غضون هذه الفترة القصيرة جداً لدينا مثل هذا الانتاج ومثل هذا العطاء ولدينا

(1) التوبة: ١٢٢.

في غضون هاتين السنتين والنصف حوالي عشر حوزات علمية أُسّست وافتُتحت هنا في النجف الأشرف وأصبحت تستقطب بسرعة هائلة.

هنا استقطاب لأكثر من ألف وخمسمائة مُبلّغ ديني وتكوين شبكة تبليغ سريعة.

حقيقةً أقول لكم حينما ننظر إلى محافلنا ومجالسنا والتي يحضر فيها مئات من رجال الدين الذين أصبحوا ينتظمون في شبكة مترابطة وأفكار وقلوب موحّدة وصوت واحد، وهذا لم يكن من قبل، بل حدث الآن وبسرعة، حركة أئمّة المساجد والجماعة وأئمّة الجمعة، هنا استقطاب لأكثر من ثلاثمائة إمام جمعة، وأكثر من ألف إمام مسجد وجماعة، هذا الأمر الذي كان محرّماً علينا عبر ألف وأربعمائة عام، نعم كان محرّماً على شيعة أهل البيت، لكننا الآن بحمد الله تعالى نشهد قفزة في واقع الشيعة وواقع هذه المدرسة.

الاشكال النظري للحداثة على المؤسسة الدينية:

أنتقل في ختام الحديث إلى البحث الثاني حيث كنّا في الملتقى السابق قد أشرنا إلى بحث في موقع المؤسسة الدينية يعني الحوزة العلمية في الشأن السياسي، وقلنا يوجد هناك إشكالان:

الإشكال الأوّل: إشكال منهجي.

والإشكال الثاني: إشكال نظري.

ناقشنا الإشكال المنهجي في الملتقى السابق، واليوم نستعرض الإشكال النظري على موقع المؤسسة الدينية في الشأن السياسي.

الإشكال النظري يدعو إلى الفصل وإلى بناء الجدار العازل بين المؤسسة الدينية وبين الشأن السياسي، بناء جدار عازل.

ما هو الإشكال النظري؟ هذا الإشكال النظري الذي تسرب من واقع الكنيسة إلى واقع مدارس السُّنّة، والآن يريد البعض تسريبه إلى مدرسة شيعة أهل البيت، ولكن مدرسة شيعة أهل البيت ما تزال مقاومة ضد هذا التسرب، وهذا الإشكال النظري غير صحيح في مدرسة أئمّتنا عليهم السلام.

هذا الإشكال النظري يتلخّص في أمرين:

الأمر الأوّل: أن التجربة السياسية متحركة ولا يمكن أن تخضع لحلول وسياسات ثابتة. بينما الدين والتشريع الديني هو سياسات ثابتة، فكيف تريدون إخضاع المتحرك لسياسات ثابتة؟

المجتمع متغير، الزمان متغير، المكان متغير وأنتم عندكم قوالب وثوابت قبل ألف وأربعمائة عام، تريدون نصبها على هذه المتغيرات وهذا غير ممكن.

التجربة السياسية والاجتماعية متحركة ومتغيرة. والقوالب الدينية قوالب ثابتة.

السياسات إذا تحدّثنا عن السياسة، الاقتصاديات إذا تحدّثنا عن الاقتصاد، والاجتماعيات إذا تحدّثنا عن الاجتماع، الدين يعطي فيها جميعاً ثوابت بينما العالم متحرك فلا يمكن إخضاع المتحرك لما هو الثابت، لا بدّ أن تقدموا شيئاً جديداً للعالم من خارج الدين، هكذا يقول الاشكال النظري، ولهذا يقولون ألا ترون قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾[1] هنا إذن لا يوجد ثابت ديني بل شورى بينهم، أنتم رتّبوا العمل حسب استحقاقات الزمان والمكان ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾ افعلوا ما شئتم في الميدان السياسي، حيث يُترك الأمر لتجربة بشرية بعيدة عن الثوابت

(1) الشورى: ٣٨.

الدينية، وهكذا ألا ترون ما روي عن رسول الله ﷺ فيما أُثر عنه: «أنتم أعرف بأمور دنياكم»[1] إذن ما هي العلاقة بين الدين والمؤسسة الدينية والحوزة والمرجعية بالشأن السياسي؟ هذا هو الامر الأوّل في الاشكال.

الأمر الثاني في الاشكال هو أن الفاعلية تتقاطع مع المعنوية.

تقاطع الفاعليّة مع المعنويّة:

إن مدرسة أهل البيت والمؤسسة الدينية يعني الحوزة العلمية بالذات تعتمد في قوتها على ثلاثة عناصر:

العنصر الأوّل: المعنوية.

والعنصر الثاني: الفاعلية.

والعنصر الثالث: الاستقلالية.

هذا هو فرق مدرستنا عن مدرسة الأزهر، وفرق مدرسة أهل البيت عن المذاهب الأربعة، الفرق هو المعنوية والفاعلية والاستقلالية، اسمحوا لي أن أشرح ذلك:

العنصر الأوّل: المعنوية:

تعني أن مؤسستنا الدينية ترتبط بالناس عبر البعد المعنوي، والتأثير المعنوي وليس عبر موظفي الأوقاف ومؤسسات دولة، أو قدرة دكتاتورية ونظام حكم، لا بل على البعد المعنوي، هذا هو العنصر الأوّل وهو ما نسميه المعنوية.

العنصر الثاني: الاستقلالية:

المؤسسة الدينية لدى أتباع أهل البيت هي مؤسسة مستقلة لا تأخذ الرأي من المؤسسة السياسية وهذا معنى الاستقلالية.

---

(1) أضواء على الصحيحين: ٢٥٦.

العنصر الثالث: الفاعلية:

يعني عدم الابتعاد عن هموم الأمّة الاجتماعية والسياسية، بل الحضور في الساحة والفعل فيها، وهذا هو الذي جعل أئمّتنا بين قتيل و مشرَّد وسجين، ومراجعنا كذلك، عندنا مشكلة مع الطغاة، مع الفكر المنحرف، المشكلة هي أن مدرستنا تحتوي على عنصر اسمه الفاعلية والحضور مع هموم الأمّة والناس. هذه ثلاثة عناصر.

حينئذ يُقال أن هناك تصادماً بين المعنوية وبين الفاعلية، إذا أردتم عنصر المعنوية والتأثير على قلوب الناس إذن ابتعدوا عن التدخلات السياسية، لأن التدخلات السياسية فيها شوائب، فيها تسقيط وفيها شُبهات، أنت أجل منها، المعنوية تطلب منكم أن تبتعدوا عن الفاعلية، الفاعلية والمعنوية لا يجتمعان. المعنوية تعني أن تكون معتزلاً، وليس لك شأن بالقضايا الميدانية، أن تقول أيها الناس اتقوا الله، أيها الناس كونوا من الصالحين ثمّ تلوي عنقك وتمضي عنهم، ولا شأن لك بهم، حينئذ يبقى لك موقع المعنوية والتأثير في القلوب، هذا هو الأمر الثاني، التصادم بين المعنوية وبين الفاعلية.

ومن الصحيح ان كلا الاشكالين غير صحيح.

ولعليّ هنا أُشير إلى عناوين الأجوبة وأترك التفصيل لكم.

الاشكال الأوّل عليه جوابان والاشكال الثاني عليه جوابان.

الاشكال الأوّل الذي يقول إن التجربة السياسية متحركة والدين والسياسات الدينية ثوابت، هذا الاشكال الأوّل له جوابان:

الجواب الأوّل هو جواب نقضي، أي أن هذا الاشكال إذا صحَّ سيصح في كل الشريعة الإسلاميّة، في حرمة الربا، في أحكام الحجاب والأُسرة، وفي سائر أحكام الشريعة، التي هي ثوابت، فيجب أن نرفع اليد عن كل الشريعة، وليس

فقط في الشأن السياسي بل عن كل الشريعة، كيف تنسجم شريعة ثابتة منذ ألف وأربعمائة عام مع متحركات يومية؟ إذا صحّ هذا الاشكال فسيكون مطرداً على كل الشريعة فيجب أن نرفع اليد عن الشريعة الإسلاميّة كلها، وليس عن المؤسسة الدينية فقط، ولهذا فهناك نظرة في الحقيقة لدى بعض المدارس العلمانية تدعو إلى رفع اليد عن الشريعة، وتقول إن هناك شيئاً اسمه الدين، وشيئاً اسمه شريعة، نحن نأخذ من القرآن ما هو دين التوحيد، المعاد وما شاكل ذلك ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1] هذا نأخذه ونقبله، أمّا ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا﴾[2] و﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ﴾[3] فهذه الشريعة نرفع اليد عنها، وليس للنصوص القرآنية إطلاق أزماني، هذه خاصة بما قبل ألف وأربعمائة عام.

الجواب الثاني هو جواب حَلّي وهو أن المعالجات الإسلاميّة هي ثوابت، لكن هي إنما تعالج الثوابت أيضاً ولا تعالج المتحركات، السياسة الإسلاميّة هي مثل الاقتصاد الإسلامي لا تعالج الأمور الشكلية المتحركة، وإنما يعالج الثوابت، ما هو الموقف تجاه الحرية الثقافية، الحرية السياسية، موقع الأمّة، موقع الأحزاب، موقع الفقهاء، موقع القضاء الإسلامي، هذه هي الثوابت الإسلاميّة، وحينئذٍ فإن الثوابت للثوابت، نحن لا نريد أن نحكم على المتحركات بثوابت دينية قديمة، لا، المتحركات تبقى متحركة، المتحركات لا بأس نتحرك معها أيضاً لكن وفق مقولاتنا التي هي مقولات ثابتة، غاية الأمر نسيّرها، نسيّر الأمور المتحركة بأساليب متحركة، أيضاً هذا هو الجواب الثاني.

---

(1) الحج: ١.

(2) البقرة: ٢٧٥.

(3) النور: ٣٠.

أمّا الاشكال الثاني فله جوابان:

الجواب الأوّل: أن الواقع التاريخي يقول إن رسول الله ﷺ جرب أعظم تجربة، وكذلك الإمام عليّ عليه السلام أيضاً قاد أعظم تجربة. فهل يقول القائل إن المعنوية تتقاطع مع الفاعلية؟ إذن لماذا رسول الله ﷺ جمع الأمرين المعنوية والفاعلية، كان قائداً سياسياً وقائداً حربياً وقاضياً وكان متصدياً من الدرجة الأولى، وعلى كل حال (الوقوع أدلّ دليل على الامكان) إذا كانت الفاعلية تتقاطع مع المعنوية فلماذا لا تطبقون هذا الاشكال على رسول الله ﷺ؟ لماذا رسول الله قام بفاعلية وحضور في الساحة وتدخل في الشأن السياسي؟

الجواب الثاني: أن الفاعلية لا تصطدم بالمجمل مع المعنوية، بالعكس الفاعلية تفتح آفاقاً كبيرة للنفوذ إلى قلوب الناس، ومن يتصور أن ذاك العالم الديني والمرجع الديني إذا ابتعد عن الناس فسوف يكون محبوباً أكثر وإذا دخل مع هموم الناس فسوف يبتلى بالاشكالات وسوف يبغضه الناس هذا هو عين الخطأ.

العالم والمرجع الديني إذا مارس الفاعلية وعالج هموم الناس السياسية وغيرها ستكون معنويته أكثر ونفوذه أكثر ومحبوبيته أكثر، هذه شبهة مفتعلة لابعادنا وإخراجنا عن الساحة حتّى يدخلها الأغيار، حتّى يدخلها الغاصبون، حتّى تدخلها الاتجاهات اللادينية، يقال لكم ابتعدوا لأن المعنوية تتقاطع مع الفاعلية، وأنتم ناس مقدسون، والدين لله، الدين للسماء، اربطوا الناس بالله، ما علاقتكم بأمور الدنيا؟ اربطوا الناس بالله حتّى يقفزوا هم ليدخلوا إلى قلوب الناس ويسرقوها.

نحن يجب أن لا نعطي قلوب الناس سهلة رخيصة بيد السارقين، من الخطأ الكبير تصور أن المعنوية تتقاطع مع الفاعلية، التجربة هكذا

تقول إن العالم الديني الذي يتصدى يكون محبوباً ومقدساً ومؤثراً في شعبه أكثر من ذلك الذي لا يتصدى، هؤلاء مراجعنا بمقدار ما تصدوا لاحظوا كيف أحدثوا زلزالاً عالمياً؟ كيف ربطوا القلوب بهم؟ أئمّتنا كذلك، الأنبياء أيضاً كذلك.

اليوم مسؤوليتنا أن تكون لنا معنوية، وتكون لنا استقلالية وتكون لنا فاعلية.

أيها الأساتذة الكرام العالم بانتظاركم، الشعب العراقي بانتظاركم، اجمعوا هذه العناصر الثلاثة المعنوية والاستقلالية والفاعلية، لا تعتزلوا الساحة فستسرق قلوب الناس وقلوب الشباب وقلوب أولادنا وأولادكم. والعدو وراء الأكَمة منتظر بمجرد أن تغيبوا يهجم على هذا الشعب ويأخذه، بحمد الله حضوركم قوي، شعبكم يرتبط بكم، المذهب قوي، المرجعية قوية، هناك استقطاب قوي، الموقع الذي نتمتع به هنا في مدينة النجف الأشرف هو موقع قوي.

الدعاء:

«إِلَهِي حَقِّقْنِي بِحَقَائِقِ أَهْلِ الْقُرْبِ وَاسْلُكْ بِي مَسْلَكَ أَهْلِ الْجَذْبِ»، «إِلَهِي إِنْ ظَهَرَتِ الْمَحَاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ وَإِنْ ظَهَرَتِ الْمَسَاوِي مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ».

دعاء رسول الله ﷺ:

احفظوا دعاء رسول الله ﷺ في السجود، وهو دعاء عظيم جداً أنا أقدمه هدية لأخواني.

رسول الله ﷺ له سجدتان: في السجدة الأولى يقول: «سَجَدَ لَكَ سَوَادِي وَخَيَالِي وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي هَذِهِ يَدَايَ وَمَا جَنَيْتُهُ عَلَى نَفْسِي يَا

عَظِيمٌ تُرْجَى لِكُلِّ عَظِيمٍ اغْفِرْ لِيَ الذَّنْب الْعَظِيمَ فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ إِلا الرَّبُّ الْعَظِيمُ».[1]

السجدة الثانية: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرَضُونَ وَانْكَشَفَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ فُجْأَةِ نَقِمَتِكَ وَمِنْ تَحْوِيلِ عَافِيَتِكَ وَمِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي قَلْبا تَقِيّا نَقِيّا وَمِنَ الشِّرْكِ بَرِياً لا كَافِرا وَلا شَقِيّا».[2]

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) مصباح المتهجد: ٨٤١.

(2) مصباح المتهجد: ٨٤٢.

(١٠/ ربيع الأوّل/ ١٤٢٧ هـ)

المحاضرة الحادية عشرة:

نظرية التغيير الإسلامي

موضوعات المحاضرة:

١ _ التجلي الإلهي.

٢ _ ذكرى شهادة الإمام الحسن العسكري ﵇.

٣ _ ذكرى استشهاد السيد محمّد باقر الصدر 1.

٤ _ نظرية التغيير.

٥ _ الواقع السياسي العراقي.

٦ _ الإسلام والديمقراطية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.[1]

الحديث عن مجموعة مفاصل:

المفصل الأوّل: حديث قرآني معرفي.

المفصل الثاني: حديث عن صاحب هذه الذكرى شهيدنا وأستاذنا آية الله الشهيد السيد محمّد باقر الصدر.

ومفصل ثالث: هو الواقع السياسي ومظاهر الواقع السياسي الجديد.

إضافةً إلى ذلك فنحن نعيش ذكرى شهادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام في الثامن من ربيع الأوّل وهذا الملتقى هو ملتقى مع السادة الكرام من طلاب وفضلاء وأساتذة الحوزة العلمية لهذا فإن له خصوصية.

التجلي الإلهي:

نبدأ بالمفصل الأوّل من الحديث في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ **هناك أكثر من من بحث في هذه الآية.**

البحث الأوّل في الرؤية ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾.[2]

---

(1) الأعراف: ١٤٣.

(2) السابق.

وهنـاك بحـث آخـر فـي التجلـي، هنـا الآيـة القرآنيـة تتحـدّث عـن التجلي وأن الله تعالى تجلى للجبل فـ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً﴾.

حديثنا اليوم عن التجلي.

وقفة مع التجلي، ما هو التجلي؟

التجلـي لغـةً بمعنـى الظهـور أو غايـة الظهـور ﴿وَالنَّهـارِ إِذا تَجَلَّـى﴾[١] و﴿تَجَلَّى رَبُّـهُ لِلْجَبَـلِ﴾ يعنـي ظهـر ربـه للجبـل، هـذا الظهـور الـذي يمكـن أن يكـون ويتحقـق للجبـل فينـدكّ، ولا يمكـن أن يكـون للإنـسان إلاّ بعـد الممـات كمـا يقـول المفـسرون فـي هـذه الآيـة، إن التجلّـي لا يمكـن أن يتحقق للإنسان إلاّ بعد أن يبتعد عن الظروف المادية التي تحيط به.

وهناك بحوث أخرى في هذه الآية.

منها كيف سأل موسى الله تبارك وتعالى أن يراه؟

وما هي الرؤية التي سألها موسى؟ هل هي الرؤية البصرية المادية؟ إذن فموسى أجلّ من ذلك السؤال، ولأجل أن نفهم معنى سؤال موسى نقول إن موسى سأل الله تعالى التجلّي المباشر ودون واسطة، وتوضيح ذلك:

الوجود وكل الموجودات هي مستوى من مستويات التجلّي لأسماء الله تعالى، لا يوجد شيء غير الله تعالى في الوجود، فما في الوجود عبارة عن ماهيات أفاض عليها الله تبارك وتعالى وبسط عليها رداء الوجود، فليس الموجود إلاّ الله تعالى، إنما هذه تعيّنات للوجود الإلهي، ولهذا المفسرون يذكرون ــ العرفاء منهم ــ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[٢] يقولون: كل شيء

---

(1) الليل: ٢.

(2) القصص: ٨٩.

هالك بالفعل ووجه الله هو الباقي، بل وجه الله هو الموجود، وما الوجود والكون الفسيح إلاّ وجه الله تبارك وتعالى.

ولهذا قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان، وهو الآن كما كان، لا يخلو منه مكان...».[١]

إذن التجلّي موجود بالفعل، الشمس هي تجلّ لأسماء الله، وكذلك السموات، الأرض، الإنسان، الشجر، الماء، الحيوان والجبل، فكل هذه تجلّيات لأسماء الله تبارك وتعالى.

مثال ذلك أمواج البحر والبحر، نقول هذه أمواج البحر وهي عبارة عن ملايين الأمواج التي تصغر وتكبر وتنتهي وتتلاشى وتصعد وتنزل لكنها هي البحر أم هي غير البحر؟ الجواب هي البحر نفسه وليست شيئاً آخر لكنه ظهر على شكل هذه الأمواج. وهكذا يمثل العارفون هذا المفهوم بمثال الكلمات والمداد أي الحبر، فأنت تكتب الكلمات والحروف، أنت لا تستطيع أن تقول إن هذه الحروف المكتوبة هي غير المداد بل هي المداد تشكل على شكل هذه الكلمات، هذا المعنى يمكن نظمه بالشكل التالي:

هذه أحرفٌ صِيغَت من مدادِ	أيها الموجودُ قُل لي في سدادِ
ليست الأحرفُ إلاّ إعتبارْ	إنما الحبرُ بهذا الشكل صارْ

فالحروف هي تشكّل للحبر والمداد، هكذا الموجودات جميعها هي تعيُّن للوجود المطلق وهو الله تبارك وتعالى، ولو كانت شيئاً آخر لزم أن يكون هنالك موجودان وحاشى أن يكون موجود غير الله تعالى،

(1) التوحيد: ١٧٩.

إنما هذه تشكُّلات وتعيُّنات وتجليات الوجود المطلق كما يتجلى البحر في الأمواج وكما يتجلى الحبر أو المداد في الكلمات.

الموجودات كلها تجلٍ لأسماء الله تبارك وتعالى بمستوىً من المستويات.

هناك مستويات لهذا التجلي حتّى نصل إلى التجلي الأعظم «اللهم اني أسألك بالتجلي الأعظم»[1] الذي تجلى به الله تبارك وتعالى لنبينا ﷺ فكان المبعث الشريف.

العلماء العارفون يقولون بالاصطلاح المنطقي الحوزوي: الوجود مرةً يؤخذ بشرط شيء فيكون هو عبارة عن التعيّنات الخارجية فيكون شمساً وقمراً وشجراً وحجراً ومدراً، هذا الوجود المتعين وهذا أنا وأنت وجود ولكن بشرط شيء بحيثية من الحيثيات، الوجود بهذه الحيثية وبهذه الأطر والحدود يكون اسمه الموجود الفلاني كالشمس والقمر.

ومرةً ثانيةً يؤخذ الوجود لا بشرط أي لا بحيثية أو أُطر وهذا هو الوجود العام الكلي الذي ينطبق على كثيرين فتشير بيدك إلى الشمس وتقول هذا وجود، فالقمر وجود والشجر وجود وهكذا.

لكن هناك مرحلة ثالثة وهي الوجود بشرط لا، أي بشرط فصل كل الحيثيات عنه بدون النظر إلى حيثية من الحيثيات أو تعيُّن من التعيُّنات، ذاك هو الوجود المطلق الذي يقول عنه العرفاء هذا الوجود المطلق لا هو كلي ولا هو جزئي ولا هو جوهر ولا هو عرض ولا يمكن إدراكه ومعرفة كنهه، ذلك هو الحق الذي لا يشوبه باطل، ولا يشوبه عدم بأدنى مستوى من مستويات العدم، هذا الوجود الحق الذي لا

---

(1) مفاتيح الجنان: دعاء المبعث.

يشوبه باطل يتجلى في مظاهرٍ وجودية، في تعيُّنات الماهيات في هذا وذاك فهذه كلها تجليات لله تبارك وتعالى بواسطة التعيّنات الجزئية.

لكن موسى وهو يفهم هذه الحقائق سأل الله تبارك وتعالى أن يتجلى له بدون واسطة.

المفسرون يقولون: أليس الله تبارك وتعالى قد كلّم موسى تكليماً؟ ولم يكن ذلك عبر وسائط الوحي ـ جبرئيل ـ أو أي متكلم آخر وإنما كان هناك مباشرة في الكلام من قبل الله تبارك وتعالى مع نبيه موسى، ولذلك صار كليم الله.

الكلام وحتّى كلامنا ليس إلاّ فيض إلهي، كل كلام ووجود وصوت مسموع ومرئيٍّ ليس إلاّ مشهد من مشاهد أسماء الله تبارك وتعالى، لكن أحياناً يكون بشرط شيء أي متعيّناً بأحد التعيّنات الخارجيّة فيقال هذا كلام فلان ومرةً يكون بدون تعيُّن كما الله تبارك وتعالى كلّم موسى تكليماً.

موسى حينئذٍ في ضوء ذلك قال: إلهي كما تفضّلت أن كلمتني تكليماً، فأريد أن أراك مباشرةً بدون تجلٍّ من هذه التجلّيات التعيُّنية.

هنا الله تبارك وتعالى أجابه ﴿لَنْ تَرانِي ﴾ وان هذا التجلي المطلق وبدون تعيُّن لا يكون إلاّ في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ * إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾.[1]

وهذا أيضاً هو ما يتكرر في روايات أهل البيت عليهم السلام أن الإنسان المؤمن يوم القيامة يزور الله في عرشه، هذه مجموعة مفاهيم متواترة عن أهل البيت عليهم السلام وربما نختلف في فهمها لكن الفكرة أن هناك تجلٍّ لله تبارك وتعالى لا يمكن أن يتحقق في الدنيا ويمكن أن يتحقق في

(1) القيامة: ٢٢ و٢٣.

الآخرة ولذا قال الله تعالى لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾، وأدرك موسى تلك الحقيقة فقال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

نحن نجد التأكيد على مفهوم التجلي في (دعاء السمات) وهو الدعاء المشهور بين العلماء وهذا الدعاء جاء في أكثر من رواية عن الإمام الباقر وعن الإمام الصادق وعن الحجة عليه السلام ويرويه الكفعمي والشيخ الطوسي وله درجة عالية من الاعتبار وبعدة أسانيد، وهذا الدعاء منسوب بالأصل إلى يوشع وصي موسى ولهذا هناك إكثار في هذا الدعاء وتسليط ضوء كبير على موسى وكراماته ومعاجزه «وبمجدك الذي تجلّيت به للجبل فجعلته دكّاً فخرّ موسى صعقا»،[1] «وبطلعتك في ساعير وظهورك في جبل فاران وبمجدك ونورك وجبروتك»[2] وهي مفاهيم عظيمة.

الله تبارك وتعالى له ظهور وله تجلٍّ لكن هذا التجلي الذي يبحث عنه الأنبياء والصالحون، ويتوقون إليه لا يصلون إليه إلاّ في عالم المقيّد ولا مجال للمطلق هنا الا عبر التعيُّنات.

دعاء السمات من الأدعية العظيمة التي جاء التأكيد عليه وعلى أهميته لقضاء الحاجات ودفع البلاء ودفع شر السلطان وغيرها، ومفاهيمه هي مفاهيم تستحق الوقوف عندها وتستحق أن يعيش في أجوائها طلاب العلوم الدينية.

كرامات الإمام الحسن العسكري عليه السلام:

المؤرخون يذكرون عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام ما هو ثابت بالاجمال ثبوتاً متواتراً.

---

(1) دعاء السمات.

(2) السابق.

_ لاحظوا أن كرامات أئمّتنا قد تناقش في مفرداتها من ناحية سندية، لكن في مجملها لا يمكن أن نناقشها، فهي ثابتة بالتواتر _.

الراوي يقول: كان الإمام الحسن العسكري عليه السلام يكتب، فحان وقت الصلاة فنهض الإمام للصلاة.

يقول الراوي وكنت أشهد القلم يكتب حتّى جاء إلى آخر الكتاب، فلما أنهى الإمام العسكري صلاته عاد إلى القلم والقرطاس ليكتب.(1)

وفي رواية أخرى أن الإمام العسكري عليه السلام كان سجيناً ويومئذٍ حكم الطغاة قائم على سفك الدماء البريئة، فالرواية تقول: أن النحرير _ مروّض السباع _ ألقى بالإمام الحسن العسكري إلى السباع وما يظن من حوله إلاّ وان السباع أكلته ومزقته، وبعد لحظات نظروا وإذا إمامنا الحسن العسكري قائم يصلي والسباع من حوله.

الله تبارك وتعالى تجلى في أعظم من تجليه في الشمس والقمر والسموات والمجرات، تجلى في شخص نبينا صلى الله عليه وآله وفي أئمّتنا عليهم السلام وفي سائر الأنبياء عليهم السلام بمستوى عظيم من المستويات، والأنبياء والأئمّة الأطهار يدأبون ويكدحون حتّى يتلاشوا في ذات الله تبارك وتعالى وحتّى يعبروا كل التعيُّنات وكل الأنانيات والحدود. وحينئذٍ ليس إلاّ الله تبارك وتعالى. وحينئذٍ يتحقق قوله عز وجل في الحديث القدسي: «يا ابن آدم، أنا حي لا أموت، أطعني فيما أمرتك، حتّى أجعلك حياً لا تموت،

(1) أنظر: الخرائج والجرائح ١: ٤٣٧، عنه بحار الأنوار ٥٠: ٢٦٨.

يا ابن آدم، أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون»[1] وحينئذٍ يتحقق ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.[٢]

أنا أذكر هذا الأمر لأجل أن نتعايش مع هذه المفاهيم والحقائق، فيجب أن نتعلم من أئمّتنا كيف أنهم ذابوا وتلاشوا في الله تبارك وتعالى. وحينئذٍ جرت على أيديهم هذه الكرامات والمعاجز فالمسألة هي مسألة ارتباطهم المطلق وفنائهم بالله تبارك تعالى.

الإمام موسى الكاظم عليه السلام كان يلتقي أناساً خارج السجن والسلطان يضع عليه السجانين، ومع ذلك كان الإمام يخرج من السجن ودون أن يشعر به السجانون،[٣] كيف ذلك؟

الإنسان حينما يرتبط ارتباطاً كاملاً أو بمستوى عالٍ من مستويات الارتباط هكذا يكون، حينئذٍ يعبر حدود السجن والقيود والسجانين ورقابة السجانين.

اللجوء المطلق إلى الله:

هناك رواية عن الإمام الهادي عليه السلام ليتنا نقف على ساحل هذه الرواية، وهذه الرواية تقول: طلب أحد شيعة الإمام أن يتدخل ويتوسط له الإمام عند الخليفة العبّاسي الذي كان يلاحق ذلك الشيعي ويطارده، فاستجاب له الإمام عليه السلام ووعده خيراً، وبعد مدة أرسل الخليفة على

(1) إرشاد القلوب: ٧٥، عنه مستدرك الوسائل ١١: ٢٥٨/ ح ١١/١٢٩٢٨.
(2) الأنفال: ١٧.
(3) أنظر: مناقب آل أبي طالب ٣: ٤١٤؛ بحار الأنوار ٤٨: ٢٣٧.

ذلك الرجل وأكرمه وأغدق عليه. وبعكس ما كان يتوقعه، فبدلاً من أن يطارده أصبح الآن يغدق عليه، رجع إلى الإمام متهللاً فرحاً.

فقال له الإمام عليه السلام: «هذا وجه الرضا».

قال: نعم سيدي فالأمر انقلب لي وليس عليّ، ولكن أنا سألت أعوان الخليفة فقالوا لي: انك لم تذهب إلى الخليفة ولم تبعث له برسالة، فما الخبر؟

قال الإمام عليه السلام: «إن الله علم منا أنّا لا نلجأ في المهمات إلاّ إليه ولا نتوكل إلاّ عليه، وعوّدنا إذا سألناه الاجابة ونخاف أن نعدل فيعدل بنا».[١]

أيها السادة، أيها الاخوة يا طلاب العلوم الدينية، هذا واقع يجب أن نعيشه وليس مسألة نظرية.

كيف نثق بالله ونتوكل عليه بحيث لا نرى شيئاً إلاّ إرادة الله تجري على الأرض؟

وحينئذٍ إذا سألناه يجيبنا أي لا نسأل غيره ولا نلجأ إلى غيره.

السيد محمّد باقر الصدر 1:

أستاذنا آية الله الشهيد الصدر 1 ونحن نعيش ذكرى شهادته، الشهادة المباركة التي نقلت العراق إلى واقع جديد ونحن اليوم نعيش هذا الواقع الجديد الذي خطّه ورسمه آية الله الشهيد السيد محمّد باقر الصدر 1.

اليوم العراق الجديد هو تجسّم لإرادة ذلك الإنسان الذي عاش لدينه وشعبه ووطنه، ولم يعش لشخصه ولا لأسرته أو محلته أو مدينته، هكذا ضحى.

الله تبارك وتعالى كتب له الآن بعد أكثر من ربع قرن من شهادته أن العراق يتغير ويمشي بالطريق الذي أراده له.

---

(1) أنظر: أمالي الطوسي: ٢٨٦/ ح ٢/٥٥٥.

كان يقول 1 وهو يعرف انه سوف يستشهد: «لقد كتبت كثيراً، لقد درست كثيراً، الدراسة لمن؟ الكتابة لمن؟ العمر لمن؟ العمر لانقاذ الإنسان، لانقاذ الوطن، اليوم يجب أن أغلق الكتاب والقلم وأنقذ شعبي» وحينما طلبت منه المرحلة أن يقود عملاً تغييرياً استجاب لذلك.

الشهيد الصدر 1 هو رائد الحركة التغييرية في العراق.

هذا الإنسان كان يريد أن يغيّر شعباً ويريد أن ينهض بأمّة كاملة، يجب أن يكون بحجم تلك الأمّة وليس بحجمه البدني الصغير، أو بحجم أسرته أو عشيرته أو محلته أو ما شاكل، يجب أن يعيش بحجم تلك الهموم حيث كان يحمل همَّ الإسلام كله فضلاً عن العراق كله.

رضوان الله عليه وأعلى شأنه كان يقول: اني في بداية طلبي للعلم _ أي في أيام الصبا جداً عارضه ذووه في مشروع طلب العلم _ لكن أبيتُ الا أن أطلب العلم، فعشت الأيام الثلاثة الأولى وأنا آكل الخبز اليابس بالماء فقط لأثبت لهم اني ماض في هذا الطريق، أعطوني أم لم يعطوني، قاطعوني أم لم يقاطعوني، لاحظوا العزم العظيم كانت هذه نتيجته.

كان يقول بأنه مرّ عليّ شتاء كامل وأنا ألبس (الخاجية) _ العباءة الصيفية الخفيفة جداً _ التي لا تقي من حر أو برد. وحينها أنا لم أفكر انه لماذا أنا لا أملك وغيري يملك، فهذه قضية خارجة عن همومه أصلاً فما قيمة هذه القضايا الوهمية الاعتبارية، لاحظوا الارتباط المطلق، الارتباط بالله وبالهموم الكبرى وليس بالهموم الجزئية وهكذا يجب أن يكون صاحب الهم التغييري.

نظرية التغيير الإسلامي:

في نظرية التغيير عند الشهيد الصدر 1 هناك بحث في ثلاثة

محاور، بحث في امكانية التغيير، وبحث في مشروعية التغيير، وبحث في عناصر التغيير.

١ _ امكانية التغيير:

كان هناك سجال حقيقي بين نظريتين، نظرية الأكثرية تقول لا يمكن التغيير، ونظرية الأقلية تقول يمكن التغيير.

الذين يقولون لا يمكن التغيير يقولون كيف نغيّر؟ ونحن لا نملك شيئاً. فلا نملك أمّةً ولا إمكانات ولا وسائل إعلام، ولا قوات ولا دولة كبرى، إذن كيف نغيّر ونحن محاصرون؟ هل يمكن أن نحدث تغييراً كبيراً سياسياً في البلاد مع فقد هذه الامكانات؟ إذن لا يمكن التغيير.

هذه هي المدرسة السائدة يومئذٍ.

أما نظرية الأقلية وهم بعدد أصابع اليد فقالت إنه يمكن التغيير اعتماداً على الله تبارك وتعالى، وثقةً بما تركه الأئمّة الأطهار في قلوب هذا الشعب، حيث أن هناك جذر ديني جيد في هذا الشعب يمكن الاعتماد عليه، الثقة بالله والثقة بالشعب والثقة بقوة الإسلام والمذهب. فالإسلام قوي وقادر على أن يواجه الحصار ويكسره من حوله.

تصوروا كم هو الفرق بين ذلك اليوم وبين ما نحن عليه الآن؟

نحن اليوم نشهد امكانات ووضع سياسي يمشي لصالحنا في كل العالم، ونشهد السدود التي وضعت لنا قد كُسرت، أمّا في ذلك الوقت فنحن كنا في حصار شديد، الأيدي مكبّلة والأرجل مكبّلة واللسان مكبّل والعين مكبّلة ومع ذلك انطلق هذا الإنسان ليقول: نعم يمكن التغيير.

٢ _ مشروعية التغيير:

أيضاً كانت هناك مدرستان، مدرسة تقول إن العمل التغييري غير

مشروع، ففيه دماء وتضحيات. ومن يتحمل مسؤولية الأرامل واليتامى؟ ومن يتحمل مسؤولية شباب يدخلون السجون؟

المدرسة التي لا تقبل مشروعية التغيير كانت تسطر معها دلائلها مثل ما ورد. أن كل راية ترفع قبل قيام قائمنا فهي راية طاغوت، وان العمل السياسي ليس من شأن طالب العلم.

هذه المدرسة أيضاً كانت هي المدرسة السائدة التي تشكك في مشروعية التغيير.

لكن الإمام الشهيد الصدر 1 وتأسياً بالأنبياء والأئمّة عليهم السلام وهم الذين كانوا بدون إمكانات لكن كانوا يعتقدون بامكانية التغيير وضرورته، الأنبياء والأئمّة أيضاً واجهوا مسألة مشروعية التغيير وما فيه من دماء وتضحيات وسجون. الأنبياء قالوا إن التغيير مشروع لله تبارك وتعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾.[1]

اليوم المشروعية أصبحت قضية واضحة وبديهية فلا يوجد اليوم ولا واحد من ألف في ذهنه شيء من الشبهة، أن هذا العمل التغييري الذي يجري في العراق وما تقدمت به المرجعية الدينية والشعب العراقي هل هو مشروع أو غير مشروع؟ صحيح أو غير صحيح؟ حلال أو حرام؟

لا أحد الآن يستطيع أن يضع علامة استفهام مثلاً على المشروع الانتخابي الذي قام به الشعب العراقي، اليوم المشروعية أصبحت واضحة بل التشكيك فيمن لا يتقدم في هذا الطريق.

الإمام الشهيد الصدر انطلق من نظرية مشروعية التغيير وضرورة

---

(1) النساء: ٧٥.

التغيير. وهذا هو جوهر حركة الأنبياء والأئمّة والفقهاء الذين يحملون الأمانة بعد الأئمّة الأطهار.

٣ _ مجالات التغيير:

الأمّة، الحوزة، المرجعية.

الأمّة يجب أن تشهد تغييراً.

وهنا كان يقول السيد الشهيد الصدر: إن نهضة الأمّة تحتاج إلى دم كدم الحسين عليه السلام، أي أن الأمّة يجب أن تنهض لكن النهوض بهذه الأمّة يحتاج إلى جماعة صالحة ينهضون ويتقدمون بهذه الأمّة، وكان هو على رأس هذه الجماعة الصالحة، الأمّة يومئذٍ كانت تعاني من أزمة إرادة.

لاحظوا اليوم كم هي الإرادة قوية عند أمّتنا، الآن بحمد الله تعالى الشارع مليء بعزم وإرادة. وخاصةً شيعة أهل البيت فهم ممتلئون إلى الأعناق إرادةً وعزماً لبناء العراق الجديد، رغم الجراحات ورغم نزف الدماء، لكن يومئذٍ الإرادة كانت مفقودة، إرادة التغيير أن نتصدى لاحتلال مواقعنا في القرار السياسي والحكم في العراق، لقد كان ذلك خيالاً في الحقيقة و كما في لغة الحوزة العلمية أمامه (خرط القتاد).

الأمّة تحتاج إلى إرادة فالشهيد الصدر 1 كان يرى دوره ودور ثلة صالحة هي أن يعطوا الإرادة والعزيمة لهذه الأمّة ولو عبر شهادتهم. وهذا هو دورنا أيضاً اليوم ودور الحوزة العلمية وطلبة العلوم الدينية، يجب أن نعطي للأمّة باستمرار إرادةً، يقظةً وعزيمة، هذا بالنسبة للأمّة وهي المجال الأوّل للتغيير.

أمّا الحوزة العلمية فأيضاً كانت بحاجة إلى نهوض في محتواها العلمي وفي خطابها الاعلامي وفي حركتها السياسية، كانت بحاجة إلى

صـفحة جديـدة وهـذا مـا رسـمه 1 ومـا نعيـشه اليـوم هـو تأشـيرات لحركتـه وأصابعه واضحة التأثير فيما يجري اليوم.

وحقيقـةً أقـول لكـم قلّبـوا العـراق الجديـد ومـن يقـف علـى رأس العمـل السياسي تجدون انهـم من تلامذة الشهيد الصدر ومن خريجي مدرسته جميعاً وأكاد أقول بلا استثناء، هذه شجرة مباركة أن إنساناً يُستشهد ويكتب الرسائل إلى طلابه بأنه أنا ذهبت عنكم، لكن أنتم احملوا هذا الهم واسقوا هذه الشجرة.

اليـوم فـي الحقيقـة العـراق الجديـد يقـف علـى رأسـه أولئـك الـذين تخرجـوا مـن مدرسـة هـذا الإنـسان مباشـرة أو بـشكل غيـر مباشـر، العـراق اليـوم يغلـي بـروح الإمـام الـشهيد الـصدر 1، الحـوزة العلميـة كانـت بحاجـة إلى نهضة في محتواها العلمي وخطابها الاعلامي وحضورها السياسي.

كان يتحدّث ويصرخ انه لماذا الناس ينظرون إلينا شزرا؟ لماذا الأمّة تتبرّم منا؟ لأننا لم نلتق بالأمّة فيجب أن نحضر مع الأمّة وحينئذٍ الأمّة تكون معنا.

كـان يقـول: لمـاذا لا يكـون لكـل واحـد مـن طـلاب العلـوم الدينيـة تـأثير على خمـسة شباب مـن أبنـاء أمّتـه علـى الأقـل؟ لمـاذا نعيـش فـي عزلـة عن الناس؟ لماذا لا نلتقي بالناس؟

أســس 1 للحـضور الجمـاهيري والـسياسي وحـضور الحـوزة العلميـة فـي الوسـط الجمـاهيري والـسياسي، اليـوم نحـن نعـيش علـى تلـك الأُسـس التي بناها الشهيد الصدر.

أمّا المجال الثالث للتغيير فهو المرجعية الدينية وهي القيادة العليا للحركة التغييرية الإسلاميّة، لحركة الاصلاح الديني، لكن هذا هو ممارسة قبل أن يكون موقعاً، المرجع الديني قبل أن يمثل هذا الموقع يجب أن يجسد الواقعية القيادية، فإنه بمقدار ما يكون قائداً على الأرض يكون قائداً شرعاً أيضاً، أي بمقدار ما

يمارس العملية القيادية. الضوء لا يضيء إلاّ إذا كان متوهجاً بذاته وهو يحترق فالشمعة إن لم تحترق فلن تضيء.

المرجعية الدينية بمقدار ما تمارس العملية القيادية تكون هي القيادة، ولهذا كان يرى السيد الشهيد أن من واجبه أن يتصدى كما هو شأن الفقهاء الآخرين وكل بطريقته وحسب امكاناته دون أن نتقاطع مع الآخرين. فمن له قدرة في التأليف يتصدى لهذا المجال، ومن له قدرة في الخطابة يتصدى في هذا المجال ومن له قدرة في التدريس يتصدى في هذا المجال، ومن له قدرة في الشأن السياسي يتصدى في هذا المجال دون تقاطع، أي أن الكل يجب أن يشكلوا تصدياً واحداً على عدة ألوان ومجالات.

وهكذا تصدى رضوان الله عليه لقيادة العملية التغييرية بدون ادعاء، لأن المسألة ليست مسألة ادعاء ولا مجرد نظرية، النظرية ثابتة لكن ما تصنع النظرية إذا لم تتحول على أرض الواقع إلى ممارسة؟ اليوم المرجعية الدينية وبدون ادعاءات عريضة تباشر القيادة وتباشر تغيير الساحة.

الشهيد الصدر 1 حينما استشهد الشهيد مطهري في بدايات نجاح الثورة الإسلاميّة في ايران، تصدى لعقد مجلس فاتحة له في مسجد الشيخ الطوسي هنا في النجف الأشرف، لاحظوا أن هذا العمل بسيط جداً لكن كان يُحارب عليه، وأحاطنا رجال الأمن والعيون في مسجد الشيخ الطوسي، يومئذٍ كان عندنا مشكلة، وهي أن الإعلام عن مجلس الفاتحة في المئذنة ماذا يقول؟ ويومئذٍ كان الإعلان عن مجالس الفاتحة يُقرأ في مئذنة الصحن الشريف، يقول: (يقام مجلس الفاتحة على روح الشهيد مطهري) من قِبَل من؟

هل هو من قبل آية الله العظمى؟

أو من قبل حجة الإسلام والمسلمين؟

أو من قبل الإمام السيد محمّد باقر الصدر؟

هذه عناوين اعتبارية.

الشهيد الصدر 1 قال: قولوا يقام مجلس الفاتحة من قبل السيد الصدر بدون أي لقب، فهذه عناوين زائلة، ونحن لسنا ضدها لأحدٍ من الناس ممن يستحقها، لكن نحن يجب ألاّ نفكر فيها، ويجب أن نفكر بالعمل والممارسة على الأرض، كم تستطيع أن تمارس على الأرض عملاً تغييرياً، حينئذٍ نكون بذاك الحجم، أنت قائد ومصلح وواعظ ومرشد، ولو تجمعت لك كل العناوين وبدون ممارسة على الأرض فهي تذهب هباءاً منثوراً.

الشهيد الصدر 1 يعتقد بقيادية المرجعية الدينية، وضرورة رجوع الأمّة إليها، والنخب الإسلاميّة والثقافية والسياسية، في نفس الوقت يجب أن تمارس المرجعية العملية القيادية.

وحينما نقول يجب فنحن لا نفرض تكليفاً محدداً، وإنما كإطار عام فالفقهاء أمناء الرُسُل وهم يشخصون ما هو الدور الذي يستطيعون أداءه دون أن نشخّص لهم نحن وتترك الممارسة لهم، وهذا هو أحد النقاط الجوهرية في مسيرتنا اليوم.

نحن نقول: المرجع يشخّص التكليف.

الواقع السياسي العراقي:

المحور الثالث في الحديث هو الواقع السياسي.

الواقع السياسي اليوم نشهد فيه مظهرين لمنعطفٍ جديد:

المظهر الأوّل: الأزمة السياسية.

المظهر الثاني: الشكل الجديد للإرهاب.

الأزمة السياسية:

المشكلات السياسية مستمرة ما دامت الحياة السياسية مستمرة، منذ سقط نظام صدام كانت مشاكل سياسية ونحن نعبر مشكلة بعد أخرى وبحمد الله بنجاح، سمّها مشكلة أو عقدة أو أزمة سياسية، لكن اليوم نحن نعيش أزمة سياسية من نمطٍ جديد.

بالأمس كانت أزمتنا ومشكلتنا السياسية مع من لا يؤمن بالعراق الجديد، مع مكونات أخرى، مع تيارات أخرى.

اليوم أزمتنا السياسية في داخلنا وهذا نمط جديد للأزمة السياسية، ترشيح رئاسة الوزراء، الأزمة الآن داخلية وهنا يجدر أن نقول إنها ليست أزمة بدون حل، وليست نفقاً بدون ضوء، فنحن اعتدنا على مثل هذه الأزمات وهذه المشكلات. ودائماً المسير فيه غبار وما شاكل، لا يمكن لسفر أن يكون بدون هذه الأشياء فهذه مقتضيات السفر ومقتضيات العمل التغييري، نحن لا نعيش أزمة مستعصية في البلاد، نعم هي أزمة وطالت هذه الأزمة والشعب متعطش لحل هذه الأزمة من قبل الكتل النيابية التي آمن بها وأعطاها صوته، الشعب ينتظر، ومن حقه أن ينتظر ومن الحق أن نقول إن هذه عقدة كبيرة وربما يقول البعض إنها أكبر من العقد السابقة، ولكننا نقول إن العقد السابقة كانت أكبر، ارجعوا إلى الوراء وانظروا أيام التصويت على الدستور، وانظروا انتخابات مجلس النواب والانتخابات الأولى على الجمعية الوطنية، كانت أزمة محدقة بالبلاد فقد ننجح أو لا ننجح، نفوز أو لا نفوز، نكون أكثرية أو لا نكون أكثرية، نُسحق أو نُغلب، جمهورنا يحضر، أو لا يحضر والمرأة تحضر أو لا تحضر، الإرهابيون ماذا يقولون؟ والعالم ماذا يقول؟ هل ستنجح العملية السياسية أم لا؟

ارجعوا إلى الوراء وقلّبوا الأوراق ستجدون أنّا عبرنا عدداً كبيراً من الأزمات، والآن نحن نعيش في أزمة داخلية وسنشهد اليوم أو غداً إن شاء الله تعالى حلاً لهذه الأزمة وهي قضية ترشيح رئاسة الوزراء من قبل الائتلاف، والعمل على أن يحظى هذا المرشّح بأكثرية الأصوات في البرلمان، وهذا هو منشأ الأزمة. اننا نريد أن ننجح في البرلمان، الائتلاف يواجه مشكلة وهي كيف يفوز مرشحه في البرلمان؟ هذه مشكلة بالنسبة لنا لأننا ليس لدينا إلاّ خيار واحد وهو أن يفوز مرشحنا في البرلمان، لكن كيف نعمل على فوز المرشح في البرلمان؟

هنا يأتي البحث في إمكانية أن يفوز هذا المرشح (أ) أو ضرورة الانتقال إلى المرشح (ب) أو(ج) أو إلى ما شاكل ذلك من الخيارات الأخرى.

الأزمة لحد الآن هي أن الاخوة الفرقاء السياسيين يبحثون في انه إذا كان هذا هو مرشحنا الوحيد فسنواجه عقبة في البرلمان.

هناك رأي يقول اننا ممكن أن ننجح حتّى في عقبة البرلمان، هذا رأي محترم وهناك رأي مطروح انه على تقدير اننا لا ننجح في البرلمان فتعالوا من الآن نعمل للضغط على الكتل الأخرى التي لا تقبل بمرشح الائتلاف حتّى يتنازلوا عن موقفهم الرافض.

لحد الآن كل هذه الطروح والبدائل لم تحسم، أو حسمت بالنفي. وكان هناك بحسب تصوري حل آخر للأزمة على تقدير عجز كل الحلول يتمثل في إسقاط خياراتنا لصالح خيار المرجعية، أي تحكيم المرجعية.

أنا أرجو وكما عرفت أن هناك آفاق جديدة فتحت لدخول المرجعية على الخط في هذا الموضوع، أي أن المرجعية تضطر أن تباشر الحل لهذا الموضوع وهذا ما نرجوه ببركة إمامنا صاحب العصر والزمان أن يفيض على

قلوبنا ويسدد موقف المرجعية الدينية بإذن الله تبارك وتعالى. وهذا رجاؤنا من الله ﷻ وهذا الحديث ليس جدلاً سياسياً بل هو حديث إلهي.

نحن نعتقد أن الفقهاء أُمناء الرسول ﷺ ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[1] **فأي حصن أأمن لنا وأوفق من المرجع الديني خاصةً بعدما أثبت هذا المرجع الديني أنه مسدد من قبل الله تبارك وتعالى، وأنقذ سفينة العراق من الغرق عدة مرات.**

اليوم الحل صعب ولا يتصور الناس أن العراق وصل إلى طريق مسدود، نعم قد تقول انه مخاض عسير لكن الوليد سيكون وليداً مباركاً إن شاء الله. وكما عودنا الله تعالى (إذا سألناه الاجابة)، حقيقةً نحن ننتظر خاصة بعدما وصل الفرقاء إلى اللانتيجة فيما بينهم. تعالوا إذن وأسقطوا كل الخيارات والجأوا إلى المرجعية الدينية وسوف تحتضنكم المرجعية إذا جئتم إليها بهذا الشكل.

الشكل الجديد للإرهاب:

العراقيون اعتادوا على مشاهدة الإرهاب والدماء النازفة، لكن هذه المرة يظهر شكل جديد للإرهاب، منذ هدم قبة الإمامين العسكريين عليهما السلام بدأنا نشهد منعطفاً جديداً ومظهراً جديداً للإرهاب وهو التهجير، تهديد مدن وقرى ومحلات، وأقضية ونواح كاملة يراد تهجيرها، إحداث تغيير ديموغرافي في البلاد وقتل واسع، هذا مشهد جديد في الحقيقة في محاولة لاثارة معركة طائفية ومرة أخرى نحن نؤكد أن من يقف وراء هذه الأعمال ليسوا هم أبناء طائفة واحدة في مقابل طائفة،

(1) النساء: ٥٩.

هؤلاء هم الإرهابيون جزماً فيهم سُنّي وفيهم شيعي وفيهم من لا دين له، وبالفعل الإرهابيون قسم منهم سُنّة وقسم منهم شيعة، هؤلاء هم أتباع النظام السابق. المخطط الآن أن يحرقوا الشيعة باعتبارهم الأكثرية الذين يقودون العملية السياسية في محاولة لجرّهم ليقفوا ضد السُنّة.

واقع القضية أن الذي يقوم بهذه العمليات الإرهابية هم أتباع النظام السابق بغض النظر عن هويتهم الدينية. صحيح انهم الآن يصبون جام غضبهم على الشيعة باعتبارهم من يقود العملية السياسية، وأنا أقول لكم لو كان أبناء السُنة هم من يقود العملية السياسية فإن الإرهابيين سيقومون بنفس الأعمال ضدهم. فهم ضد العملية التغييرية ويريدون العودة إلى النظام السابق وحزب البعث، وعلى كل حال هذا منعطف جديد أصبحنا نشهد تهجيراً مأساوياً وأنا معكم أيضاً أحمل هذا الألم الذي يحمله الشيعة.

أيّ مأساةٍ نحن نعيشها الآن؟

خمس وعشرون ألف عائلة مهجرة من شيعة أهل البيت، لكن الشيء الذي أقوله هو اننا نصبر ونتحمل هذا الأسى وهو أهون بكثير مما كان عليه الواقع العراقي أيام النظام السابق.

الآن لأننا نتقدم نُرمى بهذه السهام. وكانت أضعاف أضعاف هذه السهام نُرمى بها ولم يكن أحد يتحدّث، نعم يوجد الآن نزف دماء وتقطيع أشلاء، لكن الفرق انه يومئذٍ كان يُدفن في مقبرة جماعية واحدة ثلاثة آلاف شخص وهم أحياء بملابسهم ولا أحد يدري، اليوم يُقتل خمسون أو مائة وكل العالم يدري ويشهد، المقابر الجماعية هم أهلنا وذوونا، يُقتلون حصداً في الحروب وغيرها ولا أحد في العالم يتحدّث لماذا يُقتل هذا الشعب.

وقُطعت آذان وألسن وأيدي ووشمت جباه ولا أحد يتحدّث، نعم الآن تقطع أيدٍ وأرجل ورؤوس ويُقتل أناس أبرياء مظلومون، ولكن بحمد الله تعالى نجد وراء هذا النزف الدموي صيحات تنتصر لهؤلاء المظلومين، وإعلاماً عالمياً يتحدّث عن ظلامتنا وأمّة تتحرك، يومئذٍ كنا نُذبح ونُقتل ولا أحد يستطيع أن يشارك في دفن جنازة ميته، ولا عقد مجلس فاتحة لميته وشهيده، اليوم هذه الدماء تحرك الأرض وتشحذ الهمم بمقدار ما فيها من أسى وبمقدار ما فيها من ألم، لكن يجب أن نعرف حقيقة ما يجري، وأن هذا لا يمثل تراجعاً في مسيرتنا ولا يمثل هزيمة لنا ولا انتصاراً لعدونا، اليوم أصبحنا نحن الذين نتحرك على الأرض. وحقيقة المعركة هي ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾.[1]

يجب ألاّ يحدث في قلوبنا ذرة من التراجع واليأس والضعف، يجب أن نهزأ بالأعداء ونسخر منهم ومن حماقاتهم.

نحن يوماً ما لم نكن شيئاً يُذكر، الحركة التغييرية التي بدأ بها الشهيد السيد محمّد باقر الصدر 1، كنا يومها لا نكاد نُذكر، لكن لم يستطع أعداء الإسلام وأعداء أهل البيت من أن يسحقوا هذا التحرك.

الحوزة العلمية التي دهتها الدواهي لكن لم تستطع أن تقلعها، فهل يستطيعون الآن بعد نمو هذه البذرة التي أينعت وأورقت وأصبحت شجرة يستظل بظلها العراقيون أن يقلعوها؟ خابت آمالهم وخسرت صفقتهم فالآن هذه الشجرة المورقة، العالم ينظر إليها وماذا يصنع شيعة أهل البيت في العراق؟

ماذا تصنع الحوزة العلمية والمرجعية الدينية؟

---

(1) النساء: ١٠٤.

لا يصح أن تصل إلى قلوبنا ذرة من اليأس أو القلق أو الضعف أوالوهن ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] فالله يقول أنتم الأعلون فلماذا الوهن والحزن.

مأساة التهجير:

هناك مجموعة أسئلة وجهها إليّ مجموعة من فضلاء الحوزة العلمية:

ما هو الموقف تجاه مأساة التهجير؟

ما هو الموقف تجاه نمط من السلوك المنحرف الذي أصبح يظهر هنا وهناك باتجاهات مذهبية وباسم الدين ولكن باتجاهات منحرفة؟

هناك أدعياء يدعون أنهم وكلاء خاصين لصاحب العصر والزمان، ما هو الموقف منهم؟

ما هو الموقف من الفساد الإداري المستشري في البلاد؟

ما هو الموقف من الطبقة المحرومة الضعيفة التي ما تزال محرومة وضعيفة؟

ما هو الموقف تجاه مشكلات الطلبة في الحوزة العلمية كالمشكلات الحقوقية والسكنية؟

هذه مجموعة أسئلة عريضة.

ولكن هناك خط واحد في الاجابة عليها هو أن نجاحنا في العملية السياسية هو الكفيل بالوصول إلى هذه المشاكل الجزئية، أي أن الهدف الأكبر عندنا هو نجاحنا في بناء العراق الجديد دون أن نُشغل بهذه المسائل، فإذا شُغلنا بهذه المسائل ونسينا أصل المعركة الكبرى فاننا

---

(1) آل عمران: ١٣٩.

سنخسر كل شيء. أن العراق يجب أن يكون عراقاً جديداً بحضورنا وبفاعليتنا وصبرنا، وهمومنا الكبرى وليس الجزئية.

إن الحضور في الساحة السياسية والثقافية هو الكفيل بالنجاح في مواجهة التهجير والإرهاب والفساد الإداري، وضعف الطبقة المحرومة واستضعافها وحل، مشكلات الحوزة العلمية. فكلها مشكلات ومتى خلت الأرض من المشكلات؟ لكن لاحظوا الفرق بين ما نحن عليه الآن وبين ما كنا عليه.

الآن هذا البستان الكبير أصبحت أنت تملك مفاتيحه وتطهر الأرض ثمّ تغرس ما تريد، يومئذ لم يكن يُسمح لك بالنظر إلى هذا البستان، أصلاً لم يكونوا يعتبروننا مواطنين، وشيعة العراق يمثلون ٧٠% وكان يُقال انهم ليسوا عراقيين، كان يُقال انهم جاؤوا من الهند أو من مكان آخر، الآن هؤلاء في الحقيقة يقودون البلاد ولا بدّ من أن تواجههم مشكلات، ولا بدّ من الصبر عليها دون الانشغال بها والاستغراق فيها، كالخطيب الذي هو في عمق الحديث وفي الأثناء هناك ذبابة تؤذيه فإذا انشغل بهذه الذبابة فانه سيفشل، إذن يجب أن لا ينشغل بها نعم يبعدها عنه لكن دون أن ينسى ما هو فيه.

طالب العلوم الدينية أو العالم الديني هو يقود العملية التغييرية، فلا تشغله ذبابة إرهاب وذبابة فساد إداري وما شاكل ذلك، يجب أن يكون مسيطراً فإذا فقد السيطرة فانه يخسر.

الحل هو المضي في الطريق بالتوكل على الله تعالى، اصبروا فهذه الأزمة ستُحل لكن بلا شك بعد كذا شهر ستكون هناك أزمة ثانية فدائماً الحياة هكذا، نحن نتقدم ولسنا واقفين في مكاننا.

أيها الاخوة، أيها السادة، أيها الفضلاء، أيها الكرام في الحوزة العلمية: ثقّفوا الناس على اننا في طريق ونحن نتقدم فيه وتُحل مشكلة

بعد مشكلة، يجب أن نفكر بالهدف مثل الزائر للحسين عليه السلام فهدفه هو أن يصل للحسين. ففي الطريق يوجد تعب وقدماه تتألمان ويوجد غبار وأحياناً لا يوجد ماء، نعم توجد مشاكل يُعالجها لكن دون أن يقعد لأجلها ويترك المسير، الآن هكذا نحن بإذن الله تبارك وتعالى.

إذن هذه استراتيجيتنا وهي استراتيجية صحيحة ووجود المشكلات لا يعني أن استراتيجيتنا خطأ.

لعل بعض البسطاء من الناس سرعان ما يقولون أن زمان صدام أفضل، أو يقولون في ذلك الوقت مشكلات وفي هذا الوقت مشكلات فما الفرق؟

أن الناس والشارع العراقي بحمد الله متماسك وقوي وصلب وحاضر في الساحة وغير متراجع، نحن أيضاً إذا لم نعطِ العزم للناس وعلى الأقل لنكن بمستوى عزم الناس، فالناس عزيمتهم رأيتموها في زيارة الإمام الحسين عليه السلام، رأيتم عزيمة هذا الجمهور في ارتباطه بالمرجعية الدينية، هذا جمهور جيد وله عزم قوي في مواصلة الطريق، نحن يجب أن نمتلئ عزماً أكثر مما يمتلئ به الشارع العراقي.

الإسلام والديمقراطية:

أختم الحديث بالمقارنة بين الإسلام والديمقراطية وهو موضوع أشرنا إليه في إحدى محاضراتنا السابقة، وقلنا إن الديمقراطية لها أربعة مبادئ هي: السيادة الشعبية، المساواة السياسية، نظام الشورى، ومبدأ الأغلبية.

هناك سؤال: ما هو موقف الإسلام تجاه الديمقراطية؟

الجواب: نحن لدينا ما نختلف به عن الديمقراطية لكننا لا نتقاطع معها، الديمقراطية لا تمثل ديناً أو فلسفةً، فهي تمثل ممارسة سياسية ومنهجاً حركياً

على الأرض، قد نختلف معه هنا وهناك لكننا لا نتقاطع معه، ولهذا فإن الإمام الشهيد الصدر كتب ضد الماركسية وكتب ضد الرأسمالية ولم يكتب ضد الديمقراطية، فنحن نتقاطع مع الماركسية كدين ومع الرأسمالية كتشريع اقتصادي يختلف عن التشريع الإسلامي، لكن الديمقراطية كمنهج حركي قائم على أساس حكومة الشعب لسنا ضده، لأن الديمقراطية لغةً تعني (حكومة الشعب) وهو أمر كنا وما زلنا ندعو له، نحن كنا على رأس من يدعو لحكومة الشعب، لا نريد أن يُحكم هذا الشعب من قبل دكتاتوريات أو عصابات أو مجموعات أو طائفيات أو ما شابه، نريد حاكمية الشعب وهذا هو أساس الممارسة الديمقراطية.

لدينا أربع نقاط جوهرية _ وأنا أذكر هذا علمياً _ نختلف فيها عن الديمقراطية:

١ _ حدود الشريعة الإلهية.

٢ _ تبني الدولة للدين.

٣ _ إشراف الفقهاء.

٤ _ التشريع الإسلامي.

النقطة الأولى: حدود الشريعة الإلهية:

بالنسبة لحدود الشريعة الإلهية، فإن الديمقراطية تقول السلطة للشعب، والسياسة الإسلاميّة تقول أيضاً السلطة للشعب، فهناك برلمان وهناك مجلس نواب وهناك سلطة تشريعية، لكن الإسلام يقول إن هذه السلطة التشريعية وهؤلاء النواب يجب أن يشرّعوا بما لا يتقاطع مع الشريعة الإلهية، والآن فإن الدستور العراقي سجل هذه النقطة وهي ضرورة الالتزام بالثوابت الإسلاميّة.

النقطة الثانية: تبني الدولة للدين:

الديمقراطية تقول إن الدولة يجب ألاّ تتبنى ديناً، أو تتحيّز إلى دين معيّن، وذلك انطلاقاً من مبدأ المساواة السياسيّة. وأما نحن فنقول إن حاكمية الشعب لا تعني أن الدولة يجب أن تكون بدون دين، أو بدون تبنٍّ لدين، بل إن الدولة يجب أن تتبنّى دين الأكثرية. وهذا ما ثُبّت أيضاً في الدستور في مادة الإسلام هو الدين الرسمي للدولة، هنا في العراق الدولة تتبنّى الإسلام وتصطف إلى جانب الإسلام، وتروّج له وتدعمه وتدافع عنه وتلتزم بثوابته.

النقطة الثالثة: إشراف الفقهاء:

الإسلام يقول نعم لحاكمية الشعب، لكن تحت إشراف الفقهاء أي النخبة القانونية الأكثر رشداً في معرفة الإسلام وأكثر إخلاصاً وارتباطاً بالأمّة، الحاكمية للشعب، لكن تحت نظر القيادة العليا المتمثلة بنواب أهل البيت وهم فقهاء الإسلام وأولي الأمر ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾،[1] هذه الفكرة وهي إشراف الفقهاء غير موجودة في الديمقراطية.

النقطة الرابعة: التشريع الإسلامي:

السلطة القضائية سلطة مستقلة في الدستور العراقي، وفي أي دستور لدولة إسلاميّة ١٠٠%، القضاء مستقل عن التأثيرات السياسية والتنفيذية، لكن يجب أن يكون القضاء هو القضاء المتوافق مع الشريعة الإسلاميّة، فهناك قضاء مدني ونحن لا نرفضه، أي أن الإسلام والمرجعية والحوزة العلمية لا تقول عن هذا القضاء المدني بأنه كله حرام في حرام، وحكومة طاغوت، لا، فمشاكل الناس بالآلاف ولا

---

(1) النساء: ٥٩.

يستطيعون الرجوع فيها إلى إمام الجماعة لحلها، لكن الإسلام يقول إن هذه المحاكم المدنية يجب أن تفصل المنازعات على أساس من الكُبريات الإسلاميّة، يعني حاكمية القضاء الإسلامي. وهذه هي النقطة الرابعة من الاختلاف بيننا وبين الديمقراطية.

ومع كل هذه النقاط فانه يجب أن لا نتقاطع مع الديمقراطية. فهي ليست عدونا، فنحن قد نختلف معها كما نختلف مع المدنية الحديثة، لكن لا نتخذ منها عدواً، ولا نشنّ حرباً على المدنية الحديثة، أو نشنّ حرباً على الديمقراطية وهي أدوات وممارسات سلوكية على الأرض، بل يجب أن نشنّ حربنا على أعداء الوطن والإسلام والتجربة العراقية الجديدة.

هناك تعاملان مع الديمقراطية تعامل على أساس العداء، وتعامل على أساس الاحتواء والاستفادة من هذه الأجواء. وهذا هو الطريق الذي نختاره.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يلطف بنا، وأن يتولّى أمرنا.

ربنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً، ولا تشمت بنا عدواً ولا حاسداً أبداً، ولا تنزع عنا صالحاً أبداً، ولا تردّنا في سوءٍ استنقذتنا منه أبداً يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(٢/ جمادى الأولى/ ١٤٢٧هـ)

المحاضرة الثانية عشرة:

الخميني عارفاً

دراسة في ظاهرة العرفان

موضوعات المحاضرة:

١ _ ظاهرة العرفان.
٢ _ مستويات الورع.
٣ _ معركة الهوية.
٤ _ الوضع السياسي في العراق.
٥ _ ثلاثة تخوفات.
٦ _ دور الحوزة العلمية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على خير خلقه محمّد وعلى آله الطاهرين.

في الذكرى الثامنة عشر لرحيل حامل راية العالمية الإسلاميّة في مطلع القرن الخامس عشر الإمام الخميني 1 يعقد هنا الملتقى مع طلبة وفضلاء وأساتذة الحوزة العلمية في النجف الأشرف، حيث كانت انطلاقة هذا الإنسان الكبير والعالم الفقيه والعارف العابد، كانت انطلاقته من هنا من النجف ليطيح بأكبر امبراطور عرفته المنطقة.

لدينا في هذا اللقاء عدة مباحث:

المبحث الأوّل: ظاهرة العرفان:

المبحث الأوّل: ظاهرة العرفان في حركة القيادات الدينية:

الأنبياء وهم نجوم القيادات المنقذة للبشر، كان أبرز ما يلاحظ في صفاتهم هي ظاهرة العرفان، العرفان بمفهومه الكلامي والفلسفي الإسلامي الديني يعني عمق العبادة ومعرفة جوهر العبودية، ومعرفة ان ما يجري في الكون هو تجلٍّ من تجليات الله تبارك وتعالى، ان ما يجري ليس بعيداً عن إرادته ومشيئته.

العرفان بمعناه الاصطلاحي في علم الكلام الإسلامي هو ظاهرة بارزة في حركة الأنبياء.

الأنبياء قبل أن يكونوا رجال سياسية وقبل أن يكونوا مهبط الوحي وقبل

نزوله عليهم، كان العرفان، ونمط فهمهم للحقيقة الكبرى، وطبيعة الارتباط بالله تبارك وتعالى، كان هذا هو البارز في شخصيتهم، على هذا الأساس اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وكلّم الله موسى تكليماً، وعلى هذا الأساس أيضاً جاء عن النبي الأكرم ﷺ: «ما كذب الفؤاد ما رأى، أفتمارونه على ما يرى»[1] نبينا ﷺ بلغ قمة في العرفان والانفتاح على عالم الربوبية.

الأنبياء كانوا يبحثون عن سر هذا الوجود، والارتباط به، والارتباط الحقيقي بخالق هذا الوجود قبل أن تكون لهم مهمّات على مستوى العالم البشري. وهي مهمّات طبعاً مقدسة، لكن قبل هذا كان لهم نمط من البحث والعشق والهيام في عالم الله تبارك وتعالى، ولهذا فإن موسى عليه السلام كما جاء في الرواية حينما كلّمه الله تعالى استشعر في نفسه شيئاً مما يمكن أن نصطلح عليه الغرور العلمي، وظنّ أنه لا يوجد من هو أفضل منه وأعلم منه، وحقّ لموسى أن يكون له مثل هذا الشعور وقد كلّمه الله تكليماً، لكن الله تبارك وتعالى أوحى إليه أن هناك عبداً من عبادي هو أعلم منك فاذهب وتعلم منه، لاحظوا كيف أن موسى الكليم وهو صاحب الرسالة الإلهية الكبرى انتقل فوراً إلى هذا الهدف الأكبر الذي يسيطر على قلبه. وهو العلم والمعرفة، وأصبح يسأل الله تبارك وتعالى: إلهي عرفني على عبدك هذا، فأمره الله سبحانه أن اذهب إلى مجمع البحرين وستلتقي بهذا الشخص الذي هو أعلم منك. وهذه القصة معروفة. الأنبياء همهم هو البحث عن كنز هذا الوجود، الله تبارك وتعالى.

نبينا ﷺ ينقطع في غار حراء شهوراً وسنين قبل البعثة. وهذا هو الانقطاع إلى الله تبارك وتعالى، هذه هي خصوصية الأنبياء التي نصطلح

---

(1) النجم: ١٠ - ١١.

عليها بظاهرة العرفان في القيادات الدينية. الأئمّة الأطهار عليهم السلام هكذا أيضاً، الإمام عليّ عليه السلام والتاريخ يتحدّث عن سياسته وقضائه وعبادته، لكنه بلغ أقصى ما يمكن لعارف أن يبلغه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى كان يقول: «سلوني عن طرق السماوات فإني أعلم بها من طرق الأرض»[١] أي إنسان يستطيع أن يتحدى مثل هذا التحدي؟ إذن هو قد وصل إلى مستوى احتضان هذا الوجود، أي أنه يعرف أسرار هذا الوجود، فمن يعرف طرق السماوات فقد فتحت له الحجب، ولم تبق أمامه حجب تمنعه عن معرفة طرق السماوات. والأئمّة الأطهار عليهم السلام أيضاً كانوا قمة في ظاهرة العرفان كما تحدّثنا عن ذلك الكثير من الأخبار في سلوكهم وسيرتهم وكرامتهم ومعاجزهم.

الخميني عارفاً:

الإمام الخميني 1 هذا الإنسان قد تنظر إليه فقيهاً وسياسياً وقائداً وفيلسوفاً. وقد تنظر إليه مربياً أخلاقياً، لكن كان أروع ما في هذا الإنسان هو البعد العرفاني، ولهذا أنا بودّي أن أتحدث لكم موجزاً عن عرفان هذا الإنسان، وأنا أعتقد أن هذا العرفان هو سبب الفتوحات التي ظفر بها الأنبياء وظفر بها الأئمّة وظفر بها الفقهاء الصالحون.

لم ينتصر هذا الإنسان بفقهه أو شجاعته أو دهائه السياسي، وإنما انتصر بعرفانه وارتباطه بالقوة المطلقة بالله تبارك وتعالى.

كان عارفاً بمعنى الكلمة. وله في هذا الشأن كتابات عميقة مثل كتاب (مصباح الهداية) وكتاب (شرح دعاء السحر) وكتاب (الآداب

---

(1) بحار الأنوار ٣٩: ١٠٨/ ح١٢.

المعنوية للصلاة) وكتاب (التعليق على الفصوص لابن عربي) وكتاب الأربعون حديثاً، كان ضليعاً في هذا الجانب. والأروع من ذلك كله هو ضلوعه وتجربته العملية للعرفان، هذا الإنسان لم يختلف عليه الحال يوم كان طالب علم، ويوم كان مجتهداً، ويوم صار قائداً. فهو ذاك الإنسان المتواضع البسيط الذي يعرف أنه لا شيء أمام قدرة الله تبارك وتعالى.

انا بهذا الصدد اقرأ لكم شيئاً من تجارب الإمام وما كان يتحدث به، وما هي رؤاه المعرفية.

أيها السادة الكرام يا طلاب الحوزة العلمية إذا لم تشتعل شمعة العرفان في قلوبنا، لا يمكن أن نضيء الطريق للآخرين، ويكون كل جهدنا هباءاً منثوراً.

يقول 1 في كتابه الأربعون حديثاً: (حينما تقولون اننا نصلي هل كان ذلك تقرباً إلى الله أم كان ذلك تقرباً لنساء الجنّة وإشباع الشهوات)؟ لاحظوا الجدل الذاتي ومراقبة الذات والخوف من النفعية الذاتية في أعماق نفوسنا. نطلب العلم ربما لا يكون قربة إلى الله بل هو أنانية واشباع الشهوات الحقيقية. أن ما يصدر منا من مخاطبة لله تبارك وتعالى هي كلها تجاوز على قدسية الربوبية لولا الأمر الإلهي بها.

وهذه مفاهيم دينية مأخوذة من كلمات الأئمّة الأطهار وأدعيتهم كما في مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام يقول: «إلهي لولا الواجب من قبول أمرك لنزهتك عن ذكري إياك، على أن ذكري إياك بقدري لا بقدرك، وما عسى أن يبلغ مقداري حتّى أكون محلاً لتقديسك».[1]

(1) الصحيفة السجادية: ٤١٨/ مناجاة الذاكرين؛ بحار الأنوار ٩١: ١٥١.

ويقول الإمام الخميني 1 في موضوع آخر: (من يؤدي صلاة الليل طلباً للرزق، أو يتصدق دفعاً للبلية فإن هذه العبادات وإن كانت صحيحة إلاّ أنها ليست عبادة للحق تعالى، وهي غير خالصة بل هي تجارة كما لو انك تشتري دواءاً هكذا حينما تعطي صدقة لدفع البلاء).

الإمام ; وهو بصدد مراقبة الذات أيضاً يروي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام ويا له من حديث رائع وعظيم ويستحق أن ينهار أمامه الإنسان العارف والعالم ومن يُعنى بنفسه وتربية نفسه، الحديث مروي عن الشيخ الكليني في كتابه الكافي المجلد الثاني يقول: «ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاءها أحدهما في أوّلها والآخر في آخرها بأفسد فيها من حب المال والشرف في دين المسلم»[1] أي أن المسلم حين يفكر بالمال والشرف يكون كقطيع غنم بيد الذئاب وبدون راع فتفترسه افتراساً.

الآن بالله عليكم: كم يأخذ منا حب المال وحب الشرف بأشكاله المختلفة؟ لا شك أنه يأخذ منا مأخذاً كبيراً وعظيماً. وحينئذٍ فإن الشيء الذي يؤسف له، اننا لا ندرك عمق الأذى الذي يصيب قلوبنا، تفترسنا الذئاب بدون أن نشعر، إذن نحن مرضى وقتلى بحب المال والشرف وحب الأنا خاصة. نحن طلاب العلوم الدينية فنحن مبتلون بهذه البلية ومع ذلك نرشح أنفسنا ونضع أنفسنا لهداية الناس، وندعي أن لنا استحقاقاً وشأناً على الناس.

الإمام ; يروي عن الإمام الصادق عليه السلام في موضوع التفرغ للعبادة، يقول

---

(1) الكافي ٢: ٣١٨/ ح١٠.

الإمام الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنىً، ولا أَكِلُكَ إلى طلبِك، وعليَّ أن أسدَّ فاقتك، وأملأ قلبك خوفاً مني، وإن لا تتفرغ لعبادتي أملأ قلبك شغلاً بالدنيا، ثمّ لا أسدّ فاقتك، وأَكِلُكَ إلى طلبِك»،[١] رحمة الله على الإمام الخميني وهو يقود دولة كبرى، وخاض حرباً كبيرة مع كل العالم لكنه في شهر رمضان مما عرفناه مباشرة كان ينقطع عن اللقاءات مع الناس، أي أنه كان يتفرغ للعبادة، هو يدرك أن أصل القضية هو الارتباط بالله تعالى فإنه «لا ناصر لمن خذلت» و«من ينصرني من الله إن عصيته».

مستويات الورع:

وما أحب أن أستذكره معكم استذكاراً هو ان الإمام الخميني كان يذكر الورع ويقول انه على مستويات:

١ _ ورع العوام وهو عبارة عن اجتناب الكبائر.

٢ _ ورع الخواص وهو الابتعاد عن الشبهات.

٣ _ ورع أهل الزهد وهو الاجتناب عن المباحات.

٤ _ ورع أهل السلوك وهو ترك النظر إلى الدنيا ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنيا﴾.[٢]

٥ _ ورع المجذوبين «إلهي حققني بحقائق أهل القرب وأسلك بي مسلك أهل الجذب».[٣]

---

(1) الكافي ٢: ٨٣/ باب العبادة/ ح١.

(2) الكهف: ٢٨.

(3) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٨٠٤.

ورع المجذوبين هو ترك المقامات لأجل الوصول إلى باب الله ومشاهدة جماله، هؤلاء المجذوبون لا يفكرون بالمقامات. وليس المقصود بها المقامات الدنيوية، بل هي المقامات الأخروية لأن هذا الإنسان العاشق لا يفكر بمقام أخروي فضلاً عن مقام دنيوي، ولكن يفكر بما وراء المقام الأخروي ويفكر بأن يلتحم مع معشوقه.

٦ ـ ورع الأولياء وهو الاجتناب عن التوجه إلى الغايات، فالعارف العابد في هذا المستوى ليس له أية غاية إلاّ الفناء في الله حتّى اللقاء مع الله تبارك وتعالى ليس غايته لأنه إذا كان اللقاء هو غايته فهذا حد من الحدود، وهذا أيضاً تجاوز لاستحقاقات الربوبية وواجبات العبودية.

ورع الأولياء هو بهدف الفناء في الله تبارك وتعالى، ليس له أية إرادة، هذا الكلام الذي انقله لكم هو كلام قائد سياسي وعسكري أسس دولة، ولكن يتحدّث حديث أنبياء، حديث عرفان، هكذا يجب أن تكون طلبة العلوم الدينية، وهكذا يجب أن يكون العالم الديني، حينما فتح أمامنا تجربة سياسية يجب أن تفكر أوّلاً بعرفاننا وأسس نجاح حركتنا، لهذا فإن رسول الله ﷺ ـ وهذا ما يوقفني دائماً والذي يجب أن نقف عنده دائماً، حيث أن كثيراً من نقاط الاخفاق في حركتنا يجب أن نراجع أنفسنا فيها، وهل أن الاخفاق هو ذنب الناس أم يرجع إلى مشكلات داخلية عندنا؟ ـ في نزول قوله تعالى: ﴿طه * ما أَنْزَلنا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقى﴾[1] بعض المفسرين العرفاء يقولون أن رسول الله ﷺ لما رأى قريشاً ثلاثة عشر عاماً تمتنع عن قبول دعوته في مكّة المكرمة، عاد

---

(1) طه: ١ و٢.

إلى نفسه وتساءل أن لا يكون السبب ناشئاً من مشكلة في نفسه وتفرّغ للعبادة وورمت قدماه من كثرة العبادة، قد لا تكون المشكلة في القابل، بل المشكلة في الفاعل، رسول الله ﷺ تفرغ للعبادة حتّى نزل قوله تعالى ﴿طه * ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى﴾.

أذكر مرة في طهران في إجتماع _ على ما أتذكر _ مجلس الخبراء وفيه جمع من العلماء والمجتهدين حضروا عند الإمام الخميني 1 في حسينيته الصغيرة والتي أحكمت جدرانها بالطين حيث لم يقبل هذا الإنسان أن يعمرها تعميراً حديثاً، في ذلك الاجتماع كان المتحدث قبل الإمام هو آية الله الشيخ المشكيني الذي هو الآن إمام جمعة قم فأشاد بالإمام وامتدحه، فكانت أوّل كلمة تكلم بها الإمام 1 بعد البسملة هي: (إن لي عتباً على الشيخ المشكيني، فأنا ذلك الإنسان الذي انتظر منه النصح وليس المدح وهو ذلك الإنسان الذي يجب أن ينصح وليس أن يمدح) لم يكن هذا كلام مجاملة وإنما كان كلاماً حقيقياً جاداً بأنه يخاف من نفسه، يخاف من أن يمدح، ان أسرار النجاح في حركة الإمام ; الذي استطاع أن يحيي حركة الأنبياء على طول التاريخ ويبدأ عصر العالمية الإسلاميّة.

وهذا حديث قد نؤجله إلى موضوع آخر، حديث عن أن القرن الخامس عشر للهجرة هو بداية النهوض الإسلامي والتأسيس للعالمية الإسلاميّة، الإمام الخميني لم يؤسس الجمهورية الإسلاميّة فقط، بل أسس للعالمية الإسلاميّة في مطلع القرن الخامس عشر. هناك كانت له كلمة في بدايات تأسيس الجمهورية الإسلاميّة، وهي التفاتة لطيفة حيث

قال: (الروايات تقول ان رسول الله ﷺ حينما بعث سقطت من إيوان كسرى أربعة عشر صخرة)، وربما يكون معنا ذلك أن الإسلام يحتاج إلى أربعة عشر قرناً ثمّ تنهار هذه الإمبراطورية الفارسية وتبدأ العالمية الإسلاميّة، الإمام الخميني في الحقيقة أسس للعالمية الإسلاميّة. والعالم اليوم يقلب في موج العالمية الإسلاميّة وما نجده انما هو أصداء لهذه العالمية الإسلاميّة، ما نجده من حركة الإصلاح السياسي الذي تحمل رايته الولايات المتحدة الأمريكية، اليوم هو في الحقيقة صدى للعالمية الإسلاميّة التي نادى بها سليل الأنبياء ووريثهم الإمام الخميني 1، ان أسرار النجاح في حركة هذا الإنسان هو العرفان فضلاً عن البعد الفكري والبعد الشخصي والأخلاق الذاتية له، لكن كانت هذه هي النقطة الأولى في أسس نجاح حركة الإمام 1 وهذا ما نحتاجه اليوم، حيث اننا اليوم نخوض معركة اسمها معركة الهوية.

المبحث الثاني: معركة الهوية:

نحن نخوض معركة اسمها معركة الهوية، العالم الإسلامي والشعوب الإسلاميّة ما هي هويتهم؟ إن المعركة بيننا وبين الغرب ليست معركة تقنيات واقتصاديات وتجاربات ومشاكل، وانما معركة هوية، المسلمون لهم هويتهم وأصالتهم فيما يعمل الغرب على مصادرة هذه الهوية. وهذا هو عمق المعركة الجارية اليوم بين التجربة الغربية وبين الشعوب الأخرى الإسلاميّة وغير الإسلاميّة، المعركة اليوم هي معركة هوية، إن التجربة الغربية التي حققت تقدماً صناعياً، علمياً، اعلامياً، فضائياً وعلى مختلف المستويات، هذه التجربة الغربية تقدم نموذجاً للعالم ونقول، أيها العالم احذوا حذو هذا النموذج الغربي،

النموذج الغربي يقول اقتدوا بي ولأكون أنا المعبّر عن هويتكم ووجدانكم وعن ضمير البشرية وانا المعبّر عن التكامل الانساني للمجتمع الكامل. هذه التجربة الغربية التي نجحت في مجالات كبيرة جداً، وقدمت خدمة كبيرة للإنسانية وللشعوب، فتحت آفاقاً علمية واسعة، هذه التجربة الغربية تقوم على أساس فلسفي وهو اخضاع كل القيم والحقائق والاعتقادات لمدى عطائها المادي، كل القيم والاعتقادات، الله، الآخرة، الناس، الأنبياء، الملائكة والقيم الأخلاقية هي الصدق، الكرم، البطولة... الخ اخضاع كل هذه الاعتقادات والحقائق وكل القيم لمدى عطائها المادي، المقياس في الحقانية هو المنفعة، وهذا أساس الفلسفة الغربية، وحينئذٍ الغرب حينما يقدم نفسه نموذجاً للعالم فما هو الموقف تجاه النموذج الغربي؟ وأنتم تلاحظون أن النموذج الغربي يغزونا في عقر دارنا، هناك ثلاثة مواقف في النموذج الغربي:

الموقف الأوّل: هو القبول المطلق به واستعارة الهوية الغربية، وهذا هو موقف المتغربين والعلمانيين، حيث يقولون ان الغرب وصل إلى القمة ونحن لم نستطع أن نواكب التطور، إذن لننصهر في النموذج الغربي انصهاراً كاملاً ولا يكفي ان نأخذ من الغرب فقط صناعته وتقنيته، بل نأخذ فلسفته وأخلاقه وما شاكل ذلك.

وهذا النموذج هو نموذج سلخ الهوية والأصالة الإسلاميّة، ولبس هوية ثوب آخر وهو الثوب الغربي.

الموقف الثاني: هو موقف الرفض المطلق أي التعامل بالسلب المطلق مع الغرب، باعتباره يمثل الاستعمار والكفر بالقيم الدينية، إذن يجب أن نتعامل معه بالسلب المطلق ومع كل عطاءات الغرب.

الموقف الثالث: هو موقفنا وهو موقف الإسلام؟ اليوم نحن في

معركة حقيقية، العالم فالإسلامي يواجه هذه المعركة في عمق وجوده، إذا خرجنا عن العالم الجزئي المحيط بنا هنا في النجف الأشرف، وعالمنا الدراسي الحوزوي فسوف نجد أن المعركة في العالم العربي وغير العربي إنما هي معركة محتدمة بين الهوية الإسلاميّة وبين نزع الهوية الإسلاميّة.

كنت أقرأ في الصحافة أن النجمة الفنانة حنان ترك المصرية المعروفة أعلنت أخيراً انها ارتدت الحجاب الإسلامي وسوف لن تشارك في تمثيل مسرحي ولا أي مشهد غنائي إلاّ عبر الحجاب، وقالت اني أريد أن أعود إلى هويتي، هذه فتاة شابة بلغت مستوى النجومية والأضواء مسلطة عليها، ولكن ها هي الآن عادت إلى الحجاب وبالفعل ارتدت الحجاب الذي هو صورة من صور التعبير عن الهوية الإسلاميّة. وهو أحد مفردات المعركة بيننا وبين الغرب، حتّى أن دولة مثل فرنسا تقاتل من أجل ألا ترتدي طالبتان مسلمتان في الجامعة الحجاب، وأصدرت قراراً بمنع الحجاب في الجامعات والدوائر الفرنسية كلها، هذا الحجاب الذي هو عبارة عن قطعة قماش توضع على الرأس، لاحظوا أن القضية هي ليست قطعة قماش بل هي معركة هوية، اليوم العالم يتلاطم بأمواج معركة الهوية إما أن تكون لنا هويتنا الإسلاميّة، أو ننتهي ونتحول إلى قشور ونستورد الهوية الغربية، ما هو الموقف الإسلامي؟

وأنتم أيها الفضلاء في الحوزة العلمية وأنتم تقودون تجربة رائدة خاصة هنا في العراق، وعلى الأقل تطمحون إلى تجربة رائدة في العالم الإسلامي بإسم مذهب أهل البيت، ما هو موقفنا من النموذج الغربي؟

موقفنا هو الموقف التفككي الحضاري، ماذا يعني التفككي الحضاري؟

هذا ليس موقف القبول المطلق وليس موقف الرفض المطلق، وإنما هو القبول التفكيكي، وتوضيح ذلك أننا لا نعتقد أن الغرب يمثل كُلاً موحداً بل يمثل خليطاً حضارياً، فهنا تقدم علمي وهناك أديان وهناك توحيد وهناك كنيسة وهناك حركة نبوات، وهناك حضارة ضاربة في التاريخ فالغرب يمثل خليطاً ونسيجاً من كل ذلك وليس كلاً واحداً نقبله كلاً أو نرفضه كلاً، الغرب حقيقة قابلة للتفكيك فالبعض يتصور أن هذا التقدم الصناعي والعلمي الذي حدث في الغرب هو نتيجة الفلسفة الأخلاقية والدينية التي يعتمدها الغرب والتي أشرنا إليها، فإذا أردنا التقدم إذن يجب أن نعتمد نفس الأخلاقية ونفس الفلسفة وليس من الممكن أن نقبل التلفزيون والسينما والراديو، وفي نفس الوقت نبقى محافظين على الحجاب والزواج الشرعي بعيداً عن الاباحية والنفعية وما شاكل ذلك، لا، الأمر وحسب هذه النظرية يمكن التعامل مع الغرب على أساس القبول الحضاري التفكيكي، الآن الغرب ليس مدرسة واحدة وأوضّح الأمر، لاحظوا أن الغرب الذي كان يمثل حضارة الروم يوماً ما، وكان إلى جانب حضارة الروم بلاد فارس، وكانت هناك وإلى الآن حضارات أخرى الصين يمثلون حضارة، والهنود يمثلون حضارة، لاحظوا السؤال التالي: أن هذا التقدم الذي حققه الروم والفرس والصين والهنود بمختلف المستويات هل هو قائم على الأسس العقائدية والفلسفية؟ أو هو قائم على المواصفات الشخصية والابداع الذاتي لدى تلك الشعوب؟

الجواب: إن هذا التقدم الذاتي مرتبط بالابداع الذاتي وليس مرتبطاً بالأسس الفلسفية، الصين قائمة على أفكار (كونفوشيوس)، الهنود الآن ينافسون العالم في حضارتهم وهم على المستوى الفلسفي

والعقائدي أيضاً يعتمدون الوثنية، ويعبدون البقر، اليابان التي تنافس الآن الغرب بقوة في كل شارع فيها تجد (بوذا)، هكذا مصر وحضارة الفراعنة هؤلاء أيضاً كانوا يعتمدون الالحاد ولكن تقدموا، يوماً ما في التاريخ كان لهم حضارة، الفرس أيضاً كانوا يعتمدون الديانة الزردشتية ويعبدون النار، لكن كانت لهم حضارة وكان لهم تقدم، الحقيقة ان التقدم الحضاري والمدني هو حركة ابداع ذاتية لدى تلك الشعوب، وكل شعب يتحرك فإنه يتقدم، فاليابانيون تحركوا وكذلك الصينيون والفرس والروم والغرب تحركوا أيضاً فكل شعب يتحرك يعطيه الله قدرة على الابداع وبذلك يتحقق التقدم بغض النظر عن الأسس الفلسفية والعقائدية، على أساس هذه الرؤية، إذن نحن نقبل الغرب بما حقق من تقدم وما حمله من روح ابداع ولا نقبل منه الأسس الفلسفية والعقائدية والنظرية الوجودية، نقبل من الغرب اليوم الايجابيات كحقوق الإنسان، والمرأة والحريات السياسية، وطبيعة النظام السياسي ودور الشعوب، والحقيقة ان هذا ليس ابداعاً غربياً وإنما هو عمق حضارتنا وعمق تجربة نبينا ﷺ لكن الدكتاتوريات التي حكمت العالم الإسلامي من الأمويين والعباسيين والعثمانيين والدكتاتوريات الأخرى، هذه أنست الأذهان طعم التجربة الإسلاميّة الحقيقية، تجربة رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام وإلاّ فإن الدفاع عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق العمال والحريات السياسية والتعددية السياسية، فهو ما مارسه رسول الله ﷺ والإمام عليّ عليه السلام، وعلى كل الأحوال نحن نتعامل مع الغرب على أساس التفكيك الحضاري وليس على اعتباره كلاً واحداً لا يقبل التفكيك.

المبحث الثالث: الوضع السياسي في العراق:

الوضع السياسي في العراق في مجمل القول: اننا اليوم بحمد الله تعالى نكون قد انتهينا من المحطة الأخيرة وهي محطة تشكيل الحكومة، كانت المحطة الأولى بعد الاطاحة بنظام البعث هي محطة كتابة الدستور، والمحطة الثانية هي محطة تشكيل مجلس النواب، والمحطة الثالثة هي محطة تشكيل الحكومة، بحمد الله إن الشعب العراقي عبر محطة تشكيل الحكومة، وكان هذا من أعسر المخاضات التي عاشها العراقيون وأنتم شهود ذلك، قبل شهر كان العراق يعيش مخاضاً عسيراً وكنا أمام ثلاثة فروض:

الفرض الأوّل: أن نعجز عن تشكيل الحكومة وتفشل التجربة العراقية وتفشل العملية السياسية ويشهد العراق حينئذٍ حكومة انقاذ وطني، ويعلن عن حكم عسكري، وتنتهي الحريات وتنتهي الممارسة السياسية حيث نكون قد فشلنا في تشكيل حكومة وفشلت العملية السياسية.

لقد كان بيننا وبين هذا الخيار عدة ساعات. وقد يكفي رتل عسكري واحد للسيطرة على المنطقة الخضراء ويعتقل كل الموجودين ويعلن عن البيان رقم واحد بحكومة عسكرية جديدة وينتهي كل شيء، لقد كان بيننا وبين هذا الخيار ساعات وكانت بعض الاتجاهات التي أخفقت في استحصال رأي الجمهور في الانتخابات تميل إلى تشكيل حكومة انقاذ وطني، لأنها كانت هي المرشحة أمريكياً لأن تكون على رأس هذه الحكومة، وهي مدعمة أجنبياً. وبالتالي فهي بعد أن فشلت في العملية السياسية ستنجح في حكم العراق بطريقة حكومة الانقاذ الوطني العسكرية.

الفرض الثاني: هو أن تتشكل حكومة لكنها ذات تقاطعات داخلية وخارجية. وهذا ما يمثل بالنسبة لنا أيضاً فشلاً، فإن الحكومة حينئذٍ غير

قادرة على أن تمسك بالأمور داخلياً وخارجياً مهما كانت نزيهة ووطنية، هذا الفرض كان مفتوحاً أمامنا ولكن بحمد الله تعالى لم يتحقق هذا الفرض ولم يتحقق الفرض الأوّل بل تحقق الفرض الثالث.

الفرض الثالث: حكومة وحدة وطنية غير متقاطعة لا مع الداخل ولا مع الخارج. وفي نفس الوقت تبعدنا عن شبح حكومة الانقاذ الوطني وهذا هو ما تحقق بالفعل. والآن فإن العراق يملك حكومة منتخبة قانونية دستورية كأفضل ما يمتلكه شعب من الشعوب المتظورة أمامنا. ولا نقول طبعاً هي حالة مثالية ونموذجية لكن كأفضل ما يمكن لشعب مثل شعوبنا، إذن نحن نجحنا في عبور المحطة الأخيرة.

لكن هناك مخاوف عربية وهي ثلاثة مخاوف وهناك عمل على تسريبها إعلامياً، وعلى تكوين جو مضاد للتجربة العراقية عبر الأرجاف بهذه المخاوف الثلاثة:

١ _ تصفية السنة.

٢ _ الاقتتال الشعبي.

٣ _ الاحتلال والاستعمار.

هذه ثلاثة مخاوف تملؤ الشارع العربي، بل استطيع أن أقول الشارع الإسلامي أيضاً، الشارع الإسلامي مغلوب على أمره بهذه التصورات، أن هناك ثلاث حقائق في العراق.

التخوف الأوّل: تصفية الشيعة للسنة: وفي الأمس الأوّل كان الشيخ القرضاوي يتحدّث عنه دعائياً، وحول نفسه إلى بوق دعائي لكي يتحدّث عن ظلامة السنة في العراق فيما نشرته فضائية الجزيرة، الشيخ القرضاوي يتحدّث عن قتل أئمّة الجماعة السُنّة، وتهديم مساجد السنة

وملاحقتهم وتعذيب واغتيالات، حديث عن قتل الشيعة للسُّنّة. فلو كان يتحدّث عن حرب طائفية بين الطرفين لكان أهون، لكن يتحدّث أن هناك ظلامة أهل السنة في العراق وهذا الحديث لمثل الشيخ القرضاوي وهو رجل له صوت مسموع في العالم العربي وموقع فقهي ما هي مستنداته العلمية؟ مستنداته العلمية أنه اتصلوا به هاتفياً وقالوا فلان إمام مسجد قتل، مثل هذا الاتصال يؤسس عليه القرضاوي مقولة يمررها لكل العالم وهي أن السنة يقتلون في العراق، تصوروا أيها السادة نحن الآن لا يأخذنا الرعب والاستيحاش من هذا الموضوع، لأننا نعلم بعدم صحته لكن العالم العربي حينما يسمعون هذا الكلام ماذا سيقولون؟

الشعب العربي في القاهرة وتونس والمغرب والأردن وفي اندونيسيا بلا شك ستستثار حميتهم ضد الشيعة، وضد التجربة العراقية الجديدة، إذن هذه التجربة في تصورهم قائمة على أساس سحق لأهل السُّنّة. وهذا هو منشأ المخاوف العربية، والدول العربية ما تزال لا تقف إلى جانب تجربتنا، وهذا الأمر كان يقوله ملوك عرب بعد انتفاضة شعبان عام (١٩٩١م) والحقيقة أن هذه الانتفاضة أحبطت، لأن الدول العربية قدمت تصوراً سريعاً وضغوطاً على أمريكا انه إذا سقط صدام فإن الشيعة سوف يصفّون السُّنّة، والدول العربية لا ترضى بذلك، وبالتالي تغيرت قراءة الولايات المتحدة الأمريكية، كان زعماء عرب يسألون السيد شهيد المحراب ؛ أنه هل قمتم بتصفية السنة في العراق، الآن أيضاً هناك محاولة تعزيز هذا التصور في الشارع العربي.

التخوف الثاني: الاقتتال الشعبي، أن هناك معركة شعبية واقتتالاً شعبياً كما سمعتم تصريحات حسني مبارك، أن العراق يشهد حرباً شعبية أهلية، إذن هذه

تجربة غير مباركة ولا موفقة، وأن نظاماً مستقراً مثل نظام صدام سيكون هو الأفضل طالما أن هذه التجربة شهدت اقتتالاً أهلياً. وهذا الأمر يعلن من قبل رئيس دولة عربية أمام كل الشعوب وعبر الفضائيات.

التخوف الثالث: الذي يطرحونه هو أن ما يوجد في العراق هو سيطرة الاحتلال والاستعمار ولا توجد إرادة عراقية، ولا تجربة عراقية ولا تجربة شعبية وإنما هو احتلال، وكل شيء ايجابي يحدث في العراق فإنه في ضل الاحتلال فهو مرفوض، كالماء النقي إذا اسقطت فيه قطرة نجاسة فإنه يتنجس كله. هكذا يقولون بأن العراق كالماء المتنجس بالاحتلال إذن لا هو طاهر ولا مطهر.

هذا الكلام هو كلام الشارع العربي والإسلامي أيضاً.

هذه ثلاثة مخاوف أمام تجربتنا العراقية الجديدة لدى العالم العربي والإسلامي.

ان تصورنا عنها أنها غير صحيحة. فلا توجد تصفية لأهل السنة، ولا أن السنة يقومون بتصفية الشيعة، وانما هي عناصر من النظام السابق تقوم بتصفية الشيعة وتصفية رموز السنة الذين يؤمنون بالعملية السياسية، كما لا وجود لحرب شعبية، وإنما هناك حرب بين شعب عراقي قد نهض وكسر عنه الأغلال ومجموعات من أتباع النظام السابق والمستفيدين منه. وهكذا مسألة الاحتلال فالاحتلال موجود ولا يستطيع أحد أن يكابر ويقول لا يوجد احتلال ولا توجد قوات متعددة الجنسيات، لكن هذه التجربة العراقية هل هي تجربة احتلال؟ أو هي تجربة عراقية استفادت من القوات الأجنبية ومن حقنا أن نستفيد، كما من حق أي شعب من الشعوب أن يستفيد من أي يد تتقدم له، والحرام

هو الارتماء في احضان الظالمين والركون إليهم ﴿لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[1] إما أن نستفيد من المجتمع الدولي فلا مشكلة فيه، ورسول الله ﷺ استفاد من المجتمع المحيط به حيث عقد حلفاً حتّى مع اليهود في معركة الأحزاب. الاستفادة من عناصر القوة ليست حراماً في الإسلام إنما الحرام هو أن نبيع هويتنا، اما أن شعبنا ويناضل من أجل استعادة هويته واستعادة سيادته ومن أجل التحرر ومن أجل اسقاط الدكتاتور والظلم، والعودة إلى الاستقلال ونسيم الحرية فذاك هو الواقع على الأرض. ولا مشكلة في أن نستفيد من الواقع الدولي والاقليمي المحيط بنا. وهذه هي الجمهورية الإسلاميّة ونحن في ذكرى رحيل الإمام الخميني 1 مؤسس الجمهورية الإسلاميّة وهو مرجع من مراجع الدين وعارف من العرفاء، في حرب الثمان سنوات كانت ايران تستورد السلاح من الاتحاد السوفيتي وألمانيا والصين الشعبية ومن كوريا وما شاكل ذلك من الدول فهل كان ذلك حراماً؟

المسألة هنا ليست مسألة ارتماء في الاحضان، أو بيع الهوية وإنما هي مسألة الدفاع عن النفس والاستفادة من القدرات المتاحة الممكنة. وهذا شيء لا يمنعه الإسلام، الموجود على الأرض فيما نعتقد أن شعباً أبياً صبر (خمسة وثلاثين عاماً) تحت ظلم البعث، وطالب بالتحرر وقدم مئات الآلاف من القرابين يوم كان العالم الاستكباري والدول الكبرى ضده. واليوم استطاع هذا الشعب أن يحسم الموقف ويفرض إرادته على الدول الكبرى بعناية الله تبارك وتعالى، هذه إرادة شعبية وليست إرادة احتلال. وما يجري على الأرض أيضاً من كتابة

---

(1) هود: ١١٣.

الدستور واستفتاء على الدستور وانتخاب الجمعية الوطنية، ومشروع الانتخابات لم يكن املاءاً أمريكياً ولا بريطانياً بل كان املاءاً ذاتياً، بل كانت إرادة الشعب العراقي ودماء الشعب وصوت المرجعية والحوزة.

نحن لا نقرأ الواقع على أساس وجود حرب طائفية، ولا حرب شعبية ولا على أساس سيطرة احتلال.

ما هو الموقف؟

١ _ مواصلة الخطوات على طريق بناء التجربة الذاتية متوكلين على الله تبارك وتعالى.

٢ _ معالجة الأزمات، هناك اقتتال ومشاكل أمنية وسوء خدمات، وهناك اضطرابات كثيرة، والاحتلال ما زال موجوداً فيجب أن نعالج هذه الأزمات.

دور الحوزة العلمية:

دور الحوزة العلمية هو الرقيب على هذه التجربة.

أيها السادة الكرام نحن لسنا أتباعاً لهذه التجربة، بل ان ما يجري نحن نراقبه ونساعده ونحاول أن نرشد ما يجري، الحوزة العلمية لا يصح أن تتأطر بإطار خاص، وهكذا المرجعية الدينية مما يعني أن نظرتنا إلى هذه التجربة هي ايجابية لكن ذلك لا يعني الانتماء إليها بالمطلق. بمعنى انها تمثلنا ونحن نمثلها... لا، نحن نراقب الوزير والحكومة وحركة الشعب، ونعمل على ترشيدها، نحن لسنا ضد هذه التجربة، بل نحن مع هذه التجربة ونحن رواد هذه التجربة ونحن أوّل من نادى بأن يخوض العراق تجربة التحرير ضد الحكم الظالم. والآن العراق يخوض ويشهد تجربة التحرر من الدكتاتوريات ومن الاستعمار ومن القوات الأجنبية.

هناك بشائر تسمعون بها: أن في بدايات العام المقبل يجب أن يشهد العراق انسحاباً لـ (٣٠) ألف فرد من القوات الأمريكية. وهذا حديث نحن نرحب به، في الأسبوع الماضي استعادت محافظتان الملف الأمني وهما محافظة الديوانية والمثنى، نحن نسعى سعياً حثيثاً من أجل استعادة السيادة الكاملة للشعب العراقي ولا يوجد شعب يحترم نفسه يقبل بالاحتلال والاستعمار، الموقف هو خطوات في طريق بناء هذه التجربة متوكلين على الله تبارك وتعالى.

اللهم انه لا رافع لمن وضعت ولا واضع لمن رفعت، أيها الأخوة لأعود معكم إلى الله تبارك وتعالى فهو ناصرنا ومن ذا الذي يخذلنا إذا نصرنا الله ومن ينصرنا إذا خذلنا الله تعالى، أصل القضية هو ارتباطنا بالله وأن يكون ما نريد هو ما يريده الله تبارك وتعالى بعيداً عن أي دنيا وأي موقع وعنوان.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(٥/ رجب المرجب/ ١٤٢٧هـ)

المحاضرة الثالثة عشرة:

الاستعداد الذاتي والاستعداد التكويني

موضوعات المحاضرة:

١ _ نظرية الاستعداد الطبيعي.
٢ _ شبهة حول العدل الإلهي.
٣ _ أسئلة إبليس وإشكالاته السبعة.
٤ _ الاستحقاق السياسي للمجتمعات.
٥ _ استحقاق المجتمع العراقي.
٦ _ عشرة منجزات.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

هذا الاجتماع الدوري الذي يعقد شهرياً مع أخواننا الكرام السادة الفضلاء من طلاب وأساتذة الحوزة العلمية في النجف الأشرف، اليوم يعقد هذا الاجتماع في أجواء الذكرى السنوية الثالثة لشهادة باني العراق الجديد وحامل لواء التغيير آية الله شهيد المحراب السيد الحكيم ;، وكما هو منهجنا في هذا الحديث أن نبدأ بحديث علمي معرفي فلسفي ثمّ ننتقل إلى حديث سياسي، وفيما بين هذين الحديثين لا بدّ أن نعيش أجواء صاحب هذه الذكرى وهو السيد الحكيم ;.

نظرية الاستعداد:

نظرية الاستعداد أو الاستدعاء الذاتي والاستحقاق التكويني:

الحديث ابتدئه بما نقرؤه في أدعية شهر رجب:

«يَا مَنْ أَرْجُوهُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَآمَنُ سَخَطَهُ عِنْدَ كُلِّ شَرٍّ، يَا مَنْ يُعْطِي الْكَثِيرَ بِالْقَلِيلِ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ تَحَنُّنا مِنْهُ وَرَحْمَةً».[1]

وفي دعاء آخر وهو من أدعية شهر رجب أيضاً نقرأ فيه:

---

(1) مفاتيح الجنان: ١٣٧، عن جمال الأسبوع: ٢٣٨.

«يَا بَاطِنا فِي ظُهُورِهِ وَظَاهِرا فِي بُطُونِهِ وَمَكْنُونِهِ يَا مُفَرِّقا بَيْنَ النُّورِ وَالدَّيْجُورِ، يَا مَوْصُوفا بِغَيْرِ كُنْهٍ وَمَعْرُوفا بِغَيْرِ شِبْهٍ حَادَّ كُلِّ مَحْدُودٍ وَشَاهِدَ كُلِّ مَشْهُودٍ وَمُوجِدَ كُلِّ مَوْجُودٍ وَمُحْصِيَ كُلِّ مَعْدُودٍ».[(١)]

البحث الذي أتناوله انطلاقاً من مضمون بعض هذه الأدعية وبالخصوص فقرة «يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ سَأَلَهُ، يَا مَنْ يُعْطِي مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ»، حول كيفية السؤال.

أحوال السؤال:

السؤال كما يقول العرفاء وفلاسفة الإسلام مرّةً يكون بلسان القال، ومرة بلسان الحال، ومرة بلسان الاستعداد، واليوم نريد أن نقف عند نظرية الاستعداد الذاتي ثمّ الاستحقاق الذاتي.

السؤال بلسان القال يعني أن تسأل بلسانك وتقول: (أسألك أن تقضي لي خير الدنيا وخير الآخرة) وهناك سؤال بلسان الحال كالمريض الذي يقف متوجعاً أمام الطبيب دون أن يسأله بلسانه، أو ذلك الفقير الذي يقف مستجدياً بيده أمام الغني وإن لم يسأله بلسانه فإنه (سؤالٌ بلسان الحال).

وهناك سؤال بلسان الاستعداد الذاتي أو الاستدعاء، أو الاستحقاق التكويني الوجودي كما يسميه العرفاء، هو لا يسأل بلسانه ولا بحاله وانما يسأل بأستحقاقه الوجودي أو استدعائه الذاتي، والله تبارك وتعالى يفيض الوجود على كل موضع استحقاق واستدعاء ذاتي، هذه نظرية الاستدعاء الذاتي أو الاستعداد الذاتي أو الاستحقاق الوجودي.

---

(1) مفاتيح الجنان: ١٣٤، عن مصباح المتهجد.: ٨٠٤.

هذه النظرية في الحقيقة هي نظرية معرفية مهمة وكبرى وحاصلها أن هذه الموجودات أو الكائنات هي عبارة عن هويات أضفى الله تعالى عليها ثوب الوجود، هذه الهويات في علم الله كانت عارية عن الوجود وفي ذلك العالم هي ليست موجودة ولا معدومة، ذلك العالم يسمى عند الفلاسفة بعالم الثبوت، تلك الهويات الله تبارك وتعالى حسب استدعائها الذاتي أضفى عليها ثوب الوجود فأوجدت، الله تبارك وتعالى يعطي الوجود لهوية هي مستحقة الوجود وهي تستدعي بطبعها الوجود، أما أصل الهوية هي هويات ثابتة في علم الله تبارك وتعالى، طبعاً هذا بحث في غاية التفصيل، عالم الهويات يسمى بعالم الفيض الأقدس ثمّ تنزل وتلبس ثوب الوجود فيسمى بعالم الفيض المقدس، الله تعالى يفيض عليها الوجود وقد كانت في مر حلة ما قبل هذا الوجود عبارة عن ماهيات في علم الله تعالى ولا وجود لها في عالم الوجود الخارجي مثل ماهية الإنسان، الشمس، القمر، المجرات، وأن هنا في الدنيا لبست ثوب الوجود، فما كان من الله تبارك وتعالى إلاّ وأفاض عليها ثوب الوجود، وثوب الوجود يفيضه الله تعالى على الهويات بحسب استعدادها واستحقاقها، فالكبير يحتاج ثوباً كبيراً والصغير يحتاج ثوباً صغيراً، الوردة تحتاج إلى ماء وضوء والشوك يحتاج إلى صحراء وجدب، والطير يحتاج إلى رياحين وبساتين، العقرب يحتاج إلى ظلمات تحت الأرض والله تعالى يعطي كل ماهية ما تستحق بحسب طبعها الماهوي. ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾.[١]

(1) الإسراء: ٢٠.

الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1] تلك الهويات المستعدة والمطيعة للأمر (كن) حينئذٍ تلبس ثوب الوجود، اسمحوا لي أن أذكر هذا كخطوط عريضة ومفاهيم قد نستطيع أن نستشعرها وقد نبقى مع ألفاظها.

وحينئذٍ في ضوء هذه النظرية وهي نظرية الاستعداد الطبيعي والاستدعاء الذاتي سيقال أن الله تبارك وتعالى لم يقض على الكافر أن يكون كافراً، ولم يقض على المؤمن أن يكون مؤمناً، انما الكفر هو استدعاء طبيعي لهوية ذلك الانسان الكافر، والإيمان هو استعداد طبيعي واستدعاء ذاتي لهوية ذلك المؤمن التي كانت في علم الله، ما قدّر الله الكفر للكافر، وانما هويته واستعداده الذاتي للكفر جَعَل الله يفيض عليه الوجود من منطلق الكرم الأزلي فصار كافراً.

شبهة حول العدالة الإلهية:

حينئذٍ هناك مشكلة فلسفية ستنحل بهذا التحليل وهي أين العدالة الإلهية؟ العدالة الإلهية في خلق الكافر وفي جعله كافراً ثمّ تعذيبه بالنار وعلى هذا فقس.

هذا أشكال وهناك جوابان عليه:

الجواب الأوّل: الذي ذهب إليه الأشاعرة، وحاصله أن الله تبارك وتعالى ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾،[2] والمفروض أن كل ما جاء من الله تعالى فهو عدل وعدالة فهمناه أم لم نفهمه، قبلناه أم لم نقبله، هذه النظرية

---

(1) يس: ٨٢.

(2) الأنبياء: ٢٣.

تستند إلى فكرة أن الحسن والقبح ليسا عقليين، العقل ليس لديه تحسين وتقبيح ذاتي وانما كل ما صدر من الشرع فهو حسن وما نهى عنه الشرع فهو قبيح، كل ما فعله الله تبارك وتعالى فهو حسن، هذا تحليل مدرسة الأشاعرة للخلاص من شبهة الاستفهام عن العدالة الإلهية في خلق الكافر والخلود في النار وما شاكل ذلك.

الجواب الثاني: على مذهب العدليين ومنهم شيعة أهل البيت عليهم السلام المذهب الذي يقول أن هناك قيم وحق وباطل وحسن وقبح ذاتيان ثابتان للأشياء في أنفسها وبقطع النظر عن الشرع، وأن الله تبارك وتعالى جرى في بناء هذا الكون أيضاً على تلك القيم الذاتية.

على ضوء هذا المذهب حينئذٍ كيف نفسر خلق الكافر، وخلق الأشقياء، وهؤلاء الذين يدخلون النار، إذن لماذا خلقهم الله تبارك وتعالى وهو يعلم أن عاقبتهم النار؟

العدلية يقدمون جواباً على هذا السؤال وهذا الجواب يتلخص في نظرية الاستعداد الطبيعي والاستدعاء الذاتي، يقولون وفق هذه النظرية أن الله تبارك وتعالى يعطي لكل شيء ما تستحقه هويته، الله يفيض الوجود «يا دائم الفضل على البرية».

ولتوضيح الفكرة نقول: المصور الذي يلتقط صورة لشخص ما فإذا كان هذا الشخص قبيحاً فتكون الصورة قبيحة وهذا ليس ذنب المصوّر فهو يلتقط ما هو شكل استعداد الشخص بذاته، الله تبارك وتعالى أيضاً بمقتضى عدالته أن يعطي كلاً بما تستحق هويته، هوية العقرب تستحق أن يعيش في الصحراء الحارة فيوفر له الله تعالى الصحراء الحارة، هوية الطيور

المغـردة أن تعـيش فـي البـساتين والجنـات فيـوفر لهـا الله تعـالى ذلـك، الفكـرة هـي نظريـة الاسـتدعاء والاسـتعداد الـذاتي، إذن تلـك عدالـة، أن الله تبـارك و تعـالى يعطـي كـل شـيء مـا تـستحق هويتـه، أمـا لمـاذا كانـت هويتـه كـافراً فهـذه قـضية ذاتيـة لا تقبـل الـسؤال ولا تحتـاج إلـى تفـسير، ولهـذا تـأتي مقولـة: إن الله مـا جعـل النـار نـاراً، بـل هويـة النار أنها نار.

هذا عرض سريع لفهم النظرية.

أسئلة إبليس:

وعلى هذا الأساس تندفع ستة إشكالات لإبليس كما جاء في التوراة، وكما نقله الإمام الرازي في تفسيره الكبير إن إبليس أورد على الله تبارك وتعالى ستة اشكالات عبر ستة أسئلة ثمّ يقول الرازي: لو اجتمع الأوّلون والآخرون من الجن والإنس بناءاً على مبدأ التحسين والتقبيح العقليين على أن يجيبوا على هذه الأسئلة ويدفعوا اشكالات إبليس ما استطاعوا، هذه الأسئلة هي:

الـسؤال الأوّل: إبلـيس يقـول لله تبـارك وتعـالى: لمـاذا خلقتنـي؟ وأنـت تعلم أن عاقبتي إلى النار؟

السؤال الثاني: لماذا التكليف؟ الذي يؤدي بالتالي إلى أن بعضهم يعصي وبعضهم يطيع والذي يعصي يدخل النار والذي يطيع يدخل الجنّة، فكان من الممكن على الله تبارك وتعالى أن يعطي الجنّة بدون تكليف.

الـسؤال الثالـث: لمـاذا كلفتنـي بالـسجود لآدم وأنـت تعلـم بـأنني أعـصي، وسـأدخل النـار بهـذه المعـصية، ألـم يكـن الأفـضل أن لا تكلفنـي بهذه المهمة، فلا استحق النار بالمعصية.

السؤال الرابع: على ماجاء في التوراة طبعاً بحسب رواية الإمام الرازي، إبليس يقول: أنه بعد المعصية لماذا لعنتني وأوجبت عقابي وأنا ما عصيت إلاّ بإرادتك وقدرتك؟ وبعد المعصية لماذا خلدتني في النار؟

السؤال الخامس: لماذا سلطتني على ابن آدم وأنت تعلم أنني سأجرّه إلى النار؟

السؤال السادس: لماذا أمهلتني المدة الطويلة إلى يوم يبعثون، ما هي فلسفة ذلك؟ حيث سأكون سبباً لضلال خلق كثير.

وبعد عرض هذه الأسئلة يقول الرازي لو اجتمع الأولون والآخرون من الجن والإنس _ بناءاً على مذهب التحسين والتقبيح العقليين _ ما استطاعوا الاجابة على أسئلة إبليس ولكن الرازي يقول: نحن عندنا جواب واحد وهو: أن الحسن ما حسَّنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، كل ما يفعله الله تعالى لا يُسئل عنه، كل ما يفعله الله هو من مقتضى الحكمة وان عقولنا لا تدرك ذلك ولا تصل إليه وبالتالي نحن نستقبل هذه المعادلة مثل استقبال الأعمى، نأخذ هذه القضية بدون أن نفحص فيها.

يقول الرازي بناءاً على التحسين والتقبيح العقلي فأنه لو اجتمع الأولون والآخرون من الجن والإنس على أن يتخلصوا من اشكالات إبليس ما استطاعوا.

علماؤنا يأتون هنا ومن جملتهم العلامة الطباطبائي في الجزء الثامن من الميزان في بحث مفصل جميل ورائع يذكر الاجابة على هذه الأسئلة الستة، لكن ألخص تلك الاجابات كلها في نظرية الاستدعاء الذاتي والاستعداد الطبيعي، ويتلخص الجواب في أن تلك الهويات حسب استحقاقها الذاتي الماهوي في عالم الأعيان الثابتة ألبسها الله

تبارك وتعالى ثوب الوجود، إبليس كان في عالم الهوية وفي عالم الاستعداد الذاتي يستحق أن يكون كما هو عليه، وهكذا الكافر والمنافق وهكذا الشوك والعقرب ومجموع الكائنات، كلٌّ أعطاه الله مايستحق.

نظرية التولي:

هذه النظرية تسمى فلسفياً (نظرية التولي) القرآن الكريم هكذا يقول: ﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى﴾[1] **أي نوله ما هو اتجاهه الذاتي فإذا تولى الحق يوليه الله تعالى استحقاقات الحق وإذا تولى الباطل يوليه الله استحقاقات الباطل، فيقول:** ﴿نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً﴾.

إشكالان على نظرية التولي:

هذه النظرية ستواجه اشكالين لا بدّ من حلهما، وإذا عجزنا عن حلهما لا بدّ أن نفكر في نظرية أخرى ثالثة وأنا إنما أذكر هذا الأمر باعتبار أن المحفل هو محفل أساتذة وطلاب حوزة علمية ولا بدّ أن نعيش هذه الأجواء العلمية:

الإشكال الأوّل: أن نظرية الاستدعاء الذاتي هل تعني الحتمية في مقابل الإرادة؟ قد يبدو أن هذه النظرية تؤدي إلى القول بالحتمية والجبرية.

الإشكال الثاني: وفق نظرية الاستدعاء الذاتي قد يبدو أننا سنصير إلى القول بأزلية الإرادة الإلهية أي أنه لا يوجد تغيير في عالم الوجود

---

(1) النساء: ١١٥.

انما يكون ما هو كائن في عالم الهويات وهذا يعني أنه ليست هناك إرادة حادثة، وانما هناك إرادة أزلية، فما كان من الله إلاّ ما هو استحقاق الكائنات منذ الأزل، إذن أين حدوث الإرادة الإلهيّة؟ أين ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1]؟ أين فلسفة الدعاء والتوسل والتضرع؟ أين فلسفة الشفاعة والاستشفاع؟ هذا هو الإشكال الثاني.

وهذه النظرية قد تبدو عاجزة في الوهلة الأولى على التخلص من هذين الإشكالين ولنقف نحن عند هذا المقدار من البحث تاركين التفصيل إلى الكتب المختصة.

الاستحقاق السياسي للمجتمعات:

هذا الأمر ينتقل فيه العرفاء أيضاً ومن جملتهم صدر المتألهين إلى العالم السياسي ونحن أيضاً نريد أن ننتقل إلى العالم السياسي، يقولون: كما أن الإنسان يلبس ثوب الوجود حسب استعداده الذاتي، كذلك المجتمعات تلبس ثوب الوجود السياسي حسب استعدادها واستدعائها الذاتي وحسب استحقاقها التكويني، بعد الفراغ من فكرة أن المجتمع هو وجود حقيقي وليس اعتباري، المجتمع ليس عبارة عن مجموعة أفراد فقط، بل هو وجود جديد وله هوية جديدة، كما هي الحديقة فهي ليست عبارة عن مجموعة ورود، الورود مجتمعة تشكل حقيقة وجودية أخرى، يقولون أن المجتمع ليس عبارة عن مجموعة أفراد وانما هو حقيقة أخرى جديدة وحينئذٍ كما أن البدن يصاب بالأمراض ولديه أعضاء وكل عضو لديه مجموعة مشكلات واستحقاقات فالمجتمع

---

(1) الرعد: ٣٩.

يشبه بدن الإنسان الكامل، المجتمع أيضاً له حقيقة وهذه الحقيقة لها استدعاء ذاتي واستعداد طبيعي، ما يستحقه المجتمع يعطيه الله له.

هذا الأمر وبهذا الشكل فلسفياً جاء في لسان الروايات «كما تكونوا يولى عليكم».[1]

وحينما جاء عن أمير المؤنين عليه السلام القول: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». إلى أن قال: «فيولى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم»[2] لأن ذلك الواقع أصبح استحقاقكم الذاتي التكويني، أنتم أصبحتم هوية أخرى لا تستحق النصر والفرج الإلهي «يولى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم» هذه هي نظرية الاستدعاء الذاتي كما تأتي في الأفراد، تأتي في المجتمع وتأتي في النظم السياسية التي تحكم المجتمع.

المجتمع يُحكم بحسب ما هو استحقاقه. والله تبارك وتعالى يفيض عليه الوجود، الله تعالى هو ولي السموات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا يخرج عن إرادته شيء، هذه استحقاقات الأمم واستعداداتها الذاتية.

استحقاق عيسى عليه السلام:

ولهذا هناك رواية تربوية مفيدة تقول: لما قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله أن عيسى مشى على الماء قال: «لو زاد يقيناً لمشى في الهواء»[3] لاحظوا

---

(1) كنز العمال ٦: ٨٩/ ١٤٩٧٢؛

(2) نهج البلاغة ٣: ٧٧/ خ٤٧؛ بحار الأنوار ٩٧: ٧٧/ ح ٣٠.

(3) بحار الأنوار ٦٧: ١٧٩/ ح٤٥؛ كنز العمال ٣: ٤٣٩/ ح٧٣٤٢.

استدعاءه الذاتي ما هو؟ واستحقاقه الطبيعي ما هو؟ لقد كان الاستدعاء الذاتي لعيسى هو أن يمشي على الماء أمّا رسول الله ﷺ كان أكثر من ذلك ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.(١)

أيضا في روايةِ أخرى: أن إبراهيم عليه السلام كان لا يأكل الطعام إلاّ ومعه ضيف، وكان يمشي ميلاً يبحث عن ضيف يأكل معه، يوماً ما كان ضيفه كافراً فمدَّ إبراهيم يده للطعام وقال: (بسم الله) والكافر مَدَّ يده ولم يقل: (بسم الله).

فسأله إبراهيم: لِمَ لم تقل (بسم الله)؟

قال: أنا لا أعرف الله.

إبراهيم طرده وقال: إذن لا تأكل من طعامي.

الرواية تقول: راح ذاك الكافر مطروداً فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم: يا إبراهيم هذا عبدي وأنا أعلم أنه كافر لكن نحن نطعمه ونسقيه طوال عمره وأنت في يوم واحد وكلناه فيه إليك فتطرده.

إن الله تبارك وتعالى عاتب إبراهيم بأن عملك هذا غير صحيح، الله تعالى يفيض لكل واحد حسب استدعائه الذاتي، هذا الإنسان استدعاؤه الذاتي أن يأكل الطعام ويشرب كافراً أو مؤمناً حيواناً أو إنساناً، فلماذا منعته يا إبراهيم؟

الرواية تقول فذهب إبراهيم يبحث عنه إلى أن عثر عليه بعد مدة واعتذر إليه من صنيعه فقال له: مالخبر؟

قال: إن الله تعالى عاتبني فيك.

فقال: عجيب! ربك هكذا عاتبك فيّ وأنا كافر إذن آمنت بالله تعالى.

---

(1) النجم: ٩.

أنواع النظم السياسية:

على هـذا الأساس الأمم حسب استدعائها الذاتي تكسب ثوب النظام السياسي وهنا يقول صدر المتألهين في الأسفار: إن النظم السياسية المنحرفة على ثلاثة أنواع: النظم الضالة والنظم الجاهلة والنظم الفاسدة.

الأمم تأخذ النظام السياسي حسب استحقاقها واستعدادها الطبيعي، على هذا الأساس نصل إلى الواقع العراقي وفكر السيد شهيد المحراب ; في ما هو الاستحقاق التكويني والاستدعاء الطبيعي سياسياً للمجتمع العراقي.

السيد شهيد المحراب ; كان ينطلق من مجموعة مسلمات مبنائية واحد منها يخص العراق وهو: أن الاستدعاء الذاتي للعراق أن يحكمه أهل البيت وشيعة أهل البيت عليهم السلام، هذا هو الاستعداد الطبيعي والاستحقاق التكويني.

قلنا أن المجتمع له شخصية حقيقية مثل شخصية الإنسان، هـذا المجتمع العراقي في شخصيته الحقيقية في عالم الأعيان الثابتة هو عراق أهل البيت عليهم السلام وهذه القضايا أيضاً قابلة لأن نربطها بالروايات حينما الزهراء عليها السلام تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله كما في الرواية التي يرويها العلامة التستري في كتاب الخصائص الحسينية، تقول: من يبكي على ولدي الحسين فيقول الرسول صلى الله عليه وآله: «سيأتي أمّة يبكون على الحسين أنا أكون شفيعاً لرجالهم وأنت شفيعة لنسائهم» إن هذا العراق هو عراق أهل البيت وإن شجرة أهل البيت لا تقلع من العراق، شجرة الدين والهدى لا تقلع من العراق الذي انتخبه الله تبارك وتعالى مهبطاً لآدم ونوح وهود وصالح ثمّ عليّ والحسين عليهما السلام، هذا فيه إرادة إلهية حسب استدعائه الذاتي.

السيد الحكيم ; ولم يكن هذا الأمر مطروحاً بهذا الشكل من التنظير والطرح الفلسفي لكنني أربط الأمور لكي نعيش في الأجواء العلمية أيضاً،

المجتمعات يفيض عليها الله تبارك وتعالى ما تستحقه سياسياً، المجتمع العراقي حقه السياسي أن يحكمه الأكثرية وهم شيعة أهل البيت.

العمل لتحصيل ما هو حق:

هنا تأتي قضية أخرى في أصل النظرية، فهناك استعداد وهناك استحقاق، الاستعداد وحده ليس كافياً ولا بدّ من أن يصل إلى مستوى الاستحقاق، بمعنى أن تتحرك الذات من أجل تحقيق ذلك، أي محاولة بعد محاولة فتصير عملية استخراج وتبلور للحق، فالاستعداد غير كافٍ ولا بدّ من الاستحقاق بأن تجعل ذلك الذي تستعد له حقاً جديراً بأن يكون، وذلك من خلال العمل والفعل.

هذه الشجرة _ مثلاً _ مستعدة للماء لكن ما لم تستحقه بمدّ جذورها وتمزيق التربة فإن الماء لا يصل لها.

العراق يستعد ويستحق وهذا يحتاج إلى نضال وإلى عمل وجهد وإرادة عظيمة، حينئذٍ يأتي فيض الوجود من الله تبارك وتعالى وهذا ما حدث بالفعل، فقد تغيّر العراق. وما كان يقال أنه وهم وخيال تبين أنه حقيقة، الإرادة العالمية أيضاً تغيرت والتي لا يحلم أحد في يوم من الأيام إن الإرادة العالمية تتحول من دعم صدام إلى دعم الشعب العراقي.

هذه الحقيقة صنعها الاستدعاء الذاتي والاستحقاق الطبيعي لإرادة أكثرية شيعة أهل البيت، حينما صبروا وجاهدوا وقُتلوا وأُعدموا وسُجنوا ودَعوا وصلّوا وبَكوا وناضلوا ودرسوا، كل هذا المجموع جعل هذا البدن العراقي يستحق العافية فجاءته العافية من الله تبارك وتعالى، لكن بعد ما أصبح البدن مستعداً وأصبح مستحقاً بالصبر والجهاد والدعاء والبكاء وهذا كله محفوف بالإرادة والعزيمة.

الشعب العراقي بقي يناضل، وجذر أهل البيت فيهم لم يجف.

ما الذي يجري في العراق؟

دارت عليه الدوائر لكنه عراق الحسين، حتّى وصل الأمر ان صدام يدعو إلى حملة إيمانية، ويتبنى زيارة الحسين في الأربعين، وعدي يأتي إلى كربلاء في زيارة الأربعين، صدام هو الذي منع زيارة الحسين، أشياء غريبة شاهدناها. ومشكلة الإنسان أنه ينسى التحولات العالمية وتحولاتنا في الداخل، هذه هي نظرية الاستدعاء الذاتي والاستعداد الطبيعي، رحمة الله ورضوانه على السيد شهيد المحراب ورضوان الله على سائر شهدائنا ومراجعنا حين عملوا بنظرية أن هذا العراق هو عراق أهل البيت عليهم السلام وطبعاً كل بدوره لكن هذا عمل حقيقي.

مستقبل جديد:

العراق يضع أقدامه على مستقبل جديد ونظام جديد:

إن استحقاقنا التكويني نحن شيعة أهل البيت عليهم السلام والشعب العراقي عموماً ما هو؟ فيكون النظام حسب استحقاقنا ﴿نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى﴾.

في ضوء نظرية الاستدعاء الذاتي أنتقل إلى الاجابة على سؤالين:

السؤال الأوّل: ماذا حصلنا بعد تجربة عمرها ثلاث سنوات منذ سقوط صدام.

السؤال الثاني: إلى متى هذه المشاكل ونقص الخدمات وتصاعد الإرهاب؟

هذان السؤالان يجريان ويدخلان في كل بيت عراقي، وأنا بصدد أن أضع أجوبة علمية بسرعة، لأنه أنا أعلم أنكم تصطدمون بمثل هذه الأسئلة، نحن نعتقد أن لدينا جواباً على هذين السؤالين:

عشرة منجزات:

بالنسبة إلى السؤال الأوّل أنه ما الذي حصلنا عليه؟

نحن أنجزنا عشرة أمور وأنا أذكر عناوينها سريعاً:

١ _ الحرية السياسية والثقافية: وهذا منجز عظيم ويستحق أن نفديه بالأموال والأرواح، اليوم حصلنا على حرية سياسية وثقافية بصور رائعة والأرقام عندكم كثيرة.

٢ _ أنهينا مرحلة بناء الأسس: العراق كان كخربة وأنقاض، نحن أزلنا تلك الأنقاض وبنينا أسساً جديدة، العراق الآن له مجلس ودستور وحكومة وفق استحقاقاتنا الذاتية أيضاً، قد يقول قائل العراق كانت فيه حكومة، نعم كانت حكومة، لكن هي حكومة البعث وهناك فرق بينها وبين الحكومة التي ننتخبها نحن، وحسب استحقاقنا ايضاً.

٣ _ ديمومة التحرك: نحن لم نهزم ولا يزال شعبنا حياً وإرادتنا حية، هذا منجز عظيم أنه ما انهارت الهمم ولم تسقط العزائم بمعارك خلال ثلاث سنوات، إضافة إلى تحديات الدول العربية والحصار والإرهاب ومع هذا فالشعب العراقي أكثر عزيمة وإرادة مما كان عليه في اليوم الأوّل، لا تذهب بكم المذاهب فتقولوا إن الناس قد تعبوا، اليوم أصبحت قضية التغيير ونيل استحقاقنا ينادي الجميع بها، وبحمد الله الشارع العراقي أصبحت قضيته هي بناء نظام جديد، وتحدي المواجهات هي قضية طبيعية وهذه المسألة مهمة جداً حيث كان من الممكن أن تصير هزيمة ويصير القائد مثل مسلم بن عقيل لكن الآن ليست المرجعية مثل مسلم بن عقيل ولا قياداتنا الدينية والسياسية، فهناك إرادة حقيقية.

٤ _ احباط مجموعة مؤامرات: هناك مؤمرات تريد أن تجهض

عملية التغيير لكي يرجع البعثيون والأقلية المتسلطة، والدكتاتورية وتنتهي إرادة الناس، وينتهي كل شيء. لقد أحبطت مجموعة مؤامرات سياسية وعسكرية وكانت إلى الأمس القريب مؤامرة اسقاط الحكومة والمنطقة الخضراء، وأن تسقط بغداد وتحاصر، وأن تحدث حرب أهلية ولكن جميع هذه المؤامرات أحبطت بحمد الله تعالى.

٥ _ الاقتراب من الاستقلال: اليوم نحن أقرب إلى الاستقلال الذي هو هدف كبير بالنسبة لنا. لا أقول هذا الكلام ولا أريد أن أبالغ وأقول إن الوضع الآن جيد ولا يوجد احتلال، الاحتلال موجود والدبابات موجودة والقوات المتعددة الجنسيات والولايات المتحدة موجودة، لا نريد أن نكابر، لكن أيضاً من الخطأ أن نتصور أن الاحتلال خلال ستة أشهر أو سنة يخرج من العراق. فالاحتلال لديه مصالحه الخاصة، ايرلندا لحد الآن محتلة من قبل الانكليز، اليابان لحد الآن توجد فيها قوات أمريكية، ألمانيا الغربية كانت محتلة من قبل قوات التحالف، والاتحاد الأوربي هو أيضاً خاضع للسيطرة الأمريكية وإلى الآن هناك احتلال سياسي وسيطرة سياسية على الاتحاد الأوربي، فهل نتصور نحن أن الاحتلال يخرج بسهولة من العراق سواء أكان بمقاومة مسلحة أم سياسية، فأنا لست بصدد تقييم أيهما الصحيح وهذا قد ناقشناه في محاضرات سابقة، لكننا الآن نحن نقترب من الاستقلال حينما توفرت لنا حكومة ووزارات وأجهزة، وحينما يكون للشعب حضور في الساحة السياسية. وكذلك لدينا دستور ومجلس نواب، ولدينا إرادة وعزيمة. واستطعنا أن نثبت كثيراً من القضايا من جملتها: نثبت دستورياً قضية

الاستقلال وانسحاب الاحتلال، والحديث الآن أن الاحتلال يبقى طالما كانت الدولة العراقية تطلب بقاءه.

٦ _ حقوق الأكثرية: فنحن الآن الأكثرية في مجلس النواب وفي الوزارات.

٧ _ وحدة العراق: الآن العراق غير مقسم ودعايات التقسيم انتهت، ما زال العراق واحداً.

٨ _ وحدة البيت الشيعي: وهذا انجاز عظيم، وبحمد الله تعالى نعيش أفضل صور الوحدة للبيت الشيعي وهذا رحمة من الله تبارك وتعالى، أمامنا دول ما تزال تعاني من حروب والعراق نفسه كان يعاني من حروب كردستان، السودان أليست تعاني من حروب دارفور.

٩ _ النجاح في التحرك السياسي الدولي والاقليمي: لقد استطاع العراق أن يتحرك على المجتمع الدولي والعربي ويمد جسور العلاقة، معنى هذا أن قضية التغيير أصبحت قضية معترفاً بها، وأن لا رجعة للنظام السابق والوضع السابق. وهذا لا بدّ أن يعترفوا به، هذا انجاز كبير جداً.

١٠ _ انجازات على خط البناء: بعد أن انتهينا من مرحلة الأسس، انتقلنا إلى مرحلة البناء، هناك الكثير من المنجزات الاقتصادية والاعماريّة. مليارات الدولارات أصبحت تتحرك على الأرض، بالأمس كان هنا السيد محافظ النجف الأشرف وتحدث عن التعاقد على (٥٠٠) مشروع اعماري فقط في محافظة النجف، وعلى هذا قس باقي المحافظات.

وأخيراً أترك الجواب لكم عن السؤال الثاني وهو إلى متى الإرهاب والمفخخات وما شاكل ذلك.

أنا أذكر أوّلاً: نحن كطلاب حوزة علمية وثقافة دينية يجب أن نعرف أن الامتحان الإلهي لا ينتهي ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾.(١)

ثانياً: يجب أن نعرف أن البلاء ينتقل من مرحلة إلى مرحلة، البلاء لا ينتهي بنحو كلي، لكن ينتهي في النحو الجزئي، أي جزئياً البلاء ينتهي فينتقل إلى الجزء الثاني. ونوع البلاء مستمر. رسول الله ﷺ في مكّة المكرمة كان في نوع من البلاء دام ثلاثة عشر عاماً، وانتقل إلى المدينة وصارت دولة إسلاميّة فهل انتهى البلاء؟ لا، نوع البلاء تغيَّر، من بلاء تعذيب قريش إلى حروب وشهداء لكن في مقابلها فتوحات وتطور وما شاكل، البلاء في الحقيقة بلاء لكن أنواعه تختلف من بلاء صدام وكمّ الأفواه وقطع الآذان، وحكومات مستبدة ودكتاتوريات، وملاحقة حوزة ومطاردة بمعنى الكلمة، إلى انا أصبحنا اليوم نتحرك ونتقدم. وطبعاً في كل تقدم يوجد بلاء لكن ينتقل من مرحلة إلى أخرى والبلاء في هذه المرحلة قد يكون أصعب، لكن فيه تقدم حقيقي وانجاز للدين والمذهب والوطن، إضافة إلى ذلك فإن العراق لا يعيش مفصولاً عن العالم المجاور فالعراق جزء من حركة الإسلام العالمية ومن حركة التشيع إذن يتأثر بكل ما حوله بكل الواقع العالمي، لا شك أن العراق لا يعيش وحده، نحن شيعة أهل البيت استطعنا بحمد الله أن نعبر أمواج متلاطمة كالطود العظيم، لحد الآن والحمد لله سفينتنا نجحت والأمواج ترونها، العدوان على لبنان أيضاً لسحق الشيعة، التلويح بالعدوان على ايران أيضاً لسحق الشيعة، التلويح بالعدوان على سوريا أيضاً لاستحكام القبض على المنطقة. وأنا لست بصدد تقييم سوريا، لكن

---

(1) العنكبوت: ٢.

هذه منطقة محيطة بنا وهل يفترض اننا نعيش بمعزل عن العالم من حولنا؟ لا يمكن ذلك.

وأخيراً نحن نعيش طموحات عالمية، أهلاً ومرحباً بالبلاء إذا كان في طريق تحقيق انتصارات للتشيع عالمياً، نحن الآن حجمنا أيها السادة أيها الحوزة العلمية في النجف الأشرف، يا شيعة العراق، قضيتكم الآن أكبر من حجم العراق الجغرافي، الآن التشيع عالمياً يطرح ويتحرك، المرجعية عالمياً أصبحت أطروحة تغزو المذاهب والمدارس الأخرى بل تغزو الآفاق الأخرى عالمياً، هذه طموحاتنا وهذا الأفق الذي نتحرك به أكبر من حجمنا الجغرافي الصغير. سواء في هذه المحافظة أو في كل العراق.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يعطينا ما هو استحقاق أهل البيت عليهم السلام واستحقاق الحسين وعليّ عليه السلام فهم من اختار هذه الأرض، نسأله تبارك وتعالى أن يعطينا ما هو الاستدعاء الذاتي لهذا الولاء بين الشيعة وبين أئمّتهم الأطهار عليهم السلام، هذا الولاء بين الشيعة وبين أئمّتهم الأطهار عليهم السلام، هذا الولاء الذاتي يستحق العطف الإلهي، ان سبعة ملايين زائر حفاة يذهبون للحسين في كربلاء هذا يستدر العطف الإلهي، وفيه استحقاق واستدعاء واستعداد ذاتي. إن الله تعالى يفيض عليهم الرحمة وقد أفاض عليهم الرحمة وسقط صدام وعاد لهم الأمان والعراق بدأ يتحرك.

نسأله تبارك وتعالى أن يمنّ علينا ببركة هذا الاستعداد الذاتي وبمحبة أهل البيت أن يمن علينا بالنصر والفرج ويتغمد سيدنا شهيد المحراب وسائر شهدائنا برحمته الواسعة، وسائر مراجع النجف الأشرف السيد محمّد الصدر، الشيخ الغروي، الشيخ البروجردي ويحفظ علماءنا ومراجعنا الباقين.

(٣/ شعبان المعظم/ ١٤٢٧هـ)

المحاضرة الرابعة عشرة:

نظريتان في فهم التاريخ

موضوعات المحاضرة:

١ _ النظرية الأولى: النظرية الحتمية.
٢ _ ماذا تعني هذه الحتميات؟
٣ _ الحداثة في التاريخ.
٤ _ الموقف السياسي.
٥ _ الطريق الإلهي.
٦ _ موعظة الرسول ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمَوْلُودِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، الْمَوْعُودِ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ اسْتِهْلالِهِ وَوِلادَتِهِ، بَكَتْهُ السَّمَاءُ وَمَنْ فِيهَا وَالْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا وَلَمَّا يَطَأْ لابَتَيْهَا، قَتِيلِ الْعَبْرَةِ وَسَيِّدِ الْأُسْرَةِ الْمَمْدُودِ بِالنُّصْرَةِ يَوْمَ الْكَرَّةِ».[1]

هذا ما نقرؤه اليوم عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام في مناسبة ذكرى ولادة إمامنا الحسين عليه السلام في الثالث من شهر شعبان.

هذا المقطع أحببت أن أجعله مدخلاً للحديث عن نظريتين متطرفتين في فهم التاريخ:

النظرية الأولى: هي الحتمية التاريخية.

النظرية الثانية: هي الحداثة المعاصرة.

هذا النص يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمَوْلُودِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، الْمَوْعُودِ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ اسْتِهْلالِهِ وَوِلادَتِهِ» فهذا وعد تاريخي إلهي أزلي «وَلَمَّا يَطَأْ لابَتَيْهَا» أي قبل أن يطأ جنبتي الأرض كان الإمام الحسين موعوداً بهذا المقام «بَكَتْهُ السَّمَاءُ وَمَنْ فِيهَا وَالْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا...» إلى أن يقول: «قَتِيلِ الْعَبْرَةِ وَسَيِّدِ الْأُسْرَةِ الْمَمْدُودِ بِالنُّصْرَةِ يَوْمَ الْكَرَّةِ».

هذا النص يتضمن حديثاً عن بداية التاريخ وحديثاً عن نهاية التاريخ.

بداية التاريخ «الْمَوْعُودِ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ اسْتِهْلالِهِ وَوِلادَتِهِ بَكَتْهُ السَّمَاءُ

---

(1) مفاتيح الجنان: ١٦٤، عن مصباح المتهجد: ٨٢٦.

وَمَنْ فِيهَا»، وهذا حديث عن البداية، وهكذا حديث عن النهاية، نهاية التاريخ. إن الإمام الحسين عليه السلام له قصة في نهاية التاريخ وموقع وهو «النُّصْرَةِ يَوْمَ الْكَرَّةِ» نظرية الرجعة وعودة أهل البيت عليهم السلام وهذا المضمون وارد في روايات عديدة، أما نظرية الرجعة والكرة فهناك ما استفاض من الروايات فيها، وأصبحت بمثابة المعتقد لدى الشيعة على إجماله، وهكذا عودة الإمام الحسين عليه السلام أيضاً هناك من الروايات ما يؤكد أن أوّل من يخرج لنصرة الإمام المهدي عليه السلام هو الإمام الحسين عليه السلام، وهنا في هذا النص «الْمَمْدُودِ بِالنُّصْرَةِ يَوْمَ الْكَرَّةِ»، نحن نتلقى الآن هذه المعلومات كأمر مفروغ منه، كمصادرة دون أن ندخل في التحقيق فيها باعتبار أنها مفروغ منها في فكرنا التراثي وفي ثقافتنا الدينية، ان قصة الإمام الحسين كانت منذ بداية التاريخ أي منذ آدم وستبقى لها تأثير على التاريخ عند ظهور إمامنا صاحب العصر والزمان.

إذن لها في بداية التاريخ موقع وفي نهاية التاريخ موقع، هذا الأمر نجعله مدخلاً ومفتاحاً للحديث عمّا هي الرؤية الإسلاميّة تجاه التاريخ؟

هل هناك ثوابت تاريخية لا تتغير؟

هل يمكن للإنسان أن يتمرد على التاريخ؟

هل يمكن لأمّة من الأمم أن تخرج عن مسارها التاريخي المحتوم؟

إذن هناك مسارات ثابتة وهناك مصائر وصيرورة ثابتة للأمم وللأفراد. وهذا ما يسمى بالحتمية التاريخية، إذن لا إلى اليمين ولا إلى اليسار إنما هي مسارات مكتوبة منذ الأزل يتقرر بها مصير الأمم ومصير الأفراد. وهذا ما قد نشمه في هذا النص الذي يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ

بِحَقِّ الْمَوْلُودِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ اسْتِهْلالِهِ وَوِلادَتِهِ» فهناك خط مرسوم منذ الأزل لا يتعداه لا الإمام الحسين عليه السلام، ولا أصحابه ولا أمّته، وهكذا في نهاية التاريخ.

التاريخ كيف تنظر إليه الرؤية الإسلاميّة؟

هناك نظريتان:

النظرية الأولى: النظرية الحتمية.

النظرية الثانية: نظرية الحداثة المعاصرة.

سأقف معكم في كل هذا في إطار الإمام الحسين عليه السلام، ونحن نعيش ذكريات الإمام الحسين، لكن نعمل ونحاول أن نحيط بالثقافات المعاصرة والمحيطة بنا، وننقدها ونعرف ما هي الرؤية الدينية. نذكر ذلك في بطن حديثنا عن الزيارة والدعاء والنص القرآني لأن الأمور مترابطة، وهل هذا النص يعني الحتمية التاريخية؟ قلت لكم أن هناك نظريتين هما الحتمية والحداثة.

النظرية الأولى: النظرية الحتمية:

الحتمية ما ذا تعني؟

تعني هناك قرار أزلي سواء أكان الله تبارك وتعالى هو صاحب هذا القرار أم كانت هي الطبيعة أم كان هو التاريخ أم كان هو المجتمع المهم أن هناك هندسة للإنسان الفرد وللأمم، لا يمكن أن يتعداها لا الفرد ولا الأمّة، هناك هندسة يسير على أساسها كالقطار على السكة فمهما يريد ربان هذا القطار أن يتصرف بسرعته ووقوفه لكن لا يستطيع أن يخرج عن هذه السكة، يقال هناك مسارات حتمية.

وهذه النظرية لها عدة صور:

أ _ الحتمية الفلسفية. ب _ الحتمية العلمية. جـ _ الحتمية الطبيعية. د _ الحتمية الاجتماعية. هـ _ الحتمية التاريخية. و _ الحتمية التوحيدية.

ماذا تعني هذه الحتميات؟

أ _ الحتمية الفلسفية:

تعني أن الشيء ما لم يجب لم يوجد، أي أن الشيء إذا لم يتحول من الممكن إلى الواجب لا يوجد، إذن لا يوجد شيء على بساط الوجود إلاّ وهو واجب أي حتمي، إذن فلسفياً كل موجود هو حتمي وهذا يعني الحتمية الفلسفية.

ب _ الحتمية العلمية:

تعني أن الله تبارك وتعالى كان عالماً بالوجود منذ الأزل بما كان وما يكون، وعلمه لا يتخلف عن الواقع، إذن ما علم الله به كان وما لم يعلم لم يكن، أي أن هناك حتمية علمية. ولهذا كان أحد الفلاسفة الشعراء وهو الخيام يقول بلسان الحال عن أولئك الذين يتورطون بالمعاصي: كان الله عالماً بأني أشرب الخمر وإذا لم أشرب الخمر فإن ذلك يعني أن علم الله تعالى جهل، ولأن علم الله حقيقة وليس جهلاً إذن لا بدّ أن أشرب الخمر.

جـ _ الحتمية التوحيدية:

تعني أن الله تعالى يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، يتنزل الأمر بينهن؟ نحن بمقدار ما نترسخ في التوحيد بمقدار ما ننسى كل الأسباب ونقطع عنها، ونعرف أن لا مدبر للوجود إلاّ الله تعالى، وإذا كان الأمر

كـذلك، إذن فقـط إرادتـه هـي الحاكمـة وأيـة إرادة أخـرى هـي صـفر وهـذا يعني الحتمية التوحيدية.

هـذا مـا جـاء علـى لـسان حـوار شـعري بـين سـيف الدولـة الحمـداني وبـين أبـي فـراس حينمـا قـال سيف الدولـة الحمـداني وكـان أديبـاً شـاعراً أن لي بيت شعر وأريد من يثني عليه:

لـــك جـــسمي تعلـــه فـــــدمي لا تطلـــــه

وكان أبو فراس حاضراً وهكذا علق عليه:

قـال إن كنـت مالكـاً فَلـــيَ الأمـــر كلـــه

هذه هي الحتمية التوحيدية.

د _ الحتمية التاريخية:

تعنـي أن التـاريخ محكـوم لمجموعـة ثوابـت وقـوانين، وكمـا جـسم الإنـسان يخـضع لقـوانين ماديـة كـذلك جـسم البـشرية كلـه يخـضع لقـوانين تاريخية، هذا يسمى بالحتمية التاريخية.

وهـذه القـضية ليـست جديـدة وانمـا قديمـة، ابـن خلـدون فـي مقدمتـه يقـول: إن الحـضارات والـدول لا تـستطيع أن تتجـاوز المـسار التـاريخي لهـا، ما هو المسار التاريخي لها؟

يقـول كـل دولـة وكـل حـضارة تبـدأ بمرحلـة صبا، ثـمّ فتـوة ومراهقـة ثـمّ كهولـة وشـيخوخة ثـمّ فنـاء، ولا يمكـن لدولـة أن تـستمر لأكثـر مـن ثلاثـة أجيال، هكذا يقول ابن خلدون.

لا توجـد حـضارة علـى طـول التـاريخ، ولا دولـة علـى طـول التـاريخ زادت عـن أكثـر مـن (١٢٠) سـنة، ثـمّ يـشرح ذلـك ويقـول: إن الجيـل الأوّل

لرؤساء الدولة ضعيف، ثمّ الجيل الثاني مراهق قوي، ثمّ الجيل الثالث يبدأ يتخبط إلى أن ينتهي، بنفس هذا الاتجاه ترى الماركسيّة أن هناك حتمية تاريخية مرحلة الاقطاع انتهت، ومرحلة الرأسمالية ستنتهي، وتأتي مرحلة الاشتراكية وبعدها مرحلة الشيخوخة العالمية حيث لا دولة ولا حكومة وانما هي شيوعية عالمية، يفترضون أن هذه قوانين التاريخ، حتمية تاريخية.

هـ _ الحتمية الاجتماعية:

تعني أن المجتمع في الحقيقة ليس عنواناً انتزاعياً وانما هو عبارة عن كيان حقيقي كما الفرد له شخصية حقيقية، كذلك المجتمع له شخصية حقيقية لها حياة وممات وأدوات حركة وعمر وتاريخ وعقوبة، ولها حشر لخصوص يوم القيامة أيضاً، الأمم تحشر ككتل وليس كأفراد، المجتمعات عبارة عن شخصية حقيقية تخضع لقوانين، وإذا كانت المجتمعات كذلك فأنت فرد فيها كراكب السيارة لا تستطيع أن تصنع شيئاً أي إذا وقعت السيارة من حافة الجبل إلى الوادي فأنت مهما تكن بطلاً وعملاقاً فلا بدّ أن تقع معها، وهكذا إذا صعدت السيارة فأنت لا بدّ أن تصعد معها، المجتمع له حتمية اجتماعية تفرض على الأفراد ولا يستطيع الفرد أن يتمرد على الحتمية الاجتماعية.

هذه مجموعة حتميات.

تقول نظرية الحتمية أن الإنسان يخضع للحتمية سواء أكانت فلسفية، طبيعية، علمية، تاريخية، اجتماعية لكن بالنتيجة هي حتمية، معنى هذا أن الإنسان لا يمتلك إرادته في رسم مصيره وانما مصيره

مربـوط بمـسار محتـوم ومكتـوب منـذ الأزل فـرداً أو مجتمعـاً، هـذا هـو الاتجاه الأوّل.

وطبعـاً الرؤيـة الإسـلاميّة لا تقبـل بنظريـة الحتميـة، ولا تقبـل أيـضاً بنظريـة الإرادة المطلقـة وانمـا تـؤمن بنظريـة الإرادة النـسبية يعنـي أن هنـاك فواعـل للتـاريخ وللطبيعـة وللأمـم، والمجتمعـات تـضغط علـى الإنـسان لكـن يبقـى هـذا الإنـسان يمتلـك إرادتـه النـسبية ويمتلـك القـدرة فـي الخـروج علـى تلـك الإرادات الأخـرى، لا ينهـار الإنـسان أمـام التـاريخ ولا المجتمـع، الإنـسان يبقـى يمتلـك الإرادة النـسبية التـي تـصحح الثـواب والعقـاب، حتّـى لـو كـان المجتمـع كـل يـسير باتجـاه، لكـن لا يـستطيع ذلـك المجتمـع أن يسلب الإرادة الكاملة من الإنسان.

إلـى جانـب ذلـك يعتقـد الإسـلام بـأن هنـاك قـراراً إلهيـاً حاكمـاً علـى مسيرة الإنسان، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾[1] هنـاك إرادة إلهيـة وكـل مـا يجري في الوجود انما يجري عبر إرادة الله تبارك وتعالى.

نحـن نعتقـد بـالإرادة الإلهيـة والعلـم الإلهـي، لكـن إلـى جانـب ذلـك هنـاك اعتقـاد بـإرادة الإنـسان النـسبية وليـست المطلقـة، الإرادة النـسبية التـي تجعله مختاراً والتي تصحح العقاب والثواب.

الإمام الحسين عليه السلام «الْمَوْعُودِ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ اسْتِهْلالِهِ وَوِلادَتِهِ» لكن لا يقول قائل انه إذن هذه القضية قرار إلهي مسبق. والحسين عليه السلام لا إرادة له ولا فضل له وانما هو مسيَّر بهذا الاتجاه، لا ليس كذلك هناك قرار إلهي ووعد إلهي لكن هذا القرار الإلهي، قرار عبر إرادة الإنسان فهو موعود بشهادته قبل ولادته

---

(1) البقرة: ٢٥٣.

ولكن عبر إرادته وليس فرضاً عليه، وهكذا المجتمعات والأمم وهكذا الأفراد، وعلى كل حال هنا يهمني أن أعطي النظرية فقط بعيداً عن المناقشة التفصيلية، ان كل هذه الحتميات الإسلام يؤمن بها نسبياً إلى جانب الإيمان بالإرادة النسبية للإنسان. لا يوجد هناك ما يمحو الإرادة الإنسانية مطلقاً، بل حتّى أولئك الذين استُضعفوا وانحرفوا الله تبارك وتعالى يقول لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها﴾[1] أي انكم بقيت لديكم إرادة نسبية فلماذا لم تستخدمونها؟

تلك هي نظرية الحتمية.

اليوم في زماننا المعاصر برزت وظهرت نظرية جديدة فاعلة هي نظرية الحداثة، الحداثة لها أكثر من مجال: الحداثة في المعرفة، الحداثة في الإنسان، الحداثة في العلم، الحداثة في التقنية، الحداثة في الفلسفة.

الحداثة في التاريخ:

اليوم الحداثة المعاصرة لها رؤية للتاريخ على عكس رؤية الحتمية تماماً، الحتمية كانت تقول إن الإنسان مسير للتاريخ والحداثة تقول: الإنسان يجب أن يقطع عن التاريخ، ولا يوجد مقدس في الماضي، والإنسان يجب أن يعيش حاضره، وهكذا لا يفكر بالمستقبل، الحداثة تقول للإنسان لا تقدس الماضي ولا تفكر به، وهكذا لا تفكر بالمستقبل بل فكر في الساعة التي أنت فيها، أي لا مقدسات ولا تاريخ مقدس ولا أمم مقدسة ولا رجال مقدسون ولا قيم مقدسة ولا ثوابت مقدسة انما أنت ابن ساعتك، هذه هي الحداثة.

هي نظرية متطرفة تماماً كما كانت الحتمية متطرفة.

---

(1) النساء: ٩٧.

الإسلام له رؤية معتدلة ويقول: أيها الإنسان صحيح انك تصنع التاريخ، لكن أنت غير مقطوع عن التاريخ، صحيح أن التاريخ ليس له قدسية مطلقة، لكن له قدسية نسبية. وهي قدسية مواقف الحق في التاريخ.

نحن لا نقدس التاريخ والأمم الماضية، وإنما نقدس الحق في تلك الأمم ونقدس الأنبياء والكتب السماوية والمواقف الأخلاقية، ولا نقدس الماضي كماضي، لا نريد أن نكون من المقلدين فنقلد الآباء، الرؤية الإسلاميّة لا تريد أن تعطي تقديساً مطلقاً للتاريخ. وهنا الحداثة محقة حينما تقول لا تقدسوا التاريخ تقديساً مطلقاً، لكن الإسلام يقول: يجب أن نحتفظ بالقداسة النسبية لما هو الحق، لماذا نشطب على كل المواقف التاريخية؟ فهنالك أمم صالحة، وأنبياء وقيم ومواقف بطولية يجب أن تُقدس، وهناك مواقف غير شريفة لا يصح أن تقدس.

ولهذا تجدون كيف نتعامل مع تاريخنا حين نقرأ: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ آدَمَ صَفْوَةِ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ نُوحٍ نَبِيِّ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وَارِثَ مُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ...»[١] هذا ارتباط بالتاريخ أي اعطاء قدسية للتاريخ، لكن ليست قدسية مطلقة وإنما قدسية لما هو الحق في المواقف التاريخية.

نحن جزء من أمّة ولا يقبل الإسلام للإنسان المسلم أن يفكر فقط بالذات، وإنما يفكر بذاته وبالأمّة التي يرتبط بها ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٢] فأنتم تعيشون مع أمّة. وهذه الأمّة لها تاريخ ولها قائد وهو رسول الله ﷺ.

---

(1) مفاتيح الجنان: ٢٩١، عن مصباح المتهجد: ٧٢٠.

(2) التوبة: ١١٩.

وهكذا الإسلام حينما يريد أن يقيم الحداثة يعتقد أن الحداثة في هذه الزاوية أيضاً تشهد لوناً من ألوان التطرف، ولهذا نحن نقف مع ذكريات الأئمّة الأطهار والأنبياء، لكن كيف نقف؟ أنقف معرضين عن تلك الذكريات؟ لا ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[1] بل نقف ممجدين لتلك الذكريات، هذا نطرحه اليوم بعنوان ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[2] هذه لغتنا، أما اللغة المعاصرة اليوم لغة أن الحداثة تقطع عن الماضي، أما الإسلام يربط الإنسان بالماضي كما يربطه بالمستقبل.

كيف يربطه بالماضي والمستقبل؟ لاحظوا المشهد الذي نحن فيه وهو مشهد ولادة الحسين عليه السلام، وأنظروا إلى الربط بين الماضي والمستقبل، نبدأ أوّلاً «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ الْمَوْلُودِ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ اسْتِهْلالِهِ وَوِلادَتِهِ» هذا ربط بالماضي، وأنظروا إلى الربط بالمستقبل «الْمَمْدُودِ بِالنُّصْرَةِ يَوْمَ الْكَرَّةِ» وهو ربط بالمستقبل البعيد ويمكن أن يكون بعد مئات أو آلاف السنين، لكن الإنسان مرتبط بالجنبتين الماضي والمستقبل، ولا يصح أن تقطع حباله كما أن الحداثة تريد أن تقطع حبل الإنسان فتقول لا ماضي ولا مستقبل.

إن التاريخ هو أحد المؤثرات على بناء الإنسان. وهناك قوانين للتاريخ، لكن كل تلك القوانين والمؤثرات لا تسلب إرادة الإنسان من ناحية، ومن ناحية ثانية لا يصح أن يقطع الإنسان عن تاريخه وعن أمّته وعن ماضيه، كما لا يصح أن يقطع عن مستقبله.

---

(1) إبراهيم: ٥.

(2) الحج: ٣٢.

الموقف السياسي:

ما هو الموقف السياسي لشيعة العراق اليوم؟

ما هي أولوياتنا؟

رغم أن هناك قيم ومبادئ ثابتة لكن الموقف السياسي يتحرك، ولهذا نحن واقعيون وسياستنا واقعية ويمكن أن نسمي مذهبنا بالمذهب الواقعي. فنحن نقبل بصلح الإمام الحسن عليه السلام ونقبل بثورة الإمام الحسين عليه السلام فكلاهما صحيح وكل في وقته.

من الذي يحدد الموقف السياسي؟ الأولويات الخاضعة للمصالح هي التي تحدد الموقف السياسي، الأولويات حسب ما تحققه لنا من مصالح للدين وللإنسان، الإسلام يهتم بمصالح الدين كمشروع على الأرض، ويهتم بمصالح الإنسان، هذان الأمران: مصالح الدين ومصالح الإنسان هي التي تحدد الموقف السياسي.

نحن اليوم في العراق لنا أولوياتنا الخاصة التي نمتاز بها عن كثير من دول الجوار، وعن مواقف ماضية في التاريخ فنحن نعيش في واقعيات تختلف عن واقعيات غيرنا، لا يصح للعراقيين كما لأي أمّة أخرى أن يفكروا بحالة الاستنساخ لتجربة مماثلة، نحن لنا الآن تجربة وتجربتنا في العراق هي غير تجربة ايران أو لبنان أو تركيا، ولا يصح أن نقوم بعملية استنساخ وإنما يجب أن نحدد أولوياتنا وفق المصالح والمكاسب السياسية وفي ضوء ذلك يتحدد الموقف ما هو، نحن نعتقد أن أولويات شيعة العراق عبارة عن:

أوّلاً: تحرير العراق من الدكتاتورية والظلم والحكم الجائر، هذه كانت أولى أولوياتنا ولا زالت، تحرير العراق واسقاط صدام والاطاحة بحزب البعث

وكل امتداداته، هذه أولويات العراقيين والشيعة بالخصوص، غيرنا كانت لهم أولوياتهم وفي نفس الوقت يمكن أن تكون هذه الأولويات غير موجودة في تجربة أخرى مماثلة. ففي لبنان أو سوريا أو ايران أو اليمن لهم أولوية أخرى والعراقيون قبل مائة سنة لهم أولوية أخرى، نحن الآن أولويتنا هي أن يتنفس العراقيون نسيم الحرية.

ثانياً: كسر المعادلة الظالمة وبسط العدالة السياسية، أي بعد أن تسقط الدكتاتورية تكون أولويتنا الثانية هي أن يتمتع شيعة العراق بحقهم السياسي، حقهم المسلوب على مدى مئات السنين، العراق كان محكوماً بمعادلة سياسية ظالمة يجب أن تتغير وهذا لا يحتاج إلى شرح كثير، هذه الأولوية الثانية لنا وهي بسط العدالة السياسية لكل مكونات الشعب العراقي، حينئذٍ يتكوّن الموقف السياسي عبر هذه الأولويات ولهذا تجدون مثلاً ان الإمام الحسين عليه السلام دخل معركة مع يزيد بن معاوية، بينما كان الروم على الحدود يهددون المصالح الإسلاميّة، لكن الواقعيات التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام جعلت الأولوية للاطاحة بحكم يزيد، مصالح الدين والإنسان هي التي فرضت هذه الأولوية، وكان يمكن للإمام الحسين أن يقول: نعم، الأولى لي أن أصافح يزيد بن معاوية وأستجمع الجهد للغزو والفتح الإسلامي وحروب الروم وما شاكل ذلك، لكن الإمام الحسين اعتبر الأولوية هي لتغيير الحكم الجائر.

مثل هذا الأمر كان سياسة نصير الدين الطوسي الذي رأى حسب الواقعيات التي عاشها أن الخطر الذي يداهم المسلمين من داخلهم أعظم من الخطر الذي داهم المسلمين من خارجهم على يد المغول وأن المغول يمكن أسلمتهم بينما لا يمكن أسلمة حفنة من الحكام المجرمين الجائرين، وبالتالي

وجدنا سياسة نصير الدين الطوسي أنه داهن الغزو المغولي واستطاع أن يستميلهم ثمّ يفتح ساحة واسعة، وأفقاً واسعاً جداً للحريات الفكرية، وعمل شيعة أهل البيت بأفق كبير في هذه المرحلة بينما أنفاسهم كانت مقطعة قبل هذه المرحلة ولهذا نجد أن خصوم الشيعة يمتلئون غيظاً على نصير الدين الطوسي.

نحن نعتقد أن سياسة الطوسي كانت حكيمة، حينما تعرض إلى عدو كافر لا يمكن صدّه بل يمكن مداهنته لكسب الموقف، وهذا هو ما فعله بالضبط.

اليوم في الحقيقة سياسة شيعة العراق هي شبيهة بذلك، لدينا نفوذ أجنبي لكن الأولوية لمن؟ الأولوية لانقاذ العراق من الدكتاتورية أو لانقاذ العراق من النفوذ الأجنبي؟ أنا أتحدّث عن رأي شيعة أهل البيت في العراق والتقييم أتركه لكم.

نحن نعتقد أن شيعة أهل البيت بمراجعهم وكياناتهم اعتقدوا بأن أولى الأوليات هي اسقاط الدكتاتورية، والثانية هي بسط العدالة السياسية ونشر الحرية الثقافية في العراق، ثمّ تأتي المرحلة الأخرى وهي الموقف من الغزو الأجنبي، هذا الموقف في الحقيقة هو شبيه بموقف الشيعة على عهد نصير الدين الطوسي وكانت الأولوية تقتضي أن نداهن هذا الغازي الأجنبي وهو المغول والتتر ويومئذٍ تتمتع الشيعة بحرية كبيرة واستطاعوا بحكمتهم أن يستميلوا هذا المعتدي الكافر إلى الإسلام.

أولوياتنا التي نعمل عليها هي:

أوّلاً: اجتثاث البعث وتغيير مؤسسات النظام البعثي السابق.

ثانياً: العدالة السياسية من خلال مشاركة الجميع في الحكم حسب استحقاقاتهم.

يجب أن ننتبه جيداً إلى صحة الأوليات التي وضعناها وخاصة بأننا نتمتع بخيمة شرعية، الشرعية من أين نأخذها؟ فهل أنا أعطي لنفسي شرعية وأنت تعطي لنفسك شرعية؟ الحمد لله نحن نتمتع بشرعية مستقاة من مراجع الدين، فكلهم شرّعوا هذا الموقف واعتبروا الأوليات هي اسقاط الدكتاتورية، والعمل بهذا الدستور، واستقرار العراق، والمداهنة مع الاحتلال بما تعنيه في المعنى الشرعي للمداهنة وليس المعنى غير الشرعي، والدخول في العملية السياسية، وهذا بحمد الله تعالى يمنحنا اطمئناناً أن مواقف شيعة أهل البيت هي مواقف مشرَّعة لهم وليست اجتهادات شخصية، ونعوذ بالله من أن ندخل في اجتهادات شخصية قد نزعم اليوم أنها صحيحة، لكن ربما فيها إشكالات على الدين والمذهب والشعب ويوم القيامة لا يكون لدينا جواب، نحن الآن نمشي بطريق واضح ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[1] وأولو الأمر قالوا أدخلوا في العملية السياسية فدخلنا.

الطريق الإلهي:

الإمام الحسين عليه السلام يرسم لنا طريق الفناء في الله واللقاء مع الله، هذا بحث مهم لدى العرفاء.

ما هو الطريق؟

ابن عربي صاحب كتاب الفتوحات المكية يقول: التقيت أبا جعفر العريني وسألته عن الطريق إلى الفناء في الله؟

فقال: (سدّ الباب واقطع الأسباب وجالس الرهاب يكلّمك الله من

---

(1) النور: ٥٣.

دون حجاب) وهذا النص يرسم منهجاً في ما هو الطريق إلى الله، ثمّ ابن عربي يقول: (فعملت عليها حتّى فتح الله لي).

لكن لنرى الإمام الحسين عليه السلام وهو سيد شباب أهل الجنّة، كيف يرسم الطريق إلى الله تبارك وتعالى؟

ما هو الطريق إلى الفناء في الله تبارك وتعالى؟

نحن نجد الإمام الحسين عليه السلام في أروع مشهد تاريخي للفناء المطلق في الله تبارك وتعالى، يرسمه لنا في الساعات الأخيرة من عاشوراء بل الدقائق الأخيرة يوم كان ما بينه وبين السماء كالدخان من شدة العطش، في تلك اللحظات الحسين عليه السلام وجسده مضمخ بالدماء على الأرض لكن روحه انفتحت على الغيب فقال وقد وضع خدّه على التراب: «اللَّهُمَّ أَنْتَ مُتَعَالِي الْمَكَانِ عَظِيمُ الْجَبَرُوتِ شَدِيدُ الْمِحَالِ غَنِيٌّ عَنِ الْخَلائِقِ عَرِيضُ الْكِبْرِيَاءِ قَادِرٌ عَلَى مَا تَشَاءُ قَرِيبُ الرَّحْمَةِ صَادِقُ الْوَعْدِ سَابِغُ النِّعْمَةِ حَسَنُ الْبَلاءِ قَرِيبٌ إِذَا دُعِيتَ مُحِيطٌ بِمَا خَلَقْتَ قَابِلُ التَّوْبَةِ لِمَنْ تَابَ إِلَيْكَ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَدْتَ وَمُدْرِكٌ مَا طَلَبْتَ وَشَكُورٌ إِذَا شُكِرْتَ وَذَكُورٌ إِذَا ذُكِرْتَ أَدْعُوكَ مُحْتَاجا وَأَرْغَبُ إِلَيْكَ فَقِيرا وَأَفْزَعُ إِلَيْكَ خَائِفا وَأَبْكِي إِلَيْكَ مَكْرُوبا وَأَسْتَعِينُ بِكَ ضَعِيفا وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْكَ كَافِيا» هذا عمق اللقاء مع الله تعالى، لقد نسي الحسين عطشه وجراحه وعياله وكل ما هو فيه من شدائد كأن لم تكن فعرج الحسين بأسرع مما يعرج به العارفون، لاحظوا لقاءه ومناجاته مع الله، ما طلب في مناجاته ماءاً أو طعاماً وإنما اشتغل في الثناء على الله وتمجيده «مُتَعَالِي الْمَكَانِ، عَظِيمُ الْجَبَرُوتِ، شَدِيدُ الْمِحَالِ، غَنِيٌّ عَنِ الْخَلائِقِ، عَرِيضُ الْكِبْرِيَاءِ» بدأ يتصل مع الله تبارك وتعالى.

أين عطش الحسين؟

أين لسانه الذي كان كالخشبة اليابسة؟

لكن لاحظوا القلب الذي انفتح على عالم السماء، هذا هو الفناء في الله. هذا الفناء في الله كيف وصله الحسين عليه السلام؟

هذا الفناء هل وصله بطريق (سد الباب واقطع الأسباب وجالس الرهاب) ذاك طريق ابن عربي، لا، الإمام الحسين عليه السلام وصل إلى هذا المستوى من الفناء في الله تعالى من خلال الحضور في انقاذ العباد وخدمتهم وفي نصرة الدين وحمل هموم الأمّة، من خلال هذا الحضور ومن خلال تقطع أوصاله من أجل انقاذ الناس وانقاذ الدين بتقطع أوصاله، بهذا الطريق وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى الفناء في الله تبارك وتعالى، حتّى يقول الراوي: كان الإمام الحسين يزداد وجهه تألقاً ونوراً، كلما اشتد الخطب به يوم عاشوراء كان وجه الإمام الحسين يتوهج أكثر. والحال أن فرض القضية يقتضي شيئاً آخر، يقتضي أن هذا الإنسان العطشان الذي تنزف جراحاته دماً أن لا يبقى بوجهه دم ولا نور. والغبار يعلوه، لكن الرواية تقول عن لسان الأعداء الذين شهدوا المعركة وليس هو من رواتنا انه كلما كان يرتجف الأصحاب لوقع السيوف وشدة المعركة كان الحسين عليه السلام يتوهج نوراً، هذا أي نور؟ هذا نور اللقاء، هذا نور الله تبارك وتعالى، هذا النور الناشئ من حمل المسؤولية.

أيها الاخوة أيها السادة يا طلاب العلوم الدينية نحن حينما نريد أن نسلك الطريق إلى الله تبارك وتعالى، نحن حينما ندعو في مناجاة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام المناجاة الشعبانية: «إِلَهِي هَبْ لِي كَمَالَ الانْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ

حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ»[1] كيف يكون هذا؟

هل يكون من خلال العزلة عن الناس، وعن الأمّة وعن همومهم؟

هل يكون من خلال العكوف على الكتاب وفي الغرفة أو الحجرة وبعيداً عن هموم الأمّة المقطعة والمعذبة والمعركة السياسية التاريخية التي يعيشها شيعة أهل البيت عليهم السلام؟

لا، ليس كذلك، لا يمكن أن نصل إلى كمال الانقطاع إلى الله تبارك وتعالى عبر طريق المتصوفة وأصحاب الطرق، لا. طريقنا رسمه أهل البيت عليهم السلام ورسمه الإمام الحسين عليه السلام، هذا هو الطريق.

إن كان دين محمّد لم يستقم ... إلاّ بقتلي فيا سيوف خذيني[2]

وهذا غير طريق (سد الباب واقطع الأسباب وجالس الرهاب) بل هذا طريق احضروا مع الناس ومع همومهم وهموم الأمّة وانصروا دينكم وانصروا الضعفاء من الناس، هذا هو الطريق، ووصل الحسين، إلى مشهد أروع من هذا المشهد؟

وأي مشهد أروع من مشهد أمير المؤمنين في المحراب حينما يقول وقد علته البسمة: «فزت ورب الكعبة»[3] هنا وصل إلى ما هو الهدف، كيف وصل إلى ما هو الهدف؟ عبر حروب سياسية وعسكرية خاضها أمير المؤمنين عليه السلام وهو سيد المتقين وما كان أيسر له أن يقول أترك هذا الأمر لكم وأنا أعكف على القرآن والعبادة.

---

(1) مفاتيح الجنان: ١٥٨، عن إقبال الأعمال: ٢٩٩.

(2) معالم المدرستين/ مرتضى العسكري ٣: ٣٠٣.

(3) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٥؛ بحار الأنوار ٤١: ٢/ ح٤.

أمير المؤمنين لم يكن كذلك، الفناء في الله حققه أمير المؤمنين في ليلة الهرير، السيوف محتدمة والمعركة مستمرة إلى الصباح في ليالي الهرير وأمير المؤمنين واقف بين الصفين وهو يصلي والسهام تترى على رأسه، هذا هو الفناء في الله في قلب المعركة الدينية والسياسية وأي لون من ألوان المعركة؟ معركة الحق مع الباطل، نحن هكذا يجب أن نكون تأسيا بأئمّتنا عليهم السلام، وبحمد الله فإن راية النصر تخفق على رؤوسهم والانجازات العظيمة الكبرى التي تتحقق لهم تجعل أعداءهم يتقطعون غيضاً وألماً مما يحققه شيعة أهل البيت من انجازات، هذا هو المطلوب من طلاب العلوم الدينية.

وأنا في الختام أقدم لنفسي ولكم نصيحة رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى ننتقل إلى مجلس نصح ووعظ لكي نتعظ نحن.

موعظة الرسول صلى الله عليه وآله:

وهذا قيس بن عاصم كما يروي الشيخ الصدوق في كتاب الخصال يقول: نحن مجموعة وفدنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وقلنا: يا رسول الله نحن نعيش في الصحراء ولا نحظى برؤيتك كثيراً، حدثنا بحديث يكون لنا عظة تبقى لنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا بدَّ لك من قرين يُدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرَمك وإن كان لئيماً أسلَمك وهو فعلك».[1]

يقول الصلصال وكان حاضراً، قلت: يا رسول الله هذه

---

(1) روضة الواعظين: ٤٨٧.

النصيحة لو نظمت لنا شعراً حتّى نفتخر به على العرب، فدعى رسول الله بحسان بن ثابت، ولكن قيس بن عاصم لم يكن شاعراً لكن الموهبة الشعرية تفوح يومئذٍ في الجو العربي، يقول الصلصال: بينما أرسل الرسول إلى حسان بن ثابت ليدعوه حضرتني أبيات أنظم بها هذه الموعظة لرسول الله ﷺ.

قلت: يا رسول الله لقد حضرتني أبيات فهل تسمح لي أن أقرأها عليك وأنظم هذه الموعظة؟

قال: قل، فانشدته هذه الأبيات:

تخيَّرْ خليطاً مِن فعالِكَ إنما	قرينُ الفتى في القبر ما كانَ يفعلُ
ولن يصحبَ الإنسانَ مِن بعدِ موتِه	ومِن قبلِه إلاّ الذي كانَ يعملُ
ألا إنما الإنسان ضيفٌ لأهلِهِ	يُقيمُ زماناً فيهمُ ثمّ يَرحلُ

فقبلها رسول الله ﷺ.

هذه النصيحة اليوم نحن حري بأن نضعها لافتة أمامنا:

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله	يقيم زماناً فيهم ثمّ يرحلُ

أيها الاخوة، أيها السادة، نحن وأنتم ضيوف في هذه الدنيا، أيام ونرحل ويأتي غيرنا مكاننا، وحينئذٍ لا ينفعنا إلاّ القرين الصالح.

تخيَّر خليطاً مِن فعالك إنما	قرينُ الفتى في القبر ما كان يفعلُ

تعالوا نتخير ذاك الخليط والقرين الذي يبقى لنا من أعمالنا، نحن نموت والدول تموت والأمم تموت، هذه المعارك السياسية كلها تموت، الأحزاب تموت وهكذا الاعتبارات، العناوين، هذا كله يموت

ويهدأ الموت ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾[1] الله تعالى يفرغ لنا يوم القيامة في الحساب، حينئذٍ دائماً يجب أن نستذكرَ:

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله يقيم زماناً فيهم ثمّ يرحلُ

نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا صالحة ويجعلنا من أهل الباقيات الصالحات، يوم نكون في قبرنا نرى عملنا الصالح نوراً في قبرنا إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) الرحمن: ٣١.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

نهج البلاغة: أمير المؤمنين عليه السلام/ دار المعرفة/ بيروت.

اختيار معرفة الرجال: الشيخ الطوسي/ مؤسسة آل البيت عليهم السلام/ ١٤٠٤هـ/ قم.

إرشاد القلوب: الحسن الديلمي/ مط الحيدرية/ النجف/ ط ٣.

أضواء على الصحيحين: محمّد صادق النجمي/ مؤسسة المعارف الإسلاميّة/ ط١.

إقبال الأعمال: ابن طاووس/ مكتب الإعلام الإسلامي/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ قم.

الأمالي: الشيخ الصدوق/ مؤسسة البعثة/ ط ١/ ١٤١٧هـ/ قم.

الأمالي: الشيخ الطوسي/ مؤسسة البعثة/ ط ١/ ١٤١٤هـ/ قم.

بحار الأنوار: العلامة المجلسي/ مؤسسة الوفاء/ ط ٢/ ١٤٠٣هـ/ بيروت.

البرهان في تفسير القرآن: هاشم البحراني.

بصائر الدرجات: محمّد بن الحسن الصفّار/ منشورات الأعلمي/ ١٤٠٤هـ/ طهران.

تحف العقول: الحسن بن عليّ الحراني/ مؤسسة النشر الإسلامي/ ط ٢/ قم.

تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي/ المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.

تفسير القرطبي: القرطبي/ دار إحياء التراث العربي/ ط ٢/ ١٤٠٥هـ/ بيروت.

تفسير القمي: عليّ بن إبراهيم القمي/ دار الكتاب/ ط ٣/ ١٤٠٤هـ/ قم.

التوحيد: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ قم.

جواهر المطالب: محمّد الدمشقي/ مجمع إحياء الثقافة الإسلاميّة/ ط ١/ قم.

حلية الأبرار: هاشم البحراني.

الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي/ مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام/ قم.
الخصال: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ قم/ ١٤٠٣هـ .
رسالة الولاية: محمّد حسين الطباطبائي.
روضات الجنّات: محمّد باقر الخوانساري/ ط ايران.
شرح أصول الكافي: محمّد صالح المازندراني.
شرح مئة كلمة: ميثم بن عليّ البحراني/ جماعة المدرسين/ قم/ ١٣٩٠هـ .
صحيفة الحسين: جواد القيومي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ ط ١/ ١٣٧٤هـ ش/ قم.
الصحيفة السجادية: الإمام السجاد عليه السلام/ مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام/ ط١.
عدة الداعي: أحمد بن فهد الحلي/ مكتبة الوجداني/ قم.
علل الشرائع: الشيخ الصدوق/ المكتبة الحيدرية/ ١٣٨٥هـ/ النجف.
عيون الحكم والمواعظ: عليّ بن محمّد الليثي/ دار الحديث/ ط ١/ ١٤١٨هـ/ قم.
الفصول المهمة في أصول الأئمّة: الحرّ العاملي/ مؤسسة المعارف الإسلاميّة.
الكافي: محمّد بن يعقوب الكليني/ دار الكتب الإسلاميّة/ ط ٣/ طهران.
كلمات الإمام الحسين عليه السلام: محمّد الشريفي/ دار المعروف/ ط ٣/ ١٤١٦هـ/ قم.
كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق/ مؤسسة النشر الإسلامي/ ١٤٠٥هـ/ قم.
المبسوط: الشيخ الطوسي/ المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.
مجمع الزوائد: عليّ بن أبي بكر الهيثمي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ ١٤٠٨هـ .
المحاسن: أحمد بن محمّد البرقي/ دار الكتب الإسلاميّة.
المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري/ دار المعرفة/ بيروت.
مستدرك الوسائل: النوري الطبرسي/ مؤسسة آل البيت/ ط١ المحققة/ بيروت.
مسند أحمد: أحمد بن حنبل/ دار صادر/ بيروت.
مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي/ مؤسسة فقه الشيعة/ ط ١/ ١٤١١هـ/ بيروت.

معاني الأخبار: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ ١٤٠٣هـ/ قم.
مفاتيح الجنان: الشيخ عباس القمي.
مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب/ المكتبة الحيدرية/ النجف الأشرف.
من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ ط ٢/ ١٤٠٤هـ/ قم.
منية المريد: الشهيد الثاني/ مكتب الاعلام الإسلامي/ ط ١/ ١٤٠٩هـ/ قم.
الميزان في تفسير القرآن: محمّد حسين الطباطبائي/ جماعة المدرسين/ قم.

* * *

فهرست الموضوعات

* * *